
رواية
شيرين سامي
من ذاق عرف
الدار المصرية اللبنانية

سامي، شيرين.
من ذاق عرف: رواية/ شيرين سامي.- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.
256ص؛ 20سم.
تدمك: 0 - 204 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 23482/ 2018

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: 2019م

رواية

شيرين سامي

من ذاق عرف

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى كل من أصابتهم لعنة ونعمة البحث عن ذواتهم

إلى كل اللطفاء المُلهمين الذين يساعدونهم على ذلك

«مستمر وإن كنت غير مستطيع».

صامويل بيكيت

كل يوم أزداد يقينًا بأن ما قررته من أجلي أجمل من كل ما اختاره القدر لي

بدايـة

كنت أشعر بعرج خفيف وأنا أترنح بينما أتفادى بعض المارة، قدمي اليمنى ثقيلة لا تواكب سرعة اليسرى، أقف لثوان وأنظر حولي، أحاول تذكر شيءٍ ما. لا إراديًا أداعب خاتم زواج في يدي، يموج في خاطري أننـي أحب الدبل وأرتديها من طفولتي. علـى جانبي حقيبة «لابتوب» وفـي يدي حقيبـة جلدية صغيرة. بحثت فيها عـن أي بطاقة أتعرف بها على نفسـي، لكنني لم أجد، أشعر بالغثيان وخوف يداهمني، ليس من الطريق لكن من أنني لا أذكر شيئا على الإطلاق.

توقفت بنظري على كشـك خشـبي بجواره بائـع ورد، حاولت أن أعيـد خصلـة من شـعري للوراء فلاحظـت أنها أطول ممـا أعرف عن شـعري، وقفت أمام البائع أبحث مرة أخـرى في حقيبتي عن نقود، لم أجد إلا بعض العُملات المعدنية، سألته أن أستخدم الهاتف ثم طلبت رقمًـا أحفظـه جيدًا، أتاني صـوت رجل بعـد الرنّة الثانيـة، قلت «آلو» بصوت مرتعش، رد:

-أي خدمة؟

-إنه أنا.

- من المتحدث؟

صمتُّ للحظات وعندما كرر سؤاله قلت:

- أنا لا أعرفك لكني أعرف رقمك جيدًا.

- لكن من أنتِ؟

- لا أعرف..لكنني أعرف أنك تعرف.

1

وقَفْت أمام باب الغرفة في رهبة، في يدي حقيبة يد كبيرة ممتلئة بحاجيات الأطفال، وحاجاتي الشخصية، كنت أرنو بصبر شديد إلى الغرباء الذين انتشروا في المكان، أحاول أن ألتقط شيئًا من ملامحهم، أقرأ تعبيرات أجسادهم ولفتاتهم بينما يواصلون البحث والتدقيق بدأب، لوهلة شعرت أنهم لا يعرفون عمَّ يبحثون؟ استمر أكبرهم قدرًا في مراقبتهم والتظاهر بفعل شيء مهم، لكنه لم يكن يفعل شيئًا على الإطلاق.

الغرفة واسعة، مستطيلة، بها مكتب كبير من خشب الأبانوس البنّي، حوافه مطعمة بقطع مشغولة من النحاس، فوقه مصباح قديم وصندوق جلدي صغير، فوق المكتب عدة كتب، بعض الأوراق والأقلام المتناثرة وفنجان قهوة. على الحوائط استندت لوحات عديدة، ولوحة واحدة قديمة للأهرامات بالأبيض والأسود في خلفية المكتب. وأريكة في الزاوية تحت النافذة المغلقة منذ زمن، لونها درجة متوهجة ما بين البني والأحمر. على الحائط المقابل للمكتب توجد مكتبة بسيطة التصميم متخمة بالكتب المرصوصة بشكل منظم وأخاذ. تتدلى من السقف ثريًا كريستالية قديمة مغطاة بالتراب، كانت

في صالون بيتنا القديم، وعلى الجدار خلف المكتب عُلِّق مصباح كبير، لمباته طويلة وإضاءته بيضاء.

انتهوا من البحث والتقطوا بعض الأغراض في حقائب بلاستيكية لها سحّاب يغلقها بعناية، حتى فنجان القهوة تحفّظوا عليه، في الصالون القديم الإبيسون النبيتي المنقوش برسم لروميو وجوليت جلسنا أنا وهو، سألني:

- لماذا لم تتصلي بالشرطة من يوم أن اختفى؟

- كنت أبحث عنه عند أقاربنا ومعارفنا.

- هل يعيش وحده؟

- نعم منذ عامين.

- ما أول ما خطر ببالك عند غيابه؟

- توقعت أنه يكتب كتابًا جديدًا.

- هل يعتاد الكتابة خارج البيت أو التغيب لأيام؟

- أبدًا..هو دائمًا يكتب على مكتبه أو على مائدة المطبخ.

عندما انتهى من أسئلته وهم بالمغادرة، هرعت وراءه، قلت:

- أرجوك لا تخبر الصحافة، تعرف أن أبي كاتبًا معروفًا..لا أريد لأحد أن يتناوله بخبر سيئ أو كلام لا صحة له.

رحل الضابط بثياب ملكية، ومعه عساكره، وبقيت وحدي في البيت الذي أحببته يومًا ما رغم أنني لم أعش به، كان دائمًا مرتبطًا

بالسحر والغموض والأسرار. هنا كتب أبي معظم كتبه ومقالاته منذ اشتدت المعارك واضطر ألا يكتب في البيت، هنا كنت آتي قديمًا في زيارات خاطفة، تحرص أمي على ألا أقيم به أكثر من ساعات حتى لا أتعلق به أو تأخذني الندّاهة التي أخذت والدي، وهنا أصبح يقيم إقامة كاملة في الأعوام الأخيرة قبل رحيلها.

تملكتني عاطفة غريبة إزاء كل ما حدث سريعًا منذ صباح هذا اليوم، برود يلف قلبي وأطرافي، حتى عقلي، ويكاد يشله عن التفكير، أحاول أن أعثر في طيّ الذكريات وفي زوايا روحي عن حُب قديم له، عن حنان، حتى عن شعور إنساني من التعاطف تجاهه كغريب فُقِد في مثل عُمره ووحدته. لكن لا شيء سوى البرود.

عندما دخلت بيتي أخرجت دجاجة مثلّجة من الثلاجة، نقعتها في ماء ساخن، تركت الحلوى للأطفال المشغولين أمام الشاشات.

ذرعت البيت ذهابًا وإيابًا، عقلي تدرب ألا يفكر في الأمور الهامة وأنا ساكنة. أفكر كأني أقلب كل الأمور التي تشغلني في صحن كبير، عميق، بمغرفة خشبية طويلة تخلط كل الهموم الكبيرة والصغيرة، كلما خطرت لي فكرة أضفتها للخليط، وكلما شعرت بإلهام رششته على الخليط، أعتصر مشاعري على الخليط وأظل أقلب حتى أشعر بالألم، من التقليب أو من السير العليل الطويل في مساحات ضيقة، فأضع الخليط في الثلاجة إلى إشعار آخر. في الحمام غسلت شعري وفركت جسدي بصابون سائل كريمي برائحة الخوخ، وكعبي بحجر

أسود خشن. طقسي الطويل في الاستحمام اختصرته من كثرة الإنهاك. في غرفتي تمددت على السرير أُفكّر بعمق واسترخاء. ماذا سأطبخ مع الدجاجة؟ بطاطس أم بازلاء بالجزر؟!

***

كان علي أن أتصرف وحدي. كما كنت دائمًا. وحدي أتحمل نفورًا وشجارًا مستمرين، وحدي أحاول أن أصلح ما يفسده أبي بشروده وغيابه وما تفسده أمي بشكواها والضجر، أحاول أن ألتقط خيط حب من هنا وهناك وأربطهم لتعود الحياة للحياة، لأنعم ببقائي بين أب وأم مستقرين سعيدين مثل معظم أصدقائي، كان عليَّ أن أتنفس أبخرة الغضب وأقف أمام خماسين الخلاف وأشباح الفراق. وحدي اجتمعت بي أمي لتخبرني أنها لم تعد تطيق، ووحدي اجتمع بي أبي ليخبرني أنه لم يعد يحتمل، كانت غاضبة، مصرّة، وكان رقيقًا مغلوبًا، ثم تنتهي الخلافات دائمًا فجأة، عندما تقرر أمي أنها لن تتركه، ويقرر هو..هو لم يكن يقرر أبدًا.

بعد الزواج بقيت وحدي، قرر زوجي أن يبحث عن المال بعيدا عنّا، ليسعدنا (كما يقول)، الآن أيضًا عليّ أن أتصرف وحدي، أن أجد أبي. الرجل المتزن، الأكثر التصاقًا بالبيت، كيف يختفي؟ وهو الذي يشعر بالغربة لو غادر المنزل لأيّ سبب، كيف يختفي؟ وقد عاش أخيرًا الحياة التي اختارها بعد أن رحلت أمي، الآن بعد أن انفضّ

الاشـتباك وانفصل الماء عن الزيت بعد أعوام طويلة من الإصرار على الاختلاط، يختفي..هكذا بمنتهى البساطة!

كان علـيَّ أن أطلـب الشـرطة، بعـد ثلاثـة أيـام مـن الاتصـالات والتنقيـب في كل الأماكن وبيـن كل الأصدقاء والمعـارف، وأن أخبر أخـي المهاجر وزوجي المسـافر رغم ثقتي بـأن إخبارهما لن يغير في الأمـر شـيئًا. إن حياتي لا تحتمل مثـل هذه الأفعـال، أطفالي الذين ما تعـودت تركهم، عملي الـذي تغيبت عنه، بيتي الـذي لم يعد يحتويني إلا في ساعات النوم.

كل هـذا العنـاء من أجل رجل لم يهتم في حياته سـوى بنفسـه، إن حبي له يتخللـه حاجز عظيم، زجاجي، تظهر خلفه كل الأيام التي بعد عنّـا بها، كل الأيـام التي بكت أمي فيها وانتظرت وتعذّبت. والآن يأبى إلّا أن يضيف لرصيده في قلبي فضيحة أخرى! من الجيد أنني احتفظت بهاتفه المحمول قبل أن تأتي الشرطة، الآن..بعد أن أنتهي من واجباتي المؤجّلة سـأرقد في سـريري وأتفحّصه على مهل. لن أدعه يسبب لي القلق كما سببه دائمًا لأمي.

أنـا هنا مع أولادي وغدًا سـأعود إلى عملـي، وأنت بالتأكيد تكتب شيئًا غريبًا في مكان غريب. فلم القلق!

2

لـم تمنعنـي حـرارة الجـو ولا غيـاب أبـي عـن تمشـيتي اليوميـة الصباحية في شـوارع مدينة الرحاب بين الفيلات والحدائق. أجمل ما في هذه التمشية أنها بلا تقليب للأمور. لكن في هذا اليوم أتت تمشيتي بطيئة ومشـتتة، كنت شاردة لدرجة أنني وقفت عدة مرات في الطريق، أستجمع أشياء قديمة وأخرى جديدة، أصنع القوالب وأربط الخيوط. ما وجدته في هاتف أبي شتتني.

عندمـا ذهبـت للعمل أمضيت يومًا روتينيًّا آخـر، كان الملل يطبق على أنفاسـي، حتى حـوارات الزملاء لم تجذبني للمشـاركة كالعادة، لـم يكـن السـبب اختفـاء أبي فقط. فـي العـام الأخير أصبحت أشـعر بالرتابـة تأكل من روحي، وتشـرب من عمري. عشـرة أعوام في نفس المكتب ونفس طبيعة العمل، نفس الأسئلة والإجابات والملاحظات والاجتماعـات. حتى مديرتي تجلس على مكتبها لها عشـرة أعوام. لا شيء يتغير بترقية جديدة.

بعد أن شرِبت الشاي باللبن بتؤدة. وأنا أراجع بعض الأوراق أمامي لاحظت حمامة صغيرة تختبئ في كوة بجدار مبنى مقابل للنافذة، كانت

تحتمي قليلًا من الشمس، لا أدري لماذا لاحظت الشمس كأنني أراها لأول مـرّة، لم أشـعر بها أبدًا مـع أجهزة التكييف التـي تحاصر يومي، اقتربـت من النافـذة وفتحتها، طـارت الحمامة ولسـعتني حرارة الجو وأنا ساهمة. قبل أن تتهمني زميلاتي بالغرابة عدت لمكاني أفتح عينيَّ ولا أرى، أسـتمع لهم وأشـارك بكلمات دون أن أصغي، عندما طلبت منـي إحداهـن أن أذهب لمكتب مديـرة الإدارة. عرفت أنها سـتبلغني بموافقتهـا علـى منحي المنصب الذي ينـاسـب سـنوات عملي، لكنها اعتـذرت وأبلغتني أنها منحته لزميلة أصغر لكفاءتها في العمل بإحدى المشـاريع ولأن المنحـى الجديد الـذي تتخذه الوزارة هـذه الأيام هو منح الشـباب فرصًا لـلإدارة. ثم طلبت مني عمـلًا إضافيًّا ومراجعات متأخّرة.

اشـتعل فتيـل غضب مكتـوم داخلي، قفز السـؤال مـرّة واحدة في رأسـي «لمـاذا أضيـع حياتـي بهـذه الطريقـة؟»، وجدت داخلـي يُلح ويصـرخ «توقفي!» شـيءٌ ما لابـد أن يتغير. بدون تفكيـر اتجهت إلى شئون العاملين وفعلت ما لم أقم به منذ سنوات.

مع أول صباح في الإجازة التي وقّعتها بالأمس لمدة شـهر، تركت الأطفـال فـي البيت واتجهـت لمكتب أبـي بحي المنيـل، نفّضت عنه الأتربـة، فتحـت الشـبابيك عن آخرهـا، لمّعت الأنتيـكات، رصصْت بعـض الكتب المبعثـرة، أفرغت مطفأة السـجائر من الرماد، مسـحت الأرض الخشـبية والكراسـي الجلدية، نظّفت المطبـخ، تخلصت من الـزرع الميـت ورويـت مـا ينبض منـه بالحياة بعـد أن أزلـت الأوراق

الصفـراء، كان نهارًا شـاقًّا. برغم أن لديّ من تقـوم بتنظيف منزلي، إلّا أننـي آثرت أن أكون وحدي في المكان وأعرف كل تفاصيله، أُدرك أن تفاصيل الأماكن لا تظهر إلّا لمن يعتني بها.

عندما عدت لبيتي طلبت للصغار البيتزا، فضضت بعض الخناقات بينهـم، وبعـد حمام دافئ استرحت أخيرًا على سـريري البـارد، كنت قديمًا أسميه سريرنا حتى اكتشفت أنه فعليًّا سريري. استعدت ذكرياتي بمزيد من الربط والتركيز، شعرت أنني أشبه الماء، ليس في فائدته لكن في تماهيه مع الأشـياء، يتغير لونه وطعمه مع أي إضافة بسيطة، ينقلب ببسـاطة من حلو لمُّر، من نظيف لقذر، من شـفاف رقـراق للون قاتم. لا شـيء يميزه، لا يترك أثره على شيء، هو مجرد منساق ذليل لكل ما يفرضه عليه الآخرون.

هذا الحزن الدفين الذي بدأ يتسرب لي في هذه اللحظة، شعرت به من عدة أشـهر. كانت «مَلَك» معي في مكتب العمل بعد إلحاح شديد منهـا أن ترافقني ليوم واحد أثناء إجازة نصف العام، هناك كان الجميع يعلّقـون على الشـبه الكبير بيني وبينها، سـألها أحدهـم: «تعرفين أنك شـبه مامي؟» قالت: «أعرف»، سـأل مرّة أخرى: «وهل يعجبك هذا؟» قالـت: «يعجبني أن أشـبهها في شـكلها لكـن لا أريد أن أكـون مثلها» سـأل: «لماذا؟» أجابت: «مامي تحب الأشـياء العادية وتكره الصوت العالي والأفلام والملاهي..هي تبدو لي ليست سعيدة».

لـن يفهـم أحدهم أبدًا القسـم الذي أقسـمته على نفسـي أن أُنجّح حياتي الزوجية وأُسـعد أسـرتي تحت كل الظروف، بعد كل ما مررت

به من انقسام وتمزّق في بيتي القديم، لن أُعرّض أسرتي لنفس الألم، لن أكون أبدًا أمًّا غاضبة. أستطيع أن أحصر حياتي في القيام بالمهمات وتقديم الدعم والحب والاهتمام بالأشياء العادية، لن تفوتني الفرص ولن أُؤجل الأحلام لأنني لم أمتلك حلمًا ذات يوم.

قبل أن أنزلق للنوم رنّ هاتفي برقم زوجي، أحصيت المرات التي رَدَدْتُ فيها بلفظة موافقة «آه أو امم أو نعم أو الحمد لله» كانوا ثماني مرات، سألني في العموم، لم يسألني عن تفاصيل كعادته، ولم أحك كعادتي. اليوم استنفدت كل طاقة الحكي ولا أريد إلا يدًا تربت عليَّ وحضنًا يضمني، أشياء لم أتمنها من قبل. كنت دائمًا المرأة العملية كما أرادني، لكن اليوم في هذه اللحظات الحرجة من حياتي أشعر أنني في أمس الحاجة لتمس يده ظهري، لهمسات حلوة، لضمة تقول: إن كل شيء سيصبح بخير. قبل أن ينهي اتصاله طلب مني أن أحجز موعدًا للسفر له كعادتنا كل صيف، كأن أبي لا يستحق البحث والانتظار! رفضت بلباقة ولم يعارضني.

لم ألمه لأن هذه هي الصورة التي صدرتها له عن حياتي، أنني تقريبًا بلا أب.

في هذه الليلة هجرني النوم، جلست على سريري وفتحت ملفًا جديدًا وصفحة جديدة كتبت فيها افتتاحيتي الأولى: أنا بحاجة إلى صديق أعمى وأصم أحدثه عن كل شيء، أعتقد أنني بحاجة إلى أن أكتب.

***

في يوم من أيام نوفمبر والجو رائع، أمي وأبي يجلسان في غرفتهما وأنا أقف على الباب أحاول أن أرهف السمع لما قد يُطمئن قلبي الصغير أن ثمّة حياة ستمتد بنا، أنني سأنام كل يوم في سريري، أصحو على صوت أمي، أودع أبي بقبلة وأشير لهما من شبّاك باص المدرسة. سمعت صوت أمي المخنوق بالدموع تقول:

- الكتابة هي السبب.

منذ وعيت على الدنيا وأنا أسمع هذه الجملة. أسمعها كإقرار، كنتيجة نهائية، كغلاف خارجي برّاق تغلف به أمي كل الحوارات والخلافات والمشادات بينها وبين أبي. أسمعها فأعرف أن الكون سيتوقف بي قليلًا، وسيتوقف معه تنفسي ونبضي وفرحي وكل شيء. إلى أن تأتي لحظة النهاية عندما يغلقان الباب بالمفتاح، ثم يفتر بعد ساعة أو أقل عن أمي مبتسمة وعلى شفتيها بقايا حُمرة وأبي متمدد على الفراش ورائحة عطر قوية تسري في المكان.

كانت رائحة هذا العطر هي رائحة أماني. لسنوات عديدة كنت أنتظر اليوم الذي أشمه فيه أشد من انتظاري لساعات المرح والإجازات. كنت أستغل غياب أبي لأنام في سريرهما وأشم بقايا العطر على وسادة أمي فأستعيد ثقتي بالحياة.

- الكتابة هي السبب.

كنت أشعر باحتياج شديد لأبي عندما يكتب. لكن مقاطعتي له كانت تشعرني بأنني مرفوضة، أجد منه نفورا أوغرابة شديدة تصل به

لأن يقبّل يدي حتى أتركه. كان يبدو كأنه شخص آخر. في مرّة عندما قاطعته لأحكي له قصة صديقتي التي فتنت عليّ للمعلمة، استدار فجأة ورفع رأسه من على الورق، قال بصوت لا يشبه صوته: من أنتِ؟، خفت. شعرت أنه عندما يكتب لا يصبح أبي، أدركت فيما بعد أنه يصبح الأشخاص الذين يكتبهم، يعيش في الأحداث التي يكتبها ولا ينتمي لنا. تعلمت ألا أقاطعه أبدًا.

كنت أراقبه أحيانًا، أقف بالقرب من باب المطبخ، عندما يكتب على طاولة المطبخ الخشبية، أو أقف خلف أحد الكراسي الضخمة، عندما يكتب على مائدة السفرة، حوله دائمًا عدة كتب، يمس خصلة من شعره باستمرار، يشرد كثيرًا، ساعات تمر دون أن يكتب شيئًا، وأحيانًا أخرى لا يرفع عينيه عن الورق ويكتب بنهم. لم يشعر بعيوني الصغيرة المتلصصة أبدًا. في يوم انزلقت بالقرب منه وصرخت، ظل ينظر لي ببلاهة حتى أتت أمي لتساعدني على النهوض.

- الكتابة هي السبب.

أمي تبدو ضائعة، وهي التي تعرف عنّا كل شيء. عندما ينجرف هو لعالمه كانت تتمسك بنا كآخر خطوط الدفاع، كالقشة التي تنقذ الغريق، لكن هو كان الغريق.. هي كانت دائمًا على الأرض. ثم بدأت تفلتنا وترد انشغاله عنّا بانشغال أكبر. كنت أقف على مقربة من الستائر الثقيلة في زاوية الغرفة أتنَصَّت على شكواها المستمرة منه. أخاف ويرتجف قلبي دون أن أُشعرها، أتمادى في سماع الأغاني في

(الووكمان) الأسود الذي اشترته لي في عيد ميلادي الثاني عشر وفي التظاهر بأن كل ما يحدث لا يخصّني.

-الكتابة هي السبب.

تقول أمي، فأنسحب أنا، أشحن قلبي بكل ما أوتي من قوة كي يكره الكتابة، لأنها كانت دائمًا السبب.

رسائل مرسلة:

المرسل له: ندى عصام

يوم الثلاثاء 2015/07/14

(لماذا غضبتِ؟ أن أقول لكِ الحقيقة خير من أن أنافقك. أكررها لكِ، أمامك الكثير من الوقت والجهد حتى تصبحي كاتبة حقيقية. أنتِ جميلة وهذا قد يجعل الأمور تبدو أسهل في نظرك. تُبدّلين صورك وتكتبين المشاعر التي تحمل في طياتها الجنس. كل هذه عوامل للانتشار والنجاح الذي تبغينه. سيحضرون حفلاتك وندواتك ويلتفون حولك ويلتقطون الصور معك، ثم يعودون للمقاهي الثقافية ليسبّوا في كتاباتك ويمتدحوا أشياء أخرى. لا يفترض بي أن أخبرك عمّا يدار وراءك ويقال عليك وعلى غيرك، لكني آثرت أن أكون صريحًا معك، فلم الغضب؟ اسمعي، دعينا نلتقي في نفس المكان لنستكمل حديثنا وأوضح لك أكثر. سأكون هناك من الواحدة ظهرا..أنتظرك)

المرسل له: مازن جلال

يوم الثلاثاء 2015/7/14

(أنـا تعبت يا مازن وفي مثل سـنّي الاعتراف بالتعـب أمر غير وارد رغم حدوثه، كنت أقولها كثيرًا وأنا في عمرك لكن تعب الشـباب ليس إلا بروفة لتعب الكِبر. قريبًا أحدثك ونلتقي لنكمل حوارنا السابق)

المرسل له: سيد عفيفي

يوم الأربعاء 2015/7/15

(هذه رسـالتي الأخيرة بخصوص حسابات الطبعات القديمة لكل الكتب. لو لم ترسلها خلال يوليو فسأضطر للجوء للقضاء)

المرسل له: لطفي الشاهد

يوم الأربعاء 2015/07/15

(لا تفعل ما نويت عليه)

(ولا تخبر ليلى)

3

لـه عرق يبـرز في جبينـه كلمـا انفعل، يـزرَّق كلما غضـب وكلما كان يكتـب، أتذكـره الآن وأنا علـى أريكـة مقابلة لمكتبـه، أرى هيئته المتواضعـة، بِنيتـه القليلة، ظهـره المقوس عندما يكتب، رأسـه الكبير الذي فقد بعض شـعره في السنوات الأخيرة، وذقنه البيضاء التي تميزه كثيـرًا بنقشـة السـواد فيها. لـم تكن هيئتـه تمثل لي أي شـيء من قبل، ملامحـه مطموسـة أتذكرها فقط عندما أحاول أن أسـتدعي شـبهًا بينه وبين ابني الأصغر «سليم».

على مكتبه بعض الكتب الإنجليزية وأخرى عربية وتراجم، ملفات ورقيـة صغيرة تحوي قصاصات من جرائد ومجلات، لا مجال محدد لقراءاتـه وإن غلب عليها التاريخ والفلسـفة. كتاب واحد بغلاف برّاق لا يشـبه الكتب القديمة أو الباهتة حوله، رواية اسمها «حُب وخذلان» امتعضت للحظة من مباشـرة العنوان فوق رسـمة لامرأة نصف عارية، اسم الكاتبة سُطر بخط أصغر تحت اسم الرواية، «ندى عصام». المرأة التي أرسل لها رسالة قبل اختفائه بأيام.

حاسـوبه لا يوجـد عليـه سـوى صـور قديمة لـه مع أصدقـاء كثر وصـور قليلـة له معـي ونادرة مع أمـي، أذكر جيدًا كيـف كانت ترفض

التصويـر، ملفـات عديدة لكتبه ومسـودات قليلة، أعـرف أنه لا يكتب على الحاسـوب، ويفضّـل الكتابة على الورق الأبيـض. حاول مرات عديدة أن يشـركني فـي تفاصيل الكتابة والنشـر، كان يحكي لي غصبًا وكنـت أتظاهر بعدم الاهتمام، أتجاهلـه حتى يتوقف، حتى لا أُغضِب أمي.

دوّرت محرك البحث الإلكتروني عن «ندى عصام» وعثرت على صفحتها على الفيسـبوك. شابة صهباء تمد شفتيها كأحدث محاولات الـدلال في الصور، تعرّف نفسـها على أنها خريجة كلية الآداب قسـم إعـلام والعمـل كاتبة، تذكر بعـض المقولات الدارجـة كأكثر الجمل التي تعجبها، كتبت نصًّا متكلفًا تصف به وجهة نظرها في الحياة، على حائطها روابط عديدة لإدراجـات مختلفة تعبّرعن أكثر الأفكار بديهية في العالم وصور عديدة سـاخرة، هذه السـخرية الحديثة التي تُضحِك من فرط غبائها.

حصلـت على رقم هاتفها المحمول مـن هاتف أبي واتصلت بها، أتانـي صوت ناعـم ينغّم الكلام بدلال، عرّفت نفسـي لها كابنة الكاتب «يحيـى منصـور»، رحبت بـي ترحيبًا حذرًا وسـألتني عـن والدي، لم أجب عن سـؤالها وطلبت منها أن أقابلها في أقرب وقت. اسـترخيت على الأريكة المقابلة للمكتب ورحت أقرأ رواية «حُب وخذلان».

فـي مسـاء اليـوم التالي فـي مطعم خشـبي صغيـر بحـي الزمالك قابلتهـا. كانـت ترتدي فسـتانًا ضيقًا بنفسـجيا، تضع عدسـات لاصقة

زرقاء وزواق كامل، بينما أرتدي بنطالا أسـود وقميصًا سـماويًا وأترك وجهي الشاحب بدون زواق، كنت نادرًا ما أغيّر طلتي البسيطة، لكنني شـعرت بحـرج فـي هـذه المقابلة لتفـاوت مظهـري مع مظهر الشـابة أمامـي، لاحظت أظافرها الطويلة المطلية، وألقيت نظرة على أظافري القصيرة المكسـورة كأنني أراها لأول مرة، قالت بأداء مسـرحي وهي تمسح المكان بعينيها:

- هنا..هنا كتبت كل رواياتي.

تفحصت المكان سـريعًا، لم أجد إلا عدة طاولات قريبات، تكاد تلتصـق ببعضها، بعـض التابلوهات التقليدية التي بـدت لي بلا روح، إضاءة خافتة لا تصلح لتمييز الألوان من بعضها. ونوافذ قاتمة لا تظهر النهار عندما ينتظر بالخارج. استكملت:

- آه يا عزيزتي كانت لي هنا أيام مع الإلهام..عادة ينزل علي هنا.

- دعيني أسألك عن بابا.

- «يحيى» رجل «عسّول».

بعد لحظة تعّجب وصبر قُلت:

- وكيف اكتشفتِ ذلك؟

- من حواراتنا الكثيرة بدون شك..لكن لماذا اخترتني أنا لتسأليني عنه؟

- وجـدت روايتـك فـي مكتبته..ووجـدت إهـداءك الحميمـي، والعديد من الصور لكما في ندوات وحفلات توقيع، شـعرت أنك قد تساعديني.

- بابـاكِ إنسـان جميـل، علّمنـي الكثيـر مـن الأشـياء فـي الكتابة والحياة.

بدأت تُدخّن ودعتني لسـيجارة، كنت أدخّن أحيانًا وحدي بعد أن ينام الأولاد، لكني لم أعتبر نفسـي مُدخّنة قط، هو فعل أشبه بالتنفيث، محاولـة تافهة مني أتحدى بها الكون، تحـدي الضعيف، حتى لا أفقد إيماني بأنني أسـتطيع أن أقف فـي وجه العالم وأنفث دخاني..حتى لو كان من نافذة غرفتي الضيقة.

- باباكِ هو أكبر وأهم متابع لي.

«متابـع لكِ؟!!» همسـت لنفسـي، ثم قلت دون أن أبـدو لا أعرف الكثير عنه:

- بابا أكيد له تلامذة كثر. لكن ما لاحظته أن ما بينكما كان أكثر من هذا الشيء بين مُعلم وتلميذته.

نفثت دخانها ببطء ثم قالت: فليكن! ما شأنك بهذا؟

عندما تغيّرت لهجتها لأخرى أسوأ لملمت رداء ذوقي وقلت بنبرة قوية هادئة:

- وما شأنك أنت برجل هو أبي؟

- اسأليه.

قلت بنفاد صبر امرأة ثلاثينية أمام عشرينية ممسوخة الدلال.

- أكلمك الآن كناضجة!

- أخبرتك أنه متابع لي ومهتم بأمري وأننا أصدقاء.

- حسنًا..هل أخبرك برغبة في السفر أو الانعزال لكتابة شيء جديد أو ما شابه؟

- لا، أبدًا.

- هل ثمة ارتباط بينكما؟

- أعتقد لا.

- هل في علاقات الحب اعتقاد؟

- ما بيننا كان شيئًا غير مفهوم. أنا أراه صداقة واحتواء. كان يحتويني في الكثير من الأوقات. أما من ناحيته قد يكون الأمر مختلفًا..

بعد القليل من المراوغة وعندما لم أتحصل منها على شيء مفيد، ضربت آخر كرة في المباراة.

- قبل أن أغادر أحب أن أقول لك رأيي البسيط في روايتك السابقة. إنها أكثر عمل مبتذل وركيك قرأته في حياتي. قضيت معها أسوأ ليلة على الإطلاق.

لـم أكـن قرأت روايات مـن قبل لكن الموقف تطلـب مني أن أبدو كقارئة داهية.

لم تتحـرك ندى عن الكادر الذي اختارته لنفسـها، وإن كان جفنها ارتعش.

- أنا معتادة على هذا النوع من الكُره. لكن الغريب أن يأتي من ابنة مثقف!

- أنا ابنة رجل علّمني أن أقول الحقيقة دون تجميل أو زيف.

حاولـت ندى أن تبدو أكثـر عملية ومهنية، قالـت بنبرة هادئة وهي تطفئ سيجارتها في المطفأة الزجاجية أمامها:

- الرواية القادمة أثق أنها من أروع ما كتب النساء، ستدهشك.

- أعرف.

ردت وقد بدأ صوتها يضيع: وكيف عرفتِ؟

- رأيت نسخة من مسودتها على مكتب أبي وعندما قرأتها وجدت تصحيحاتٍ بخط يده تعادل رواية أخرى! أفضل بكل تأكيد.

(الضربة القاضية وصفّر الحكم لينهي المباراة)

***

كمن ألقوه في غيابات الجب فوجد نفسه وحيدًا، عاجزًا في مكان ضيق ومظلم. منذ اختفاء أبي وأنا عاجزة ليس عن إيجاده فحسب لكن

عن إيجاد نفسي، لم أكن أعرف حتى أن نفسي ضائعة إلا عندما وقفت أمامها لأول مرة بلا رتوش ولا أحجبة، فلم أجدها. أسير على درب يشبه دربي وأعيش حياة تشبه حياتي، أتنفس لأنهض، آكل لأمنح، أتحرك لألبّي، أنبض لأستمر. ومع ذلك شيء فيَّ يقاوح الرضوخ، ينطلق في رأسي كصفارة إنذار تهز ما تبقّى من كياني. شعرت به لأول مرّة عندما كان ابني البكر رضيعًا، كان يصرخ بقوة، وزوجي يعنّفني على إهمال ما، وحماتي تقدم اقتراحاتٍ عن تربية الأطفال، يومها وجدت نفسي أبدّل ثيابي في هدوء وأنزل للشارع بين صياحهم. مشيت بلا هدى وجسدي كله يصفر، يرفض ويقاوم، حتى استرخى وهدأ العويل فعدت.

اليوم عاودني نفس الشعور بعد أن تركت الكاتبة المزعومة، كنت أمشي في شوارع الزمالك متخبطة، للحظات فقدت شعوري بالمكان والزمان، أتعلق مثل الغريق بأغنية تأتي من مقهى أمر به، بفاترينة تعرض ثوبًا يعجبني. لا أدري متى عقدت مقارنة بيني وبينها، رشاقتها وجسدي نصف الممتلئ، ثيابي البسيطة حد اللاوجود، وثيابها الفاقعة التي تؤكد وجودها كل دقيقة، الثياب لم تكن أبدًا ضمن اهتماماتي، فلماذا تطل في رأسي الآن؟

رغبة ملحّة داخلي كانت تشبط مثل العيال في شراء ثياب جديدة، تذكرت آخر مرة اشتريت فيها ثيابا، كانت في آخر إجازة قضيتها في الدوحة، عدة قمصان بألوان مختلفة لنفس الموديل. لكن أين قناعتي

بـأن الثيـاب لا تمنحنا شـيئًا، لا تضفي على مظهرنا إلا صـورا وألوانا، كنت أشـعر أحيانًا أننـي لا أرى من الناس إلا رءوسـهم ونحورهم، ما غير ذلـك لا يميزهم عندي، وكان أصدقائي يسـخرون من إيماني بأن الأرواح هي التي تمنح الطلّة وتعطي الثياب طباع أصحابها. لماذا يلح عقلي الآن على هذا الطلب المُراهق؟

منذ بدأت في كتابة هذه اليوميات من أيام بأثر رجعي، وشيء داخلي أصبح يتخذ شـكل الحمامة، هادئ ومسـتكين ومنتظر، لكن مشكلتي مع الكتابة تكمن في التوقيت، كيف أجمح هذه الرغبة لسـطر الأفكار التي طرأت مؤخرا على رأسـي وأؤجلها في انتظار وقت مناسب بعيدًا عـن التزامات الواقع؟ اليوم بعد أن عـدت كان عليَّ أن أُطعم الصغار، أروي الزرع، أضع الحبوب للعصافير، أُنظّف المطبخ، وأشـاركهم في البيت بعض المرح. بعد أن نام أصغرهم لم أكتب، انسحبت من الدنيا لأرصّ الثياب الجديدة التي اشتريتها من دكاكين الزمالك في الخزانة. لم أشتر قمصانا هذه المرّة، اشتريت فساتينَ طويلة وقصيرة، من القطن ومن الشـيفون، سـادة ومنقوشـة بزهور. سيسـبب هذا عجزًا هائلًا في مصاريف الشهر. لكن لا بأس.

منذ تركت «ندى» وأنا أراجع مشاعري الغريبة، إن الغيرة لم تزرني منـذ زمن طويل، فهل هذا شـكل من أشـكالها؟ شـكل مكتوم وحزين منقسـم إلى أسـئلة كثيرة ورغبات مُلحّـة، إن زوجـي بالتأكيد يرى في موطـن عمله العديد من الإناث، لهن أجسـاد مشـدودة، شـعور مُلفتة

وأظافـر طويلة متسـاوية، حتى أطفالي بالتأكيد سيتسـاءلون: «لماذا لا تشبه ماما هذه الجميلة؟»

لـم أكـن حانقـة رغم ذلك، إنه شـعور آخر، يشـبه شـعورك عندما تكتشف فجأة أن بداخلك نهرا وسحرا ونسمات عذبة، لكنك اخترت أن تـردم النهـر وتلعن السـحر وتغلق النوافذ حتى لا تخرج النسـمات لدمائك. لم يكن هذا اختيار الحياة، كان اختيارك أنت بمحض إرادتك قـررت أن تطمـس الجمـال فيـك. تـردد جملا مثـل «الجمـال جمال الروح» «البسـاطة أجمل» «من يحبنـي يراني جميلًا فى كل الأحوال» حتى تصدق نفسك، تحصر جمالك في أسباب روحانية، وتنسى النهر والسحر والنسمات داخلك.

4

في الأيام التالية قضيت وقتي في مكتب أبي، أفحص كل ما يخصه. وجدت في أحد أدراج مكتبه مجموعة رسائل ملفوفة برباط من الخوص، شيء ما منعني من قراءة الرسائل بالمكتب فوضعتهم في حقيبة يدي. كنت أحاول البحث مرّة أخرى عبر حسابه عن خيط يوصلني به، دار النشر التي ينشر أعماله معها ربما، أصدقائه مثلًا.

بين الأصدقاء كان «مازن جلال»، هذا الاسم الذي وجدت رسالة باسمه على هاتف أبي قبل اختفائه بيوم واحد. إدراجاته على الفيس بوك تحمل روحًا غريبة، كتابات تحمل آراء سياسية وتاريخية مختلفة عن الدارج، صور وحكايات ملهمة، أخبار عن أشياء لا أحد يهتم بها، وأحيانًا قطع موسيقية قديمة أوأوبرالية أو شرقية. وجدت إعجابا من أبي قبل أسبوع واحد من اختفائه، معظم الإدراجات القديمة كان أبي معجبا بها، أحيانًا كان يدور بينهما سجال سياسي أو ديني، أو حول الثقافة والفن. بينهما فارق عمري لا يقل عن عشرين عاما، فارق لم يظهر إلا من خلال المعلومات المذكورة على حسابه.

لا صورة واحدة له. يضع لحسابه صورا لبسطاء أو لوحات عالمية أو مطربين غربيين وشرقيين لا أعرفهم. كان يضع في هذا

الوقت صورة لرجل وامرأة يرنوان لبعضهما بحب من داخل أحد مخيمات اللاجئين. لم أكن من مرتادي مواقع التواصل بشكل عام، كل علاقتي بها أن أدخل كل عدة أيام على حسابي لأطمئن أو أراقب حسابات زوجي وأبنائي وأقاربي. أُبارك لهذا وأُعزي ذاك، أعرف أكثر المواضيع تداولًا وأشاهد فيديوهات «النهاية ستدهشك»، دون التطرق لأي حوار. لذلك كان صعبا علي أن أراسل رجلا لا أعرفه، لا أعرف حتى شكله.

«صباح الخير، أنا ليلى يحيى ابنة الكاتب يحيى منصور، أحتاج أن أتحدث إليك إذا سمحت وهذا رقم هاتفي» نقرت زر الإرسال، تذكرت أنني لم أدرج الرقم في الرسالة فأرسلت رسالة أخرى بالرقم. ثم تذكرت أنني لم أراسله على هاتفه بل على حسابه على الفيس بوك، أربكني هذا الخاطر، ثم ما لبثت أن ارتبكت من ارتباكي. يبدو أن قراءتي المتواصلة لحسابه على مدار عدة ساعات جعلتني أشعر ببعض الألفة لأراسله هناك، رسائل مواقع التواصل بها قدر من الحميمية الغريبة والرغبة في التواصل بخلاف رسائل الهاتف الإخبارية الباردة.

عندما عدت لأطفالي لم أتوقف عن مطالعة الهاتف كل دقيقة في انتظار اتصال أو رد منه، لم يحدث لي هذا الأمر منذ أعوام طويلة، أن أنتظر بهذه اللهفة.

في المساء جاء رده في رسالة ترحيبية منمّقة تحمل رقم هاتفه وتطلب مني تحديد الوقت المناسب للاتصال. أرسلت له «الآن»،

جاءني صوته بعد أقل من دقيقة. حاولت أن أستفهم منه بمواربة عن غياب أبي، لم تبد لديه فكرة محددة، كان يحدثني عنه، المرات الأخيرة التي التقاه بها، وكيف كان مشتتا، شاردًا على غير عادته التي عرفه بها. حاول بدوره أن يفهم مني ملابسات غيابه، شيء في صوته، ربما، في حديثه، في صفحته الافتراضية التي فحصتها طوال اليوم، جعلني أحكي له عن غياب أبي، ليس هذا فقط! حكيت له عن علاقتي بأبي، طفولتي المتعلقة به، شبابي النافر منه، أثر كتابته على حياتي، أسباب كتابتي مؤخرًا، مخاوفي، أشياء كنت أعرفها وأشياء ظهرت في الحديث كأنها اكتشاف لممرات أخرى كنت أجهلها في روحي.

سألته: غريب أنك كاتب بلا كُتُب. لماذا لم تنشر شيئًا من كتاباتك؟

- لأنني لا يشغلني أن أقدم شيئًا باسمي يكفيني أن أقرأ كتابة جميلة ملهمة.. تُشعرني أني أنا من كتبت. ماذا لو أرسلت لي ما تكتبينه في هذه الأيام؟

- إنها مجرد خواطر صغيرة. كتابتها تقلل التوتر وتساعدني أن أفهم.

- أريد أن أقرأها قبل أن تصبحي كاتبة كبيرة ترفض أن يقرأ أحد أعمالها قبل النشر.

- اطمئن لن أكون.

- بل ستكونين.

- لا أحب النبوءات.

- لكني أشعر أن صوتك تغيّر. أنت سعيدة بالنبوءة.

انقطع الخط وأعدت الاتصال به، عند الانقطاع الثاني أدركت أننا نتحدث منذ ساعتين. اتصل بي مرة أخرى وكان لطيفًا لطفا لم أعهده في أي رجل بل وفي أي إنسان من قبل، اعتذرت لإطالتي الشديدة، واعتذر بدوره على الإطالة، أغلقنا الخط وقد وعدني بأن يقوم ببعض اتصالاته في ما يخص غياب أبي.

كنت في حالة من السلام والنشوة بعد انتهاء الاتصال، شعور لم أُجرّبه من قبل، أو ربما جرّبته ونسيته. تعجبت كيف لا يفصلني إلا عام عن الأربعين ومازالت بعض المشاعر تحمل أقفالًا في قلبي، ولماذا تنفتح الآن؟! لم تكن نشوة انجذاب، كانت نشوة الراحة، شعور يشبه شعور المريض الذي ينتهي من جلسة علاج نفسي، يشعر أن كل شيء في الحياة واسع، وخفيف، ومُحتمل. سهمت نصف ساعة على السرير لا أفعل شيئًا سوى استعادة مشاعر صبية كانت تجري بين أشجار التوت في حديقة واسعة، لا تعبأ بالتراب الذي يلوّث ثيابها، ولا بالمسافات التي تسوقها بعيدًا عن بيت جدها، هناك تجلس على حافة ترعة ضيقة تلقمها الأحجار لترسم على سطحها ذبذبات تشبه روحها، على الحشائش تتمدد، تنظر للشمس المختبئة بين أوراق الشجر وتنام.

اتصلت بزوجي، كانت مازالت حالة النشـوة تسـيطر علي، أردت أن أحكـي له عـن تطورات بحثـي، عن الكاتبـة المغمـورة، والكاتب الغريـب. تمنيـت لـو أحكي لـه عـن الحالة التي أشـعرها ويشـاركني مشـاعري، سـيبدو أمرًا غريبـا عمّا اعتدنـاه، لكنه قد يعيد لي الشـعور بأن الخيوط بيننا باسـتثناء خيط الاتصال الهاتفي، لم تنقطع. لكنه أطفأ ثورتي ببرود وسـألني عن الأولاد، قاطع حكايتي مـن البداية وقال أنه «مش فاضي» وأن علينا أن نأتي في أقرب فرصة قبل أن تنتهي الإجازة الصيفية. أغلق الخط بدون أي إشـارة حميمية للاشـتياق أو الاهتمام. لم يكن يضجرني هذا من قبل. فلماذا الآن؟

قبـل أن أنام فضضـت الخطابـات المربوطة بالخـوص. الأظرف كلهـا كانت بيضاء، مكتوب عليها بخط جميـل صغير عنوان عمل أبي فـي جامعة الملك فهد بالريـاض. وبعضهم عليه عنـوان منزلنا القديم بالجماليـة. لم أجد اسـم المرسـل على الأظـرف، فقط عنـوان مكتبة سوزان مبارك العامة بمصر الجديدة. أمسكت أول ظرف، فتحته برفق وأنا أفرد ساقي المتعبتين في السرير.

العزيز يحيى،،

أنت تخشى الكلمات الحلوة، تخشى كلمات الغرام، تخشى حتى الكلمـات التي تقع بين المودة والغزل. أشـعر بأنفاسـي الملتاعة وهي تتكثـف دموعًـا على جدرانك الباردة، وبشـوقي الملتهـب وهو يندفع باتجاه جبالك الثلجية، فلا هو يذيبها ولا ينطفئ. إن قلبي المرتجف لا

يقابله إلا أغطيتك الباردة، ولهفتي لا تقابلها إلا ابتسامتك المرسومة، أنين صوتي لا يقابله إلا صوتك المحايد. فلا أعرف إن كنت أنجو بنفسي منك، أم ألقي بنفسي فيك.

تقول إننا خطوط نسير في الحياة فنتقاطع ثم نبعد. هل هذا كل ما في الأمر؟ إننا في نقطة التقاء يتبعها فراق؟ أخشى أننا حتى لم نلتق، فلو كنا التقينا كانت الخطوط ستلين وترسم لوحة عذبة مثلك. أما أنا فأرانا دائرتين متماستين.. كل منا له كينونته وملكوته.. نقترب.. لكننا أبدًا لا نتداخل.

تقول إننا في قطار وإن كلا منا سيغادر عندما يصل إلى محطته. وأقول لك أنا لا أريد أن أغادر، أخشى فزع وانتظار لحظة المغادرة. هل هناك تشابه بين الغدر والمغادرة؟ هل تغدر بنا الدنيا فتجعلنا نغادر؟ أم نغادر فيغدر بنا الحزن؟ أنا خائفة جدا. اخترت أن أكتب لك وأنا في أعتى لحظات خوفي. أنت تحاول بكل ما فيك أن تجعلني آمنة سعيدة. أنت رجل عظيم وعذب لدرجة لا تحتمل ولا تصدق. كل هذا الجمال فيك يخيفني. يرعبني من فكرة أن تغادرني. حقيقة أخرى تقتلني كل يوم. أنك لست لي. صحيح أنني لم أردك في حياتي كما تريد امرأة رجلا. لكني أردتك كما تريد الأرض الشمس، كما تريد الأنهار المطر، كما تريد السماء الطيور. أردتك أن تكمل معي الطبيعة حتى لو كنت أنا الأرض العطشى وأنت السراب الجميل.

ما يجعل قلبي يلتفت كل لحظة للخلف، عندما يضج داخلي السؤال: هل لم أُجِد تقدير نفسي التي لا تساوي أكثر من مكان للتنزه؟

تقول إنك سعيد بوجودي لكن أين هو وجودي؟ ولماذا يسعدك؟ تكلمني كأني ضيف.. ترحب به وتثني عليه. تشكرني باستمرار كمن يشكرون المطرب ليتوقف عن الغناء. تكلمني بصيغة الجمع كأنك تكتب خطابا حكوميًا لا نصًا يخص امرأة تُهِمك. هل حقًا أهمك؟ إن اضطراري كل حين لطرح هذا السؤال على نفسي يجعلني أنهار كيف لم أنتبه بعد كل هذا إلى موضعي في حياتك.. كامرأة غريبة. الغرباء مغويون بوجودهم الخاطف.. المفاجئ المبهم.

أتعرف، عندما تقول لي كلماتٍ تشبه الدُعاء، يتسلل لي شعور غريب بالضياع. أفهم أنك تدعو لي حُبًا، لكنه يشبه حب الغرباء لبعضهم، تأخذني هذه الكلمات رغم طيبتها إلى مساحة بعيدة عنك، تربكني كلماتك المحايدة، تعيدني للمسار الذي اخترته أنت من أول لقاء لنا. عندما قلت: «هذا لن يتطور أبدًا.. ما بيننا لن يتطور أبدًا» مازالت جملتك معلّقة بأذني وقلبي، أربطها فوق بطني حتى أستمر في صيامي عنك. أسلسل بها روحي حتى لا ترسل لك أطياف الشوق. أقيد بها أطراف مشاعري حتى لا تكبر وتتطور وحدها. لا تخف يا عزيزي لن أسمح لها بأن تخرج عن مسارك. ستبقى «يحيى»، الكاتب الرائع، الزوج المثالي والأب الجميل، وسأبقى أنا أُحبك من خلف العالم ومن أمام الكتابة.

حُسن

5

هل كان يخون أمي؟

هل كانت خيانة بالمراسلة؟

كنت أعتقد في المراسلة دائما أنه فعل نبيل، لا يخرج إلا من الصادقين والشرفاء، تنتهي دائما الرسائل بكلمة «المخلص دائمًا» فكيف يقوم بها الخائنون؟ وكيف تُشبِع رغباتهم في الحُب، أم أنه نوع من الهروب والبُعد عن قسوة الواقع، هل كان يخدعها؟ أم كانت تحاول هي خداعه؟

هل كانت خيانة أصلا؟

شيء بالرسالة جعلني أشك أن هذه علاقة حُب بين رجل وامرأة، إنها تشبه مقطعا من رواية أو عمل أدبي. كاتبة جديدة ربما تحاول أن تستعرض مشاعرها عن طريق الكتابة لكاتب أكثر خبرة. ربما أرادت أن تتباهى بموهبتها، ربما طلب منها أبي أن تكتب له جزءا من أعمالها، وربما كانت هذه طريقتهما في التمرّن على الكتابة، نوع من البوح يخفف بعض وجع الكتمان والغربة عن الوطن والغربة الأخرى عمَّن يُفترض أن يكونوا الأقرب، هذا الرجل قليل الكلام، كثير الكتابة، كان

لـه عالم آخر لم أعرفه، ولا عرفته أمي. ورغم ذلك لم أمنع نفسـي من الوقوع في حُب الرسالة واستساغة عذوبتها.

فـي الصباح أتاني اتصـال من مازن، أخبرني أن اتصالاته لم تسـفر عن شـيء، لم يسـتدل أحد من الأصدقاء والمعارف على مكانه، لكنه بمراجعة بعض أحاديثهما القديمة استشف المكان الذي قد أجده به.

- بيت الجمالية.

- هل ذكره أمامك؟

- قال إنه بيت الإلهام وأن معظم كتاباته تدور حوله أو في محيطه، وأنه استقى منه العديد من النصوص والعِبر الإنسانية.

- لكني أعتقد أن معظم كتاباته كان يقوم بها في مكتبه بالمنيل.

- ومن قال إن مكان الكتابة هو مكان الإلهام!

- أفهـم مـن كلامـك أن توقعك لوجـوده ببيت الجماليـة هو توقع أدبي بحت.

- لن تخسري شيئًا لو ذهبتِ.

- ربما أخسر عمري..سمعت أن البيت آيل للسقوط.

- تفكرين دائما في أضرار الأمور..وهذا قد يمنع عنك نفعها.

- كل الأمـر أنني أحسـبها بعقلي. بيت متهالك مسـكون بالعناكب وأتربة السنين، ورجل بالكاد يخدم نفسه..كيف يمكنه العيش هناك؟

- هو بالفعل يخدم نفسـه من مدة طويلـة. حتى أنني لـم أعرف أبدا أن له ابنة.

- لا أعتقد أنه وقت مناسب للتقريع. أنت حتى لا تعرفني!

- أعرفك. حديثنا السابق عرّفني بك.

- حسنًا، سأذهب للجمالية غدا.

- اذهبي اليوم.

- لـو فقـدت عمـري أو نفسـي بيـن حـواري المـكان تذكـر أنهـا مشورتك.

- وربما تجدينها.

- تقصد أجده.

- أقصد نفسك.

- لا تتحدث معي كأديب أرجوك.

- تخافين من الأدب أم من الأدباء؟

- أخاف من البعد عن الواقع..هوة الخيال لا تناسبني.

- الإنسان لا يستطيع تحديد ما يناسبه إلّا إذا قام بتجربته.

- رأيته في أبي.

- الرؤية لا تغني عن التجربة..ومعايشة الأمر لا تعني أنك عشتيه.

لـم يكـن المسـتمع الخجـول الرحب، مثـل أول اتصال لنـا، كان يناطحنـي، تغيّـر فجأة، مثـل أي رجل. كنت أريـد أن أصرخ في وجهه «أنـت لا تفهمنـي»، لكننـي أبيـت أن أضعه فـي مكان غيـر مكانه، هو مجرد رجل أستعين به.

هـذا التغيير الـذي طرأ علـيَّ كان صعبا شـرحه لصديقتي الأقرب «سـلمى»، لـم تكـن لتأخـذ الأمـر بجديـة، أو كانـت سـتحوله لدراما مضحكـة، لذلـك آثـرت أن أحتفظ لنفسـي بهـذا الغزو من المشـاعر الغريبة. اكتفيت باتصالات سـطحية مع صديقتي، ومقابلات شحيحة فـي عطلة نهاية الأسـبوع نضحك فيها على أي شـيء، هذه السـطحية كانت كل حياتي فيما مضى. فماذا تغيَّر؟

***

نزلـت هائمـة فـي شـوارع مدينـة الرحاب، أفكـر فـي حديثي مع «مازن»، أحاول أن أتذكر بيت الجمالية القديم، تركناه وأنا في السابعة، ذكرياتي عنه قليلة وباهتة، منزل بطابقين ضيقين، سلم رمادي حجري، كنا نتزحلق على درابزينه أنا وأخي، صوت بائع البرتقال في صباحات الإجـازات يوقظنـي، صوت بائع العسـل يليـه بائـع الروبابيكيا، مزيج من سـيمفونيات الصبـاح المزعجة، تليها أصـوات الأبواب الحديدية للمحـال الصغيرة حولنا، عتبة البيـت التي كنت أجلس عليها مع جارة من سـني بفسـاتيننا القصيرة، نمسـك بأطباق صغيرة ملونـة، نمثّل أننا نتناول شيئا بالأشواك البيضاء البلاستيكية، ونشرب كل حين الماء من فناجين صغيرة ملصوق عليها صور ورود.

ثم نجمع بعد الإفطار الوهمي بعض أوراق الشجر، نقطف الصغير منها في طبق بلاستيكي، استعدادا لصنع المولوخية. نذهب للبقال في الشارع الخلفي الذي كان يعلّق أسطوانات مرعبة داكنة من البسطرمة، نشتري اللبان السحري، ثم ننتقل للمحل في الشارع المقابل للمنزل الذي يبيع الألعاب الرخيصة، ورق الكوتشينة، البمب والصواريخ، نسأل على أسعار كل شيء، ثم نمضي دون شراء. في وقت الغداء نأكل على مائدة من خشب أبيض ركيك تفرد وتثنى بعد الانتهاء، وفي وقت العشاء نجتمع أمام طبلية خشبية، لا أذكر إلا أكواب الزبادي الزجاجية التي كان يحضرها أبي من بائع متجول.

في هذا البيت كانت خلافاتهما حادة وقصيرة، لم تتحول إلى خلافات صامتة طويلة إلّا عندما انتقلنا إلى بيت المنيل، ومن ثم إلى الخليج، كل هذه السنين محت من ذاكرتي تفاصيل كثيرة عن بيت الجمالية، كان مِلكا لعائلة أمي، وقت زواجهما طلب جدي من أبي أن يحافظ عليه من الورثة الآخرين، فتزوجا به، أذكر أن أبي قال في مرة عابرة أنه أصبح آيلا للسقوط.

بالأمس وعدت الأولاد بنزهة ليلية في الملاهي القريبة، لا أعتقد أن فكرة الذهاب للجمالية فكرة رشيدة، الأمر يحتاج لترتيبات عديدة، ربما أحضر «سلمى» معي، فكيف لي أن أدخل هذا الحي وحدي؟، كنت مازال أفكر عندما وصلت للشارع الرئيسي، هناك استوقفت سيارة أجرة دون تفكير، قلت للسائق «الجمالية يا أسطى»..وللحظ الغريب وافق.

6
عزّة

أحكمت لف الملاءة السوداء على جسمي، غطّيت بها أحد كتفي وتركت الآخر بارزًا من فستان من الستان الأزرق. غطّيت وجهي عدا العينين المُكحّلتين ببرقع ملوّن، تأكدت في مرآة قديمة ملطّخة ببقع سوداء من هندامي، حررت خصلات من شعري الأسود قبل أن أتهادى في الحواري الضيقة بين نظرات الناس المُستغرِبة في الدكاكين والشرفات.

قبالتي كان يسير شاب أجنبي مُمسِكًا بكاميرا كبيرة حديثة، طالبني بالوقوف عند بوابة مبنى أثري، هناك التقط لي العديد من الصور على أوضاع مختلفة، بالملاءة وبدونها، بالبرقع وبدونه، من تحت وفوق والأمام والخلف، استكملت سيري المتهادي وهو يصوّر، حتى رأيت امرأة تقف أمامي مبتسمة ببلاهة، عندما أصبحت المرأة جواري لم أجد صعوبة في أن أدس يدي في حقيبتها، التقطت المحفظة وأخفيتها في الملاءة بحركة سريعة، ثم ذهبت لأُكمِل جلسة التصوير. كنت أقف بالأمس بالبرقع والملاءة السوداء مُرحِبة بالزوار خلال افتتاح إحدى

المقاهي في شارع المُعز، فإذا بهذا الشاب يحدثني بعربية ضعيفة بلكنة أجنبية ويطلب مني أن يصورني في الصباح في الشوارع المحيطة نظير خمسمائة جنيه.

لم أداوم على شغلانة لأكثر من شهر، نادلة، بائعة في دُكّان، مندوبة مبيعات، فتاة دعاية، بائعة جائلة، الالتزام يعني لي السجن، أكثر مما يعني لي النشل، أنشل عندما أشعر أن الظروف تقدم لي جيوب الناس على أطباق من ذهب، حينها لا أتردد أن أكون نشالة عوضًا عن أن أكون غبية.

بعد ساعتين من التصوير وعندما انحسرت الشمس عن الحي، عدت بزيّي الشعبي المغوي إلى دُكّان صاحب الأزياء الشعبية، كان يقف في منتصف الطريق أمام سائحة أجنبية يساعدها على ارتداء ثوبٍ هنديٍّ بلون أخضر فاقع، نظرت لهما بتعال واحتقار، قبل أن أدخل غرفة صغيرة داخل المحل، فتحت المحفظة فوجدت بها ستمائة وخمسين جنيها، وضعتهم مع الخمسمائة جنيه التي حصلت عليهم من الشاب الأجنبي في سُتياني، ثم ارتديت ثيابي، لففت رأسي بحجاب كبير وخرجت من المحل.

عند سور الكوبري أمام عربة بائع ترمس خشبية خضراء وقفت أُطالع النيل والفنادق المترامية على جنباته، كم تمنيت لو أدخلها حتى ولو لساعة واحدة، كيف ستكون من الداخل؟، وأي نوع من البشر يسكنها؟ أهم مثلنا أم أجمل وأنعم وأنظف؟ لماذا لا أتبادل الأدوار مع أحدهم ولو لليلة؟

- قشطة

ضحكت بخجل وأنا أصافحه، فاستطرد قائلًا:

- هو ده الفُستان الذي حكيت لي عنه؟

- هو.

- بس إنتِ قلت عريان وأبصر إيه...

- عريان يا «إسلام» يعني هلبس له «بودي».

- وليه ملبستيش «البودي» الأسمر بدل الليلة الحمرا دي؟

- لمّ نفسك يا «إسلام» وكفاية خفة أحسن وديني أروّح.

هكذا لمّ نفسه «إسلام» مؤقتًا، لا أُحب «إسلام» بالمعنى المفهوم وأعرف أنه لا يذوب في عشقي، لكن الدنيا علمتني أن الفتاة يجب أن يكون لها رجلها الذي تخرج معه، تشاركه همها، تفرج عن نفسها بالحديث معه، حتى المناوشات والمشادّات الصغيرة بيننا لها وقع السعادة والرضا في نفسي، لم نذكر كلمة الزواج قط، وهذا أفضل ما في الحكاية.

في بقعة مظلمة على سور الكوبري، تهامسنا في اللاشيء، غازلني بكلماته، وغازلته بعيني وضحكتي حتى بدأ يلمسني ثم يخطف القُبل من وجنتي، دفعته بعيدًا عني، عندما ازداد تقربه استخدمت سلاحي الأثير، الصوت العالي، فتوقف فورًا، لم تكمل الخروجة كما يجب عندما طلبت أن نتناول الطعام سويًا، عرض علي أن أعزمه أو نكتفي

بالحمص. لكن المال يلزمني، ومزاجي لم يكن مناسبًا لحمص، ربما لدجاجة مشوية، بخبرة بسيطة استطعت أن أصنع عراكًا بيننا وأغادره.

خرجت من شارع المُعز واندسست في الحواري المحيطة بين زمرة السائحين والمصريين الذين إما أتوا للفسحة والشراء، وإمّا مرّوا في طريقهم للبحث عن لقمة العيش، حتى انحسرت الحواري عن الناس إلّا أولئك من مرّوا في طريقهم للبحث عن لقمة العيش، كنت أفكر في مصلحة الغد التي قصدني فيها جاري بيومي، أن أرتدي زيًّا فرعونيًّا في افتتاح مقهى جديد، فكرّت في شراء فرخة مشوية قبل أن أعدل عن قراري عندما تذكرت وجود أختي في البيت.

نعيش وحدنا بعد هروب أبي منذ عدة أعوام وزواج أمي بعده، ورد جميلة لكنها غبية، لا تعرف كيف تستغل جمالها وموهبتها، تعمل في حياكة ثياب عربية وبيعها لصاحبة بيت أزياء، تُباع الثياب بأسعار خرافية، وتصدّر للخارج، بينما تأخذ هي مبالغ زهيدة في مقابل ذلك. عندما دخلت البيت وجدتها في البهو ومعها ضيفة، لم يكن شكل الضيفة غريبًا أبدًا.

7

إن أسوأ ما تتوقعه هو ما يحدث لك دائمًا، عندما أنزلني سائق سيارة الأجرة في شارع الحُسين وجدت نفسي فجأة أتحول إلى طفلة تائهة تنشد العودة للمنزل، كنت أنظر في عيون الناس أستجدي مساعدتهم دون أن أنطق، أسبح بين شوارع لا أعرفها، غريبة بينهم، لا أنا منهم ولا أنا منّي، كشبح شفاف مرقت بين الجميع دون أن يلحظوا التيه في جسدي، لا شيء حولي يشبه حياتي القديمة، ولا شيء من حاضري، أنا هنا مجرد امرأة تسير مع الركب.

تأتيني بعض اللحظات التي أستعيد فيها نفسي، عندما أجد في المحلّات قطعًا صغيرة وألعابًا فأهمس لنفسي «هذه ستعجب ملكِ»، «تلك ستلفت مالكا»، لكن سريعًا ما أعود لأستغرب أن لي أبناء من الأساس، ثلاثة أبناء كيف أتوا للحياة من بين ضلالي؟ وكيف عرفوني وأنا التي لم أتعرّف إلى نفسي بعد، الأولاد يكبرون بالفطرة لكن يتعرّفون إلى الأشياء بالتجربة، وأنا لم أسمح لهم كما لم أسمح لنفسي بالخوض في التجارب.

بين توهاني وجدتها أمامي، فتاة حسناء ترتدي ملاءة لف وبرقع، لم أتخيل أن في هذه الأماكن مازال هناك من يحافظ على تراثه،

وقفـت للحظـات أنظر لهـا بتمعن وانبهـار، خطفتني، كانـت في نفس اللحظـة تخطف حافظة نقـودي من حقيبتي المفتوحـة دائمًا. وجدت نفسـي أمـام أكبر كابوس في حياتي، في شـارع غريب بيـن مارة غرباء دون الأشياء التي تعرّفني على نفسي وقت اللزوم، بطاقة هويتي، بطاقة النـادي وبطاقة الائتمان البنكية، دون صـور أطفالي التي احتفظت بها في الجيب، وحتى دون مال يساعدني على العودة.

حاولـت البحث عنها فـي نفس المكان، والمحيـط القريب، دون جـدوى، تسـرّبت مـن الدنيا كأنها لـم تكن، لدرجة أنني شـككت أنها موجـودة من الأسـاس، ربمـا اصطنعهـا خيالي في زمـرة العبث الذي أعيشـه، لكن اسـترجاعي لنظرتها البـاردة أكّد لي أنها لـم تكن خيالا، استعدت لسـاني أخيرًا وبدأت أسأل عنها أصحاب المحلات القريبة، لكننـي لم أسـتدل عليهـا، بـدأت أرى كل الناس لصوصًـا، وجوههم ونظراتهم مجرمة، في لحظة عدم توازن كدت أسقط فيها تحت شمس يوليو بين زحام البشر، شعرت برجفة الهاتف في حقيبتي.

كان «مازنـا»، سـردت عليه ما مررت به فوجدتـه تحول من أهوال داخلي لجملة واحدة مُلخّصة «أنا ضائعة تمامًا وفقدت محفظتي»، لم يتصرف كما توقعت من رجل غريب شهم، بأن يقول لي «ابقي مكانك وأنـا سـأحضر لآخـذك»، ولا قال بشـكل عملـي مثل ما كان سـيقول زوجي «احضري حالًا في تاكسـي، دعيه ينتظر وحاسبيه من المال في المنزل»، قال «لا تعودي قبل أن تجدي البيت».

كلماتـه البعيـدة عـن خيالي الرومانتيكـي الذي بدأ يظهـر مؤخرًا، والبعيـدة عـن الواقع الذي عشـته في هـذه اللحظات، شـجعتني على خـوض التجربـة حتـى نهايتهـا، خاصة أننـي أدركـت أن خروجي من هذا الحي يعني عدم عودتي له نهائيًا. تجاوزت صدمة السـرقة وبدأت أسـأل عن شـارع المخزنجي، حيـث كان منزلي القديـم، وصلت إليه بعـد العديد من الوصفات الخاطئـة والقليل من الأخرى الصائبة، وقد لاحظت أثناء بحثي أن العالـم يتغير حولي، الوجوه المجرمة للصوص التـي رأيتهـا قبل دقائـق حولي، أراهـا الآن وجـوة خيّرة تبـادر بتقديم الخدمات، كأن إلهامًا ما وصلهم ليساعدوني على الوصول.

أمـام منزل عتيق مغبرّ وقفت أسـترجع طفولتي البعيدة، كان مازال كما هو، بنفس واجهته التي تشـبه بناء إسـلاميًّا، النوافذ الطويلة بسـور حديـدي صغيـر، الشـرفة الطويلـة الضيقة في جانـب البيـت التي كنا نسـميها «فرانـدة» ونملؤهـا بالكراكيـب. الباب الضخم مـن ضلفتين طوال مزركشـتين، بهما شرّاعة من زجاج خلف أعمدة حديدية ملتوية على شـكل أغصان. كانت أمي تقف خلف الشـرّاعة لترى من بالباب، وكنـت أقـف وراءها لألعـب مع جارتـي الصغيرة في حـال منعي عن الخروج معها.

هممت في محاولة أعرف نتيجتها مسـبقًا بطرق الباب، فإذا برجل خمسـيني ينتفـض من مكانه وهـو يقترب مني، «ماينفعـش كده يا ماما ده آثـار»، قالهـا فأتى على إثر صوته عسـكري شـرطة قريـب، ردد هو الآخر «البيت أثري يا أسـتاذة..ومغلق». قُلت «لكنه بيتي! بيت جدي»

تبادلا نظرة تعجب وقال الرجل «أنا هنا لي عشـرون عامًا ولم أجد أي صاحـب لهـذا البيت» قُلـت «لكنـه ورث وليس آثار علـى كل حال»، رد العسـكري «لا يوجد ورث هنا..تفضلي قبـل أن أغرّمك مخالفة»، قُلـت «مخالفـة لأنني أردت أن أدخل بيتـي!» تجمّع بعض الرجال من المارة والبائعين، حتى صرخ العسكري ليفض التجمع «يا ستي لو لك حـق اذهبـي للجهات المختصة، نحـن هنا ننفذ القانـون، وكلمة زيادة سأسـحبك معي على القسـم» ثم بصوت خفيض «شـكلك بنت ناس بلاش بهدلة وامشي».

كان صوتي قد تحشـرج في حلقي، يريد أن يصرخ ، يسب ويلعن، لكن عيون الناس، فضولهم واستهجانهم لما أقول شلّوا تفكيري، بعد دقائق بدأ الناس في العودة لأحوالهم، وبقي الرجل والعكسري قريبين يتحدثان عنّي ربما، انشـقت الأرض عن فتاة شـابة وقفت قبالتي تقول بصوت حنون: «يا أسـتاذة أنـا جارة هذا البيت، أسـكن قُباله..تفضلي عندي نشـرب كوبين من الشـاي»، رددت دون تفكير: «آسـفة»، قالت برقّـة لـم أتوقعها هنـا: «أمي كانت تحكـي لي عنكـم، وكانت صديقة لوالدتـك، أسـتاذ «يحيـى» كان يزورنـا بين حين وآخر..هـلا تفضلتِ بزيارتي»، سمعت اسم أبي فرُدّت فيّ الروح.

دخلـت بيتها الصغيـر، المُرتّب رغـم فقره، فوق كنبة إسـطانبولي قديمة جلسـت وهي أمامي على كرسـي خشـبي بسيط، راحت تحكي عمّـا قالته لها أمها عن هذا البيت وطيبة صاحبتـه وكرمها، وأنها ورثته من أبيها. سـألتها عمّا آل إليه البيت، قالت إن المحافظة أصدرت قرارًا

قديمًـا يقضي بأنه آيلٌ للسـقوط، ومصلحـة الآثار عاينته قبل سـنوات وأقـرّت أنـه أثـري ولا يصـح بيعـه أو هدمه، حكـت عن زيـارات أبي القليلـة القديمة لهم، هروب أبيهـا وزواج أمها، ظنّت أن أبي صحفي، تقـول إنه كان يأتي ليطمئن على أن البيت لم يسـط عليه أحد ولـم تمتد قـدم لتسـكنه أو يد لتعبث به، حتى عرف بقـرار هيئة الآثار فتوقف عن القدوم، وإن كانت تلمحه أحيانًا بالشارع.

سألتها: متى آخر مرّة رأيته؟

- منذ عدة أشهر..مع بداية الشتاء الماضي تقريبًا.

- أين رأيته تحديدًا؟

- كان يمر في شارعنا..رأيته من هذه الشرفة.

وأشـارت إلى شـرفة قريبـة، أمامهما كُرسـي ومائدة عليهـا ماكينة خياطة. وقفت بالشـرفة، كانت قريبة من الشارع في الدور الأول، ترى وتسمع كل من في الشارع بوضوح، وتطل على بيتنا القديم، كان الليل قد لاح في السـماء..خطر ببالـي أن أطفالي يشـعرون بالملل والجوع الآن، استدركت:

- أظـن أنه يقصد مقهـى المخزنجي في نهاية الشـارع، رأيته هناك قبل عام.

لمست الماكينة أمامي وأنا أسألها: تهوين الخياطة؟

قالت ضاحكة: نحن لا نهوى يا أستاذة..نحن نعمل فقط. أنا أعمل بالحياكة.

- رأيتِ بابا على القهوة في الصباح أم المساء؟

قاطعني دخول فتاة للبيت، فهمت أنها أخت «ورد»، لم تكن تشبهها، تحدثنا جميعًا، كانت زائغة البصر، تبدومتطرفة بين المرح والكآبة، شعرت أن عينيها الواسعتين مألوفتان لي، كنت أود لو أتحدث معها لكنها اكتفت بحوار قصير واختفت داخل إحدى الغرف. حكيت لـ «ورد» عن محفظتي التي نُشلت والفتاة بالزي الشعبي التي اقتربت مني على غفلة، ارتبكت وسألتني عن مكان النشل. تبادلنا أرقامنا وودعتها بعد أن كانت كريمة معي، نفحتني عدة جنيهات لأعود للبيت.

وجدت عدة اتصالات من «مازن»، أبلغني أنه اتفق مع سيارة أجرة تابعة لشركة خاصة على مقابلتي بشارع الحسين وتوصيلي، ودفع حسابها من رصيده لدى الشركة، كما أكد علي ضرورة عمل محضر صباحًا بفقدان المحفظة، كان شعورا افتقدته منذ زمن، شعور الاهتمام والتواجد حتى في الغياب، هذا الغريب الذي لم أره في حياتي أبدًا استطاع أن يجدد فيَّ شعور الابنة المسئولة من أبيها، وهو شعور تفتقده المرأة كل يوم.

8

لـم أتوقـف عـن التفكير طـوال الليل فـي كل ما مررت بـه، الحيّ الغريـب، البيت القديم، «ورد» و«عـزة». كنت أعرف أن عليّ أن أعود لنفس الشارع مرّة أخرى، لأبحث عنه في المقهى، أو أسأل عنه رواده، لكنني أجّلت هذه الزيارة لحين الانتهاء من اسـتخراج مسـتجدات من بطاقاتي. بعد تحريري للبلاغ بعدة أيام طلبني ضابط القسم للحضور، أرانـي بعض صور المشـتبه بهـم وكانت صورتها بينهـم، «عزة» أخت «ورد»، فـي هـذه اللحظة أيقنت لمـاذا بدت عيناهـا مألوفتين. لم أبلغ عنها وتظاهرت أنني لم أتعرّف عليها.

من القسم اتجهت إلى بيت «ورد»، هذه المرّة بدأت أعرف الطريق جيـدًا، قابلتنـي على السـلم وفـي يدها صحـن فول وحزمـة خضراء، رحبت بي ودعتني لتنـاول الإفطار معهما، تبادلنا أحاديث خفيفة على الإفطار، كان جليًا أن «ورد» روحٌ طيبة، سـعيدة، راضية، بعكس أختها التـي كانت روحًا مشاكسـة، قبيحـة، وعنيدة. عرفـت أن «ورد» تعمل لحسـاب بيت أزياء مشـهور بخطوطـه العربية، فتنتنـي الموهبة عندما رأيـت صـورًا للتصاميم وبعـض الموديـلات الغير مكتملـة، وإن كان

أحزنني أن التصميم يكتب باسـم آخرين، أمـا «عزّة» فبدت غير مهتمة بالعمل ولا عابئة بمصاريف البيت.

حاولـت «عـزّة» أن تسـتأذن بالمغادرة بعد شـرب الشـاي، لكنني بادرتهـا بأننـي أريدها فـي عمل، حاولـت التملّص مرّة أخـرى، لكني غمزتهـا بأننـي أريدها في أمر شـخصي. في ركن بالصالـة حكيت لها عـن غياب أبـي ورغبتي في الاسـتعانة بها فـي البحث عنـه في حدود الجمالية. ردت:

- يا أسـتاذة أنا تحتاجيني في جلسـة تصوير، في مشروع رسم، في جلسة فرفشة، لكن في البحث ودور المفتش كورونبو يبقى معطلكيش. أنا رأس مالي ده (ومسـحت نهديها حتى خصرها) مش ده (وأشـارت إلى رأسها).

قلـت: لكـن أنا لا أريد اسـتغلالك، فقط أردت مسـاعدتك.. ولك المُقابل.

- لسه متخلقش اللي يستغلني.

- من يريد منك صورتك فقط هو من استغلك.

- بكيفي.

- وبكيفك أيضًا تستطيعين مساعدتي.

- عايزة إيه بالظبط؟

- تعالي معي للمقهى لنتحدث.

فـي طريقـي للمقهى الذي أشـارت له «ورد» من قبـل، حكيت لها عـن حادثة النشـل، وبعـدم إبداء اهتمام أشـرت إلى أنها لو سـاعدتني على إيجاد محفظتي سـأكافئها. في المقهى الشـعبي الكبير جلسنا في مـكان قَصـي، كان أغلب الجالسـين من الذكور. ضجيـج الأحاديث، كركرة الأراجيل، ورنين تقليب الشـاي طغت على صوت أغنية قديمة لـ «فايزة أحمد»، طلبنا اثنين حاجة ساقعة، طلب لا يليق بمقهى بلدي، ثم بدأت بصعوبة أسـتدرج النادل لحوار، ساعدتني «عزّة» بإضفاء جو من الضحك والمزاح. حتى سـألته عن أبي، وأريته على هاتفي صورة لـه. طلبت منه «عزّة» أن يسـأل زمـلاءه، ذهبنا معه فـي جولة بالمقهى لسؤال كل عامل، حتى تعرّف عليه أحدهم وكان يبدو أكثرهم تعليمًا.

- يأتي بين حين وآخر، ربما كل عدة أشهر، يجلس وحيدًا عادة إلّا مرات قليلة كان بصحبة شاب، في كل المرات كان يقضي ساعات بين القراءة والكتابة.

سألته: هل تعرف ماذا يعمل؟

- أظنه كاتبا. لم أتعرف على كاتب من قبل لكن الصحفي عادة يكون أكثر صخبًا ويفتح أحاديث مع الجميع، هو كان وحيدا ومعزولا.

- هل تذكر آخر مرة أتى بها هنا؟

- كان في الشتاء.

أعطيتـه رقم هاتفي وطلبت منه أن يتصل بي فور معرفته بأي شـيء يخصّه، نفحته خمسـين جنيهًا ونفحت «عـزّة» مائة جنية. قالت: لكني لم أفعل شيئًا!

- يكفي أنكِ كنت معي. كنت أحتاج إليكِ.

غادرت الجمالية لحيي البعيد، رويت لـ«مازن» ما حدث وشجعني علـى المُضي قدما، ولزوجي حكيت الخطوط العريضة حتى لا أُصيبه بالضجر، أخبرني أنه حجز لنا موعدًا للسفر إليه مع نهاية الشهر. وكان قراره نهائيًا. لم أغضب منه، كنت أكثر تفهمًا، أو أكثر انشغالًا. شعرت بباب في قلبي ينفتح، يقبل ويرضى، وبعقلي الذي عادة يُقلّب الأمور، يحـاول الآن أن يفصل الأمـور عن بعضها، يتخذ الأعـذار، ويفكّر في الحلول المُرضية للجميع.

عند المسـاء وبعـد أن اطمأننت لنوم الأطفال وهـدوء البيت الذي يتناسـب طرديًـا مع هـدوء روحي، تمـددت على فراشـي، وفضضت مظروفًا جديدا.

العزيز يحيى،،

أحيانًـا أتمنى لو لم أكن أعرفـك، إن حبي لك يضيئني ويجرحني، يمزق قلبي أنك لن تكون أبدًا لي.

اليوم رأيت صورتها في إحدى المجلات، في فرح ابن الوزير الذي أخبرتنـي أنك حضرته، رأيتها مع بنتك كتوأمتين، سُـطِر تحت الصورة

جملة تقول «السيدة هناء زوجة الكاتب يحيى منصور» كانتا جميلتين، مشرقتين، نبتت في عقلي مئات الأسئلة وآلاف السكاكين في صدري، كل الخيالات المؤلمة التي كنت أتجنبها رأيتها اليوم، بقيت في ذهني تلعب بي، تصور لي كل المشاهد التي أعرف أنها لن تجمعنا أبدًا. الغيرة تدفعني للتفكير في الزواج وإنجاب ابنة فقط لأريك صورتها مع أبيها.. فتشعر بي.

أنا لا أدري لماذا أحببتك؟ أنت بالذات، ليتني ما قابلتك في هذا اليوم في المكتبة، ليتك لم تهدني كتابك، ليت كل هذا لم يحدث. أتعرف أنني كنت أقرأ منذ أيام في مواضيع ومقالات شتى تؤكد أن الحب أحيانًا يأتي عندما تكون مُهَيَّأً له، وليس لأن الشخص الآخر يناسبك، كنت أحاول أن أقنع نفسي أنني لا أحبك، إنها محض صدفة، أمر طارئ وسينتهي. مجرد نزوة.

لكن في الحقيقة أنني حين قابلتك لم أكن مُهَيَّأة للحب، كنت أعيش حياة مستقرة في فترة نقاهة بعد تجارب سيئة، كنت بالفعل قد تجاوزتها، كنت رافضة للحب، كارهة للتجربة، سعيدة بذاتي الحرة القوية، ظننت أن لا شيء قد يضعفني مرة أخرى. لكن ها أنا اليوم أشعر بالخزي من نفسي التي تضعف بشكل أكثر خطورة. كنت أظن قديمًا أن الحب مثل الاصطدام بحافلة ضخمة. مفاجئ، هادر، يحطم الـ«أنا» القديمة ويستبدلها بأخرى منسحقة. خطير ومغوٍ، لكن لا تخرج منه إلا وبك كسر. حتى عرفتك؛ ففهمت أن الجبر ألطف من التحطيم

والحنان أرق من الهدر وكسرة الضم أعذب من كسرة القلب، وأن صوتك المهذب أكثر إغواء من البذاءة، وأن الحب مثل الاصطدام بحافلة ضخمة، يسحبك صاحبها لأجمل رحلة في الوجود.

الضعف مع شخص سَيِّئ يؤذيك قد يدفعك لتتوقف عن معرفته، لكن الضعف مع شخص رائع يؤذيك يجعلك لا تملك البعد عنه. كيف أبعد عنك وكل كلماتك تحضني على الاقتراب؟ لم أعد مفتونة بالرجال الصاخبين أصحاب الأقلام والألسنة المفوهة، ولا بالثائرين المتمردين الخارجين عن كل النصوص، كل مدّعي البطولة لم يعودوا يفتنونني، ربما لأنني وجدت بطلًا حقيقيًا، زاهدا في أدوار النجومية وإشارات الناس والإعجاب والشهرة، لكن الناس يشيرون بقلوبهم إليك.

كنت كلما وقعت في الحب وتماديت في ظنوني بالحبيب، اشتهيت قبلة منه، كنت أظن أنها أقصى درجات الاحتفاء بالحب، كنت أمشي وراء أوهام تشبه النزوات وأفكار تقودها الرغبة، القُبل المسروقة تُعجب أصحاب النزوات، لكننا لا نسرق لأنها ليست نزوة.

لكنني أشتاق لضمّة تجمعنا، أراها بعيني كل يوم وأشعرها طول الوقت، إنها أقصى درجات الاحتفاء بالحنان. يؤلمني أن أجسادنا لن تتلاقى إلا كغرباء، كجسدين يتصافحان، يتحدثان ساعة أو ساعتين، يتصافحان مرة أخرى، ثم يفترقان. هذا أقصى ما يمكن أن يتحقق. وهذا يرضيني بالمناسبة.

أنـت للجميلتين اللاتي رأيتهن هذا الصبـاح، يجب أن تبقى معهن ويجـب أن أطمس خيالي وغيرتي، وأحرص على الحدود والمسـافة، مهمـا كان البنـاء قويًا راسـخًا، أي خطوة لمزيد من القرب سـتطيح به على الأرض، وأنا أحب أن أبنيه وأسـكنه، لذلك سأبقى بعيدة وأدرّب نفسي على العزلة، على الأسى، والوحدة..لكني سأبقى أحبك.

حُسن

9

لماذا تُخيفني الرسائل؟

أنـا أؤمن بوجود الحُب، أذكر أنني كنـت أُحب زوجي هذا الحُب الرومانسي، كنا نتهامس في الهاتف واللقاءات، قُلنا كل كلمات الحُب المحتملـة، كل الوعود والعهـود كانت بيننا، تهادينا، شـربنا من الغيرة وطعمنـا مـن الخـوف، تفاهمنـا واختلفنا وتناغمنا. سـهرنا وعشـقنا، ضحيّنا وتحمّلنا، فلماذا أشعر الآن أنني لم أحب أبدًا!

أشعر أنني خضت مشوارًا طويلًا مع الحُب، تخطيت كل المراحل، حتى نجحت في الوصول إلـى المرحلة النهائية، مرحلة الوحش، أراه الآن يقـف أمامـي، بضخامته وقسـوته، النار تتسـاقط من فمه والشـرر يتقافز من عينيه، وأنا فقدت كل أسـلحتي في الحيوات السـابقة، ليس معي سوى حياتي الأخيرة ويدين فارغتين، فهل سأنجو؟

هـل أغـار على أبي مـن امرأة أحبتـه؟ أم أغار لأنني لـم أُحب حد كتابـة الرسـائل، أم أغـار لأنني لم أُحب مثـل هذا الحُـب؟ مالي أُفكّر كالمراهقيـن، وكيف أغار من امرأة تعذبت؟ أنـا التي رأيت من الحُب وجهـه الكريم، أغار مـن امرأة تُحب من طرف واحـد، امرأة موهومة،

أضاعت مشاعرها مع رجل متزوج، إنها أكثر القصص حماقة. ومع ذلك شيء في الرسائل يُشعرني بالغيرة والخوف من مشاعر أشعر أنها تقترب مني مثل قنبلة، لو سمحت لها بالاقتراب ستُفجّر كل شيء بنيته في عمري.

أنا لم أنتم يومًا لهذه الرهافة التي يتمتع بها أهل الكتابة، فلماذا أخاف الرسائل؟ لماذا أخاف الحُب؟ أم أنني أخاف افتقادي للحميمية؟ لكنني على أعتاب العقد الخامس ولم يعد يخيفني هذا الاحتياج، وأدته في جسدي منذ زمن بعيد، وقنعت بهذه الليالي البعيدة، التي تجمعنا أنا وزوجي في الإجازات.

إن أحدًا لا يشعر بالخوف الذي تعانيه تجاه الحُب عندما تشارف الأربعين، تظن نفسك لم تكبر، مازلت في عين نفسك أميرا وشابًّا نضرا، تفاجئك زوبعة الحُب الملونة فتكشف لك هشاشة عظامك، نهوضك البطيء، نهجانك بعد صعود سلمتين، خطوط وجهك، بياض شعرك. سلاحك الوحيد في الحب والذي كان سبب رفضك للبعض هو رصانتك، أنت الآن إما رصين، أو متصاب. الناس لن يسمحوا لك بأن تقف في المنتصف. عليك أن تواجه الحُب بقلبك المهترئ من عدة تجارب قديمة، وأن تنزع أربطة شعرك وعنقك وصدرك وتقف في مواجهة الريح..ربما يهديك الحُب لنفسك.

أصبحت أكتب وأنظّر مثل الكتّاب..يا للعجب!

أرسـل لـي «مـازن» منشـورا على الفيس بـوك التقطه من حسـاب «ندى عصام»، تكتب فيه عن ابنة كاتب مشهور هددتها وأهانتها عندما عرفت بحُب الكاتب لها، العشـرات من التعليقات تسبّني وتسخر مني ومـن أبـي دون معرفته، قال إنها عيوب مواقع التواصل، إنها سـمحت لأي مارق بكتابة أي عبث لإثارة الناس وتوجيههم وكسـب تعاطفهم، وأنـه فـي حالة «نـدى» سيتسـابق الشـباب لكسـب ودهـا بالمزيد من القباحة وخفة الدم السمجة، كما أشار علي بعدم الرد عليها أو الظهور في الصورة حتى لا تكثر الأقاويل.

لا أعـرف كيف لمهنة في رُقي الكتابـة أن تجمع كل هذا القدر من الأوغـاد والأفاقيـن. الانطباع الذي صَـدّره أبي لي عن هـذا العالـم أنه خيالـي أكثر من اللـزوم، خاطف ومُغْـوٍ، لكنه لم يخبرني عن السـرقة والنصب والعهر، حكى لي «مازن» الكثير من أهوال هذا العالـم، سرقة الكتّـاب للأفـكار والأعمـال القديمـة أو الأجنبيـة وتمصيرها، سـرقة التجـار لحقوق دور النشـر والكتّاب بتزوير الكُتُب، نصب دور النشـر علـى الكتّاب، وكثيرا من خناقات الوسـط التي تصل للردح والتطاول على الاسم والشرف.

كان هادئًا، لطيفًا، حتى أن الطريقة التي أخبرني بها الأخبار السيئة، جعلتهـا أخبارًا عادية. ثلاثة أسـابيع نتحدث بشـكل شـبه يوميٍّ، دون أن أرى صورتـه أو أعـرف شـيئًا عن حياتـه الشـخصية، لا أدري لماذا يخفـي هـذه الأمور، رغم أنـي تعمدت أن أوضح له أكثـر من مرة أنني

زوجـة وأم، بل وبدلـت صورتي على الفيسـبوك عدة مـرات، وحدي ومـع الأولاد. أشـعر أحيانًـا أنه يتعامل مع حياته كسـر حربـي، أحترم خصوصيتـه، بل وأتصور أن عـدم معرفتي أفضل. فلن تضيف المعرفة شيئًا لعلاقتنا الغريبة، المؤقتة، كما لن تنتقص منها.

لكن الأكيد أنه رغم كل المحاذير التي يأمرني بها عقلي، والخوف الـذي بثته فيَّ الرسـائل، وإدراكي أنها معرفة مؤقتـة مرهونة بظرف ما، مازال الفضول يقتلني.

***

بعـد عـدة أيـام من آخـر زيـارة للجماليـة، أتاني اتصـال من صبي القهوة، أخبرني أن الشاب الذي كان برفقة أبي موجود بالمقهى، كنت قـد وعدت الأطفـال بالذهاب للسـينما، لكن هذا لـم يمنعني من ترك كل شـيء وتتبع أثر أبي، لم أنس الاتصال بـ «عزّة»، قابلتها على ناصية الطريق واتجهنا للمقهى، هناك أخبرني الصبي أن الشاب قد رحل قبل قدومـي بقليـل، بدأ اليأس يداعبنـي مرة أخرى، وبـدأت أُفكر في هذه المتاهـة الغريبـة التي زججت بنفسـي بهـا. الآن أنا أقف مـع لصّة في مقهـى بلدي في حي بعيـد، بينما صغاري ينتظروني للذهاب للسـينما علـى الطرف الآخر مـن عالمي الصغير، وزوجي يشـاهد مباراة لريال مدريد على الطرف الآخر من عالمي الكبير.

شـربت قهوتي مع «عزّة» وتبادلنا حديثا أجـوف بطعم المصلحة، هـي تريـد المـال أو العمل الخفيـف الذي يجلبـه، وأنا أريـد الحماية

والطريق لأبي، تمشينا في الشوارع المكتظة، و«عـزة» لا تتوقف عن الحديث عن أبيها وأمها، كانت ناقمة على الجميع تشعر بعمق ويقين أنها ضحية، عندما وصلنا لشارع رئيسي صادفنا شاب منحول الجسد، كث الشعر، يُلقي بأوراق دعاية إعلانية في السيارات، عرّفتني عليه «عزة» على أنه خطيبها.

أردت أن أسلّم على «ورد»، لكن «عزة» أخبرتني أنها في محل الملابس تسلم بعض الشغل، طلبت منها أن أذهب للمحل لأشاهد الثياب في العرض، اتجهنا بالسيارة لحي المهندسين حيث يقع المحل. هناك وجدت «ورد» تجلس على كرسي قبالة امرأة ثلاثينية محجبة، ترتدي عباءة بلون الخردل مزينة بخط كوفي، تخرج من طرحتها خصلات من شعر مصبوغ، لم تبد مرحبة بنا عندما رأت «عزّة»، لكنها أظهرت بعض الاحترام لي.

تنقلت بين أرفف المحل، كان من الواضح أن تصاميم «ورد» هي أكثر القطع أناقة بل وظهورًا بين باقي الثياب التقليدية، وكانت أسعارها باهظة مقارنة بباقي الثياب أيضًا. لكن العلامات المخاطة على الملصقات في الثياب من الداخل تذكر اسم مصممة أخرى. سألت بنوع من ادعاء السذاجة: لماذا لا أجد اسم «ورد» كمصممة، أنا أعرف أن هذه القطع من تصميمها؟، ردت صاحبة المحل:

- لأنها تصنع تصميمًا مبدئيًا، لكن أنا من أضع اللمسات الأخيرة.

- لكنني كنت مع «ورد» وهي تصنع هذه القطعة، وكانت كما هي تباع الآن.

ردت بعصبيـة مبالغ فيها: أنت لا تفهمين في التصاميم أو الخياطة. لماذا تحشرين نفسك؟

- لأنني لا أقبل أن تسرقي جهد فتاة صغيرة موهوبة.

تدخلت «ورد»: صلوا على النبي يا جماعة.

قالـت صاحبة المحل التي وقفت بعصبية: من أنت لتدخلي محلي وتتهميني بالسرقة؟

- أنـا امـرأة تكره التخاذل، لن أتخاذل عـن الدفاع عن حق «ورد». رجـاء وبهدوء غيِّـري كل بطاقات الثياب التي صنعتهـا «ورد» مع ذكر اسمها.

علا صـوت المرأة أكثر: عجيـب والله! من أعطاك الحـق لتُنَصِّبي نفسك محامية عن «ورد»؟

نظرت لورد التي غرقت في صمت ذليل، شعرت المرأة بأن موقفها أصبـح أقوى فأكملت: أتريدين ما تقوله هذه المرأة يا «ورد»؟ وأنتِ يا «عزة» أحضرتها لأجل هذا؟

علـت الأصـوات فأصبحت مثـل الضجيج في عشـة دجاج، حتى قلـت بِحدة: هي لم تنصّبني. لكنني لـن أتخاذل عن حمايتها.. حتى لو كلفني هذا التشهير بك على مواقع التواصل.

خرجـت وتبعتني «عـزة» و«ورد»، في الطريق طلبت من «ورد» أن تصـور تصاميمها وترسـلها لي لأسـاعدها، بعـد أن أوصلتهما لأقرب

مواصلة فكرت لماذا فعلت هذا وأنا لم أهتم في حياتي سوى بأبنائي، لم أكن أبدًا طرفًا في مشاكل لا تخصني، ولا حتى في المشاكل التي تخصني. كنت أراها من بعيد فأتجاهلها، وأراها من قريب فأدور حولها، فماذا حل بي الآن؟

لم يتبق من إجازة العمل سوى أسبوع واحد، سأضطر مدها لشهر آخر لأجل السفر لزوجي، أفعل كل شيء كأنني آلة، هكذا كنت طيلة حياتي، أتفانى في منح وقتي وجهدي للبيت، لكن عقلي فارغ، كل الأفكار التي كنت أقلب فيها ليل نهار كانت مجرد وقت مهدور، قلبي رغم امتلائه بحب الأهل والأصدقاء لكنني أشعر بأنه في أعماقه وحيد يهفو إلى الحُب. كل النعم التي أعيش فيها لم توفر لي السلام، بدأت أعترف بأنني لست سعيدة، لأنني اقتربت من الأربعين ولم أحقق شيئًا لنفسي، بدأت أشعر أنني فقدت شيئًا مهما في حياتي، شيئًا غير أبي، لا أستطيع أن ألمسه أو أتعرف عليه لكنني أدرك أن عليَّ أن أجده.

10

تبقّت نصف ساعة على أذان المغرب، كانت الحارة غارقة في ضجيجها، مشيت في اتجاه بيت «ورد» و«عزة» بين روائح عظيمة للتقلية والشَّيِّ والتحمير، أحمل في يدي صينية مكرونة بالباشاميل. عرفت من «ورد» أنها ستقيم اليوم إفطارا جماعيًّا، ستشارك فيه العديد من النساء، شيء أشبه بمائدة رحمن غير أن من يقوم بها الأهالي. مدفوعة بعاطفة المودة التي طرأت على قلبي حديثًا، هممت بالمشاركة، صنعت أفضل أطباقي وأتيت لأجرّب رمضان بطعم مختلف.

في رمضان قديم ذهبت مع زوجي لتناول الإفطار في حي الحُسين، كانت أسوأ أيامنا، لسنوات طويلة ظللنا نتندر بهذا اليوم، ضقنا من الزحام، أشكال الناس، طريقة حديثهم، لفتاتهم، المتسولين، الذباب اللعين، البائعين المتجولين، النصابين، المتحرشين، كانت زيارة كأنها الجحيم كما شعرت وقتها، تأملت الشارع الذي يقع فيه المطعم اليوم، لم أشعر بأي غرابة أو ضيق، كل شيء كان منسجمًا مع الطبيعة بطريقة كونية مُحببة. حتى المشاجرات كانت تبدأ وتنتهي بسرعة مثل الفقاعات، الشوارع والبيوت مع الناس كانوا لوحات ناطقة بالألوان،

لا يفسـدها إلا ريح هؤلاء المتأففين الذين يمشـون في ضجر وسرعة. مثلي ذات يوم مضى.

تحت بيت «ورد» كانت مائدة طويلة، هي عدة موائد متلاصقة عليها مفارش متنوعة من القماش القديم النظيف، كل امرأة كانت تقف أمام طعامها المُغطى، اختلطت الروائح في مزيج بديع، بينما تجمّع العديد من الباعة، الأُسر البسيطة، العجائز، الشيوخ، والأطفال المشردين، في محاولة لتزجية الوقت قبل المغرب بالأحاديث المتصلة بصوت عال، حرصت على ارتداء ثوب فضفاض بلـون محايد لأصبح قريبة منهم، غير أنني بقيت مختلفة بين عباءات النسـاء وجينزات الفتيات الضيقة. عثرت على «ورد» تقف مع بعض النساء أمام أوان كبيرة من الألمنيوم، وقفت جوارهم سعيدة بالترحاب والدفء، أكثر من سعادتي في إفطار اليوم السابق مع الأصدقاء في أحد أفخر المطاعم بحي الزمالك.

التقطـت صـورة سِـلفِي باسـتخدام العصـا المتخصصـة، فشـعر الجميع بفـلاش داخلي ينير أرواحهن، وابتسـموا ابتسـامات حقيقية. أذّن المغـرب فجلسـنا جميعًا في خشـوع أمام قداسـة الطعـام، ثم بدأ الهـرج، جعلوا مني نجمة الإفطار، قدّموا لي من كل الأصناف، رحت أتذوق من كل طبق في سـعادة، ثم انسـللت من بينهم وحدّثت «مازنًا» على الهاتف، حكيت له عن المكان والناس، سألني عن كل صنف من الطعـام، الطريقة المطهو بها، المذاق، والرائحة، كانت أول مرّة ألحظ اهتمامه وشغفه بالأكل، حكيت له بالتفصيل عن كل ما يحدث حولي،

داهمتني رغبة في رؤيتـه، أن يأتي في هذه الليلة لهـذا المكان، لكنني لـم أشـعر في المقابـل بنفس الرغبة عنـده، فوأدت رغبتـي في مهدها، وأنهيت الاتصال بشكل رسمي كما اعتدنا.

لاحظـت أن «عزّة» لم تظهـر، بحثت عنها بعينيَّ ولـم أجدها، حتى انتهـوا من الأكل وبدأت النسـاء في لملمة ما تبقى وتقسـيمه في علب ليوزعوه علـى فقراء حارة أخرى، حتى الحـارات كانت طبقات أعلى وأدنى، حتى الفقراء بينهم فقراء. تفرق الجمع وذهب البعض للمقاهي والأغلبية عادوا للبيوت، ووقفت أرتشـف الشـاي مع «ورد» في شـرفة منزلهـا أراقـب الحياة تعـود تدريجيًا للحـارة كما رأيتها فـي أول يوم، نتبـادل حديثًـا عن التفصيل بين نسـمات حانية من نفحات أغسـطس، سـألتها عن وجود حبيـب في حياتها، تلعثمت وهـي تنكر برقّة، كانت لهـا لفتـات رقيقة تضيع فجـأة مع كل جملة أو لكنة شـعبية تحضر بين الحديث. حتى فوجئنا بصراخ قريب تعرّفت عليه «ورد» بسهولة، لفّت رأسها بطرحة ونزلت للشارع بسرعة وهي تردد «دي عزّة».

نزلـت وراءهـا لأرى علـى بُعـد بضعة مبـان تجمُّعًـا بشـريًّا كبيرا وصراخ امرأة تتلفظ بأقذع الشـتائم، عندما اقتربت ميّزت «عزة» بثوب أسود، طويل وضيق، تلف شعرها بطرحة خفيفة سوداء سقطت من أثر الانفعـال والثورة التي كانت تتملكها، توجه كلامها وشـتائمها لشـاب ضعيـف البنية يبدو على مظهـره الإجرام رغم نظرة غبـاء تعلو وجهه، عندمـا رأتنا زاد هياجهـا قالت: «تحرش بي الكلـب ابن الكلاب»، لم

تستجب لمحاولات الناس و«ورد» في تهدئتها، في حركة واحدة نزعت شبشبها ونزلت به على رأس الشاب الذي أفلت بصعوبة. انفض الجمع تدريجيًا، ألسنتهم تواسيها وعيونهم تنبذها. أخبرتني «ورد» عندما وجدتني مذهولة أن هذا موقف معتاد في منطقتهم، وهمست لي بأنه خطأ «عزّة» لأنها ليست ملتزمة. سألتها «وأنتِ؟ ألم تتعرضي له؟» تمتمت ببعض كلمات الاستغفار والاستعاذة دون أن ترد.

عندما عدت لمنزلي كنت أرتجف، أضاعت حادثة التحرش السلام النفسي الذي كنت قد وصلت إليه، احتضنت أطفالي وجلست بينهم أشرب «نسكافيه» في كوبي الأثير. شعرت للحظة أن زوجي كان مُحقًا عندما تذمر من ذهابي للحارة. أنا شريكه المخلص في مشروع الزواج كما يسميه وعليَّ أن أساعده لتنجح الشركة وعليه أن يوفر أسباب النجاح. الاحترافية لا تتطلب الاعتراف بالمشاعر أو مواجهتها، لكنها تتطلب التعامل معها بذكاء وحكمة، لم أحك له عن يومي كما لم أحك له في الأسابيع الأخيرة، ليس لأنني لا أريد مشاركته، لكن لكي أقوم بدوري باحترافية، وأنجّح الشركة.

حاولت التحدث مع صديقاتي القدامى على جروب الواتس آب، فلم أجد منهن إلا التهكم والضحك، وبعض الشماتة لأنني نزلت لأماكن لا تليق بي. لم أجد بدا من مراسلة «مازن» الذي سمع كل حكاياتي ولم يبد أي تعجب أو تأفف، أخبرني ببساطة أن هذا الأمر لا يخضع لقواعد زمان أو مكان أو شكل اجتماعي وأنه أكثر عرضة في

المناطق الشعبية لتلاصق الناس وضيق خلقهم وعدم سيطرتهم على الكبت النفسي، بل وأنها أحيانًا تكون حوادث انتقامية من النساء. كان حديثه مسترسلًا، هادئًا، تساءلت كيف يملك كل هذا الهدوء حيال أكثر المواضيع إثارة واشتعالًا. لكنه بث فيَّ الأمان من جديد، أنهى حديثه بطريقة رسمية لطيفة، قبل أن يعود ليقول جملة أخيرة «عرفت أخيرًا مكان ناشر الأستاذ «يحيى»، يدير دار النشر من منشئها في دولة الإمارات».

***

أصبحت أعتمد على «مازن» في الكثير من الأمور، خرجنا عن نطاق مناقشة كتابات أبي وتحليل ملابسات غيابه، وراح يُساعدني في البحث عن حل لمشكلة «ورد»، أرسلنا التصاميم للعديد من أشهر محلات الثياب المصرية، أنشأنا صفحة باسمها على الفيس بوك، كان بداخلي شيءٌ ينمو، يد كبيرة تمتد من أعماقي تريد أن تربت على قلب ورد وكأنها تربت على قلوب المُنهكين جميعًا. تقتص لها، كأنها تقتص للمظلومين جميعًا.

خطرت على بالي فكرة بينما أتجول في معرض النادي المكتظ بالأعضاء أثناء تمارين الأولاد. تفاوضت مع إدارة النادي لتخصيص مكان صغير لعرض منتجات «ورد» في المعرض نظير مبلغ مالي مناسب، بعد عدة أيام أتتني الموافقة، بشَّرتها وطلبت منها العمل بجدية حتى بداية الشهر لتوفير عدد لا بأس به من القطع للعرض.

رفضت مساعدتي المادية، تحججت بأن الوقت ضيق وأنها تُفضّل العودة للخياطة للزبائن المتفرقين من المنطقة. شرحت لها أهمية نشر موهبتها خاصة بين مجتمع يقدّر الثياب المتفردة والتصاميم المختلفة. سحبت من مدخراتي المبلغ، أخبرتها أن تعتبر ما سأدفعه لحجز المكان سُلفة تُرد في أي وقت. نفسها العزيزة شجعتني على التشبث بمساعدتها. بدأت أزورها يومًا بعد يوم وأطمئن على العمل، حتى بدأ الشهر ووقفت معها جنبًا إلى جنب نعرض الثياب بطريقة جذابة، كنت قد أعلنت عن مشاركتها في المعرض على الفيسبوك وفي مجموعات الواتس آب وبين أصدقائي وأقاربي، لم يفد هذا كثيرًا، لكن الغرباء من رواد المعرض كانوا الشاهد الحقيقي على نجاحها.

ما كان يحدث في هذه الأيام ساعدني على تحمل محنة غياب أبي، وعجزي عن حلها، أصبحت أكثر حميمية وودا، ذاب غلاف العجرفة الذي كان يلفني دون إرادتي، كما تحمست أكثر للاستمرار في كتابة سطور كل ليلة عمّا دار أثناء اليوم، خلال هذه الأيام كنت أتجنب عزة قدر الإمكان لكن هذا لم يمنعني من الوقوع في مصائبها.

11

بلاد الله واسـعة، فلماذا بلـد يرفضنا، ويفرض علينا مبادئه؟ لماذا اخترت يا أبي أن نعيش منعزلين عن الناس، في بلد حار بلا أكسجين؟، لا نسـتطيع السـير فيه وحدنا، لا نسـتطيع حتى أن نقف فـي النوافذ أو على أعتاب المنازل، الشـرفات فيه مجرد ديكور، لماذا جعلتنا نمشـي بيـن النـاس كأنابيـب الغـاز المكتومة، نرتـدي ثيابًا لا تشـبهنا، ندرس فـي مدارس غريبـة عنا، نصاحب أناسًـا لا نجد غيرهـم أمامنا، نحفظ ذكرياتنـا في أماكـن لا ننتمي لها، نقضي أيام الإجـازات وحدنا، لماذا اخترت لنا العزلة معك؟

فـي هـذه السـن الرقيقة التـي يخرج فيهـا المرء من ثـوب الطفولة المريح لثوب المراهقة الضيق، حبستنا في قمقم، لنشعر بالضيق أعظم وأكبـر، لا مـلاذ لنا من الجـو المشـحون بالحر وبخلافاتـك مع أمي، لسـاعات أحدق في برامج لا تعجبنـي، أقضي وقتي في الأكل والنوم، كأنني جَدة في الرابعة عشـرة من عمرها. أسـمع خلافاتكما في خلفية حياتي كموسـيقى تصويرية تكمل المشـهد الفارغ، كل ما حولنا غارق في الضياع، مازلت أذكر جارتنا تجري في الشارع عارية بعد أن فقدت عقلهـا من طول المكوث وحيدة وزوجها الشـاب في العمل، ثم تأتي

أنت بعد شـهور طويلة تبلغنا بموعد الرجوع لمصر فننتفض من سباتنا الطويـل، مـن غيبوبتنا الكئيبة حيـث توقف الزمـن، ونعيش في أحلام يقظة لا تنتهي.

أذكـر قائمة كتبتهـا في خيالي في هذه الأيـام، حلمت بأني تفوقت في رياضة ما وسـافرت لأمثل مصر في مسابقة عالمية، كسبت وبكيت مـن فـرط الوطنيـة (كانـت هذه فكرتـي عـن الوطنية آنـذاك)، حلمت بأنني خرجت مع صديقات المدرسـة القديمـة وضحكنا حتى البكاء، حلمـت أننـي أجلس علـى البحر في الإسـكندرية، كزيـارات الصيف القديمـة، حلمت بأني أقف في شـرفة يشـاغلني فيها جـار لنا فأصده، حلمت بأن صديقًا لأخي يحبني، وبصدفة تجمعنا في لقاء رومانسـي، حلمت بأنني أسـير في الشارع، في النادي، آكل المثلجات على حمام السـباحة، نذهب للسـينما، للمسـرح، نخرج خروجة طويلة نعود منها قرب الفجر.

لكن كل هذه الأحلام كانت تتبخر مثل أيام الإجازة القليلة، ونعود للسـعودية، مثل أسـرى الحرب، بلا أصدقاء، بلا حـب، بلا ذكريات. ربمـا لهذه الأسـباب كنت أتحيز لأمي ضدك. كنـت أتعرّف عليك في حياتي أنك سـبب الوحدة والعزلة، فرِحت يوم لملمت ماما كل كتبك مـن المكتبـة في أكياس القمامة السـوداء الكبيرة ورمتهم في الشـارع، قلـت لنفسـي «هذا جزاؤه»، لـم تصعب علي دمعتـك التي طفرت من عينـك والتي رأيتهـا يومها لأول مـرة، عندما وجـدت مكتبتك خالية، حتـى أنت لم تثر يومها، دخلـت غرفتك في هدوء وأنـت تقول: «في

يـوم قريب سـيكون هناك مكان لـي وحدي». عندما نزلنـا مصر بعدها بعدة سنوات كان أول أولوياتك أن تصنع مكتبة جديدة تضعها في بيت جديد صغير، سميّته «المكتب».

تلـك هي التـي أجلس أمامها الآن يـا بابا أكتب هـذا الكلام، الآن عرفـت، بـدأت أفهم، لم تكـن أمي مذنبـة، لا أبدًا، كانـت كما عرفتها دائمًا، تريـدك لنا.. لها، الكتب والقراءة نغصـت حياتها، كان يجب أن تدافـع عن حياتها معك، حتى لو بأكثر الطرق حماقة ووحشـية، لكنها فـي النهايـة معـذورة، إنه تحكـم الحُـب. وأنت أيضًـا يا بابـا معذور، ضحيت بعالمك، بفرصك، بمسـتقبلك الذي تُحِب أن تحققه لا الذي يتوجـب عليك أن تُحققه، تركـت عالمك المبهـج وراءك لأجل حياة كريمة لنا.

كانـت أمي تقول: «تزوجتـك مدرس تاريخ وليـس كاتبًا»، وكنت أؤمن بـكلامها، إنه العقد يا بابا، أذكر زوجي عندما قال لي في الخطوبة خطبتك بشعرك فلا تفكري في الحجاب يومًا ما، أذكر أنني فكرت فيه عدة مرات على مدار خمسـة عشـر عاما، كنت أتخيل نفسـي به وألف الشيلان على شعري في المرآة، فتسرّني نفسي وتطمئن سريرتي، لكن سـرعان ما أتذكر العقد. لكن لماذا يربط الأزواج عقدًا في كل شـيء، هـل نحـن صناديق يجـب أن تبقى كمـا هي على نفـس الحجم ونفس المحتويات على مدار السـنين، ألسـنا بشـرا، نكبر وننضج، مع الوقت ينقصنا أشياء ونستغنى عن أشياء، تزورنا رغبات وتغادرنا أخرى.

الآن أنـا لا أكـره السـعودية، ربمـا مكوثنا هنـاك معزولين، أضفى علينـا هـدوءًا وصفـاء قليـلًا ما أجدهمـا في النـاس، ربما جعلنـا أكثر قـدرة على التخيـل والتمني، ربما منحنا فرصة للبعد عن تلوث البشـر أطـول مدة ممكنـة، كل الصدمات التي واجهتها فيمـا بعد عندما عدنا لمصر وللجامعة والنـاس، والتي أدت إلى تلعثمي وانعزالي في بعض الأوقـات، خففتها رغبتي العظيمة في أن أنسـحق فـي الاجتماعية، أن ألتصق بالعالم الخارجي، حتى تراب الشوارع كنت أحبه وأقدره.

الغريـب أن الكتـب التـي كنـت أكرههـا وأخافهـا الآن أحـب أن أمسـكها، أتصفحها، أقرأها وأشـم رائحتها، الكتابة أصبحت أمارسها كل يـوم، الاطـلاع على شـتى صنـوف الثقافة والفن أصبح يُسـعدني، الاختلاط بالبسطاء منحني شـيئًا من الرقة والإحساس، أبواب جديدة فتحت على روحي يا بابا، أخاف أن تغيرني، أخاف أن أنقض العقد.

***

كنت أعد السـحور عندما أتاني أكثر من عشـرة اتصالات من «عزّة»، كان صوتها مخنوقًا وكأن دموع العالم وقفت محشورة فيه، أخبرتني أنها في قسم الشرطة وأنها تريدني أن أُحضر لها محاميًا، كان الاختيار صعبًا، أعرف أن عاقبة هذا المشوار ربما ليست هينة، لكنني لـم أتردد طويلًا في الذهـاب للقسـم. لا فرق هناك بين فجـر وظهر، المـكان مزدحم وغائم طـوال الوقـت، ضجيـج الهمهمات والتوسـلات والغضـب لا يتوقف، وقفـت «عـزة» بين عـدة فتيات رثات المظهـر، بثياب خفيفـة أو عباءات ضيقة.

عرفت من الضابط أن زبونًا للمقهى الذي تعمل به قدم فيها بلاغًا أنها سـرقت حافظة نقوده وهاتفه المحمـول، وأن عدة بلاغات أخرى اشتبهت بها. كنت أعرف أن «عزّة» سارقة فلم أُظهر أي علامة استنكار، بدون أي حديث اشتريت لها بعض الطعام، طلبت لها محاميًا وتركتها عندما وصل، عند الظهر حدّثها المحامي وأخبرها أن النيابة تطلب إما دفـع كفالة أو تجديـد الحبس، كانت «ورد» هناك تدفـع الكفالة عندما قابلتها، طلبت منها العودة للمنزل لأنني أردت الانفراد بـ «عزّة».

في طريق العودة من القسـم للمنزل، سـرنا متجاورتين، صامتتين، حتى قلت:

- لديك العديد من الطرق الشريفة لماذا اخترت السرقة؟

- أخبرتكم أن هذا البلاغ كيدي.

- لا يا «عزة» ليس بلاغا كيديا. أنا أعرف.

- ماذا تعرفين؟

- أعرف أنك سرقتني من قبل.

- الشـاب الـذي تحرش بـي يلاحقني منـذ أكثر من عـام، يد تمتد لجسـدي، كتف يصدم كتفي، وكنت أكتفي بنظـرة غاضبة، محتقرة أو تمتمة سُـباب. أعرف أن له وقتًا سـيحين، وقد كان. في الصباح عرفت من «إسلام» أن هذا الفتى تناول سمعتي بالسوء مع الناس في منطقتنا. لـم أغضب مـن كلامـه، ففـي منطقتنا عـادة النـاس أن يلوكوا شـرف

وعرض بعضهم البعض سرًا وأحيانًا علنًا. خاصة هولاء من ليس لهم أهل وعائلة، لكن ما أغضبني هو رد فعل «إسلام».

عندما أخبرني ما يقال عني للحظة هربت دمائي، توقعت ضربة منه، إما بيده أو بلسانه، كنت أتوق في قرارة نفسي لغيرة رجل عليَّ، لأن يُخضِعني رجل. يوجهني، يؤدبني، يُصلحني، لكنه عوضًا عن ذلك طلب مني أن يقتسم معي السرقة، يدبّرها لي ويشاركني بها.

لم يكن بالإمكان أن أصب غضبي عليه، فأنا رغم كل شيء أحتاج إليه لأشعر أن هناك نسمة عذبة تنتظرني بعد صهد يوم طويل، لأشعر أن بين الروث في طريقي قطعة حلوى تجعل لليوم معنى. مع أول مرور بالفتى المتحرش، انتظرت أن يلمسني أو يلقي كلمة كعادته، لكن لغرابة الحظ كانت هذه أول مرة يراني ولا يتحرش بي، لم أغلب، ألقيت بردفي عليه في الطريق وصرخت، صنعت فضيحته كما أراد فضيحتي، ضربته بشبشبي وتسببت له في الكثير من السباب والضرب والغضب. لوهلة تصورت أنني انتقمت وانتصرت. كان هذا قبل أن يرد لي الصاع صاعين في مساء الليلة التالية.

- لا تستغلي طلبي للاستعانة بك لتنالي مني. أنا لست لصة.. ابحثي عمَّن سرقك.

- لو كنت أريد أن أنال منك لبلّغت عنك يوم عرفت أنك سرقتني. لكن هذا ليس غرضي.

- إذن مـا هو غرضك منـا. أنا و«ورد»؟ أنا لا أصـدق حكاية أبيكِ المختفـي. هو كاتب وأنت ربما كاتبـة أو صحفية تريدين منا موضوعًا شيقًا أو قصة ظريفة عن عالم لا يشبه عالمك.

- لو كان كلامك صحيحا كنت توقفت عن لُعبتي عند اتصالك بي فجر أمس. كنت اكتفيت.

- ماذا تريدين منا؟ مني؟ أنت لن تعرفي أبدًا. لن تفهمي أبدًا، لأنك لـم تشـعري بالجوع، ولا بالنقـص، ولا بالأعين التي تنهش والألسـنة التي لا ترحم. ولا بأب غدر وأم هربت.

- تتكلمين بلهجة سـينمائية لن تثير تعاطفي معك، توقفي عن هذه الطريقـة. كل إنسـان لـه معاناتـه الخاصة، ربمـا أصابني نـوع آخر من الجوع أو شعرت بصنف آخر من النقص. كلنا ضعفاء.

- أنتِ أيضًا تتكلمين بلهجة كتب، لهجة المستشيخين، أو المثقفين الذين لم نر منهم أي رجاء. لا تظني نفسـك لأنك أتيت هنا عدة مرات أنك أصبحت منّا، أو تعرفين عنّا، أنت هنا سائحة، تسيرين في مكان لا يخصك، تتطلعين لحياة لن تعيشيها أبدًا. تضحكين في وجوه وجودها مؤقـت فـي حياتك، تلتقطين الصـور لنا ومعنا، ثم تعوديـن إلى ديارك وتنسين كل شيء.

- لو كان الأمر كذلك ما كنت معك هنا والآن.

- طبقتكم تعشق دور الوصاية علينا، تظن أن بإمكانها تغيير مصيرنا بعدة جمل محفوظة. أنت معي هنا والآن لتكملي دورك ليس إلا.

- أنا ليس لي دور يا «عزّة»، وكما أضفتم لحياتي تمنيت أن أضيف لحياتكما، أنت حرّة أن تسرقي أو تعيشي كما يحلو لك، لكنك لم تفكري في أختك، سمعتها وسمعتك. أي مشروع زواج قد يقف بسبب أفعالك.

- ريحي نفسك، «ورد» لن تتزوج.

- لماذا؟

- كل المنطقة تعرف أنها ليست بنت بنوت، حدثت لها حادثة اغتصاب قديمة من قريب لأمي، لذلك لم ولن يتقدم للزواج منها أحد من المنطقة على الأقل.

ابتلعت الكلام كأنني أبلع موس حلاقة يجرح أحشائي، يدميني ويؤلمني. صمتُّ لدقائق لا أعرف كيف أعارض كلام «عزّة»، أو كيف أهاجم الفكر البالي، أو كيف أرد من الأساس. حتى قلت مبتعدة عن نقاش لن يقودني إلا إلى الألم:

- عملكما، حياتكما ومستقبلكما، فتاتان جميلتان، ذكيتان، موهوبتان، ينتظركما الكثير. أنت لن تغتني بحافظة نقود وهاتف محمول ونقود من هنا وهناك، ستخسرين كل يوم، تفقدين كل يوم، تُهزمين كل يوم، حتى تصبحي يوم تجدين نفسك في سجن أو سلعة بين أيدي مجرمين.

أشاحت بيدها وهي تسير بعيدًا، ثم استدارت لتقول: عودي حيث ما كنتِ..نحن لا نريدك هنا، أنت لا تفهمين شيئًا.

12

ربما هذا يُفسّر نظرة «ورد» الغائمة، الحزن الأصيل في عينيها مهما بدت راضية سعيدة، بالتأكيد آلمتها نظرات الناس لها، رأت تعاطفهم المبالغ فيه، لمست الحذر في تعاملات الصغيرات معها، وفي غيرة الزوجات منها على أزواجهن، سمعت همس الفتيات عن حكايتها، بالتأكيد عانت من مضايقات الشباب لها، بالتأكيد أحبت وكتمت حبها خوفًا وحزنًا، كُسِر قلبها مرات عديدة، غادر كل عريس مُحتمل وقف ببابها. بالتأكيد شعرت بالعار والخزي من شيء لم ترتكبه.

أكاد أشعر الآن ببكائها الحار في الليالي التي انفطر فيها قلبها، وبقسوتها على نفسها وقراراتها العنيدة بعدم الانسياق لمشاعرها. أكاد أشعر بشعورها بالضآلة والعجز والنقص مقارنة بفتيات منطقتها. أشعر برَهَب الجنس والرجال الذي أصابها، وأشعر أيضًا بكرهها للعالم الذي انقلب حُبًا في لحظة ما، لحظة لا أعرفها لكني متأكدة أنها حدثت. تبدلت بعدها الأحداث والمشاعر، أصبح لا يضايقها أحد، لا يخافها أحد، الجميع يبغون صداقتها ويحرصون على ودها.

عندما تركت «عزّة» عُدت لمنزلي أسأل نفسي: «لماذا ورطت نفسي معهما؟»، كنت أنوي ألا أعاود زيارة الجمالية، وأن أبحث عن

أبي في أماكن فرضية وجوده بها أكبر، كنت قد خططت مع «مازن» أن يبحث هو عند أصدقاء أبي القدامى وأن أتواصل أنا مع ناشره.

في المسـاء اسـتعدت حواري مـع «عزة». كانـت الكلمات تخرج مـن فمـي، ليس من عقلـي، كأنني إنسـان آلي تعود علـى إلقاء الجمل المحفوظة والرسائل المسجلة للناس. حتى التغيير الذي طرأ عليَّ في الشهور الأخيرة لم يمنعني من ممارسة دور المجتمع الذي أعلم تمامًا أنه السبب المباشر في تعاسة العديد من البشر. تذكرت يوم دافعت عن طقـوس دينية بكل ما ظهـر من جوارحي، إلّا القلب، في سـجال على موقع إلكتروني للتواصل، كنت في الحقيقة أخشى أن أعترف بالرفض الـذي أضمره للثوابـت التي فرضهـا المجتمع قبل الديـن والظروف، خشية أن أبدو غريبة.

كيـف أصبحـت هذه النسـخة المزيفة عن نفسـي؟ لا أعرف كيف ومتـى أصبحت الشـخص الذي أنـا عليه، لم أعد أتعرف على نفسـي. الحقيقـة أن «عـزة» بكل مـا فيها من اعوجـاج لكنها نسـخة أصيلة من نفسها.

كان موعـد سـفري لقطـر قـد اقتـرب واقتـرب معه إغلاقـي لهذه الصفحـة مـن حياتي، لذلك قـررت أن أعود للجمالية فـي زيارة وداع أخيرة.

استقبلتني «ورد» ببشاشة وود، أرتني الشكل الجديد الذي اختارت أن تكتب به اسمها وتطرزه على الملصقات المصاحبة للثياب، عرّفتني

على فتاة تساعدها، وقد اتفقت مع أخرى للمكوث في معرض النادي للبيع، كانت سعيدة ومتوهجة، قدّمت لي الشاي وطبقًا من البسبوسة صنعته لأجلي كما أخبرتني، جلسنا على الكراسي الخشبية في الشرفة الضيقة الطويلة التي تطل على بيتي القديم. ناولتني بعد قليل حافظة نقودي التي سرقتها «عزة». قالت إنها تركتها لي.

سألتها كيف تُقبل على كل الناس، قلت:

- هل آذاكِ الناس؟

- ومن منا لم يؤذه الناس؟ نحن لسنا ملائكة. لكنني لم أعد أذكر على كل حال.

سألت ضاحكة: «ورد»، لا يمكن أن يكون إنسان بهذه الطيبة..أنا أيضًا لا أصدق في وجود ملائكة على الأرض، لذلك لا أصدقك.

ردت باسمة: لست ملاكًا، كل الحكاية أنني واجهت الأذى بطرق عدة، بالخوف، بالهروب، بالجفاء، باعتزال الناس، حتى أصابني الأذى في مقتل من صديقة عمري التي هجرتني وعايرتني بعد زواجها، يومها قررت أن أحب كل الناس عداها لأعاقبها، كنت أجرّب، مثل الأعمى الذي يتحسس النور. عندما بادرت بحب الناس، ودّهم ومشاطرتهم الفرح والحزن والهم وبدأت أعطي من وقتي وعمري وقلبي للأهالي، شيء غريب حدث، اكتشفت فجأة عشقي للرسم. تركت لي جارة ابنتها التي كان عليها واجب رسم للمدرسة، وجدتني أساعدها ببساطة وأرسم فتيات بفساتين حلوة، وجدت في نفسي شهوة عارمة لرسم

الثيـاب لم أكـن أعرفها، في نفس الوقت طلبت مني امرأة مُسـنّة تعمل خيّاطة المنطقة منذ القدم مسـاعدتها، فتعلمت صنعة الحياكة بشـغف كبيـر، تغيـرت حياتي بعدها، شـعوري بأذى الناس تضـاءل، أصبحت أرانا جميعًا كأننا خُلقنا لنقدم شيئًا للآخر، الذي بدوره خُلِق ليقدم شيئًا لإنسـان آخر. بدون هذه الدائرة تفقد الحياة معناها، ونسـقط في عتمة الكـره ومعانـاة الخوف مـن الآخريـن، الآن أصبحت أرى فـي الناس عائلتـي التي لم أعرفها، وفي وجودي معهم عزوة وسـندًا ومشـاعر لا أستطيع وصفها، لكنها هنا.

وأشارت إلى قلبها.

قُلـت: لكن الناس الرديئة فـي كل مكان حولنا. مجرمين، ظالمين، جبّارين، كيف لا أكرههم؟

- نحن نختار من نراهم ونعرفهم. كل إنسـان بإمكانه أن يختار من يعيش بينهم ويتبادل معهم أدوار العطاء.

- لكن هل هذا يكفي؟ هل يغنيك العطاء والناس؟

قالت وقد برقت عيناها باليقين: الله يكفيني ويغنيني..هو في قلبي.

وأشارت مرة أخرى إلى قلبها.

كان المسـاء يرخي سـدوله على الشـارع، صوت همهمة يعلو في الخارج، مشـاجرة، لعب أطفال، وباعة جائلين، كل هذه الأصوات لم تُغـط على الصفاء الذي ملأ روحي بعـد محادثتها. وددت أن أترك لها

مبلغًا ماليًّا لتُجدد حجز مكانها بمعرض النادي، لكنها رفضت وقالت إن مكسب البيع مكّنها من تدبير مال للإيجار ولشراء الأقمشة اللازمة. كانت محددة، مرتّبة، رغم كل الهرج الذي تعيش فيه، وكنت سعيدة أنني دون قصد أصبحت ضمن الدائرة.

كان عليَّ أن أجهّز نفسي وأولادي للسفر، هذه المرة مختلفة وثقيلة على روحي، شيء بي تغيّر أخاف أن يلاحظه زوجي فينغص إجازتنا، وأخاف أن أطمسه فأعود كما كنت، أتوحشه وأتوحش بيتي هناك، لكنني لا أتوحش حياة الركود والتسوق والخمول، أخاف ألا أستطيع كبح جماح نفسي الجديدة التواقة. ودعت «مازنًا» في مكالمة قصيرة، أرسل لي بعدها عنوان ناشر أبي ورقم هاتفه في دبي، ثم ذهبت في زيارة طويلة لوداع مكتب أبي، تحسست أوراقه بحميمية، حملت معي بعض كتبه وأغراضه، تاريخه أصبح تاريخي، وكتابته جزءا مني، الغريب أنني لأول مرّة ربما، أشعر باشتياق حقيقي له.

13

قطر أغسطس 2015

مرت الأيام الثلاثة الأولى من وحشة أن نكون عائلة سعيدة، اجتمعنا أخيرًا في بيت فاخر، جهزه زوجي بكل وسائل الراحة، عكس بيتنا في مصر، الذي لا يحاول أن يضيف إليه أي جديد منذ زواجنا، نفس الفرش القديم البالي، نفس الفراغات التي كنا نخطط لملئِها بعد الزواج. فكرت كثيرًا أنه ينشد التوفير حتى يتسنى له أن يدخر بعض المال من الغربة، لكنني انتهيت إلى أنه يربط الراحة بوجوده لا بوجودنا. ثلاثة أيام وأنا على نار، أود التواصل مع عالمي الذي تركته في مصر، أود أن أعيش حرة أستطيع أن أمسك هاتفي في أي وقت، أكتب في أي وقت، أقرأ، أطالع شاشة ما، لماذا يغضب الرجال من أن يكون للمرأة حياة في وجودهم؟ لكني استطعت أن أمسك بزمام كل رغباتي وأقضي الأيام الأولى حسبما تعودنا في خمول، في اليوم الرابع عاد زوجي للعمل وعدت أنا للعالم.

العمائر هنا فارهة ومبهجة بشكل مصطنع، كل الشوارع رئيسية، لا توجد الشوارع الجانبية الضيقة التي تشعرك بالألفة، الشرفات تطل على فراغ كبير في الشوارع الحارة التي لا قدم تمر بها. لا تسكنها إلا

العجلات السريعة للمركبات، وظلال مبتورة لرجال النظافة، أجلس أنا في برجي العالي أرى نفسي من فوق، امرأة تائهة تبحث عن أبيها، تجلس خاملة في غرفة مكيفة، في مبنى مكيف، في بلد مكيف، تتلمس بعض الدفء، والرجل الذي أحبته أصبح بعيدًا مثل نجمة، رغم أن أنفاسه ما زالت في الغرفة، لا يعرف عنها إلّا القشرة، ولا تعرف عنه إلّا الرتوش.

جسده غريب، لا ألفة بيننا، أشعر معه أنني امرأة تقدم نفسها لشخص لا تعرفه، أحاول أن أعلمه أن الكلمات تسبق القُبُلات، والقُبُلات تسبق فعل الحُب، أحاول أن أبني بيننا جسورا، أن أحكي له عن نفسي، مخاوفي، أوجاعي، أفكاري، حتى تفاهاتي، لكنه يرفض ويفضل أن نشاهد فيلمًا سويًا، لا نتهامس خلاله، ولا نتناقش بعده، كأننا نشاهده لنقتل الوقت. نمشي متجاورين ويده على كتفي في حميمية مبالغ فيها، يريد أن يقول للناس هذه امرأتي التي أتكئ عليها، لا يدرك أنني تعبت وأريد أن أتكئ عليه، على روحه. وأحيانًا، ينساني، يسير بعيدًا ويضيعني في الزحام، لا أشعر أنني في قلبه، أو عقله، أو كيانه، أنا فقط في حساباته. هو أيضًا يرحل عن قلبي ببطء، وهذا يؤلمني، والأكثر إيلامًا، أنني أقف مكتوفة الأيدي حيال المشاعر التي تغادرني.

عندما اتصلت بـ «مازن» كان سعيدًا، يشاطرني الفرح والتهاني كأنني في إجازة زواج، وكنت خاملة مثل المكان الذي أسكنه، عرفت منه أن صديق أبي الأقرب «لطفي الشاهد» كان في المستشفى الفترة

الماضية على إثر عملية جراحية بدأ في التعافي منها، وأنه بصدد زيارته في البيت للاطمئنان عليه وسؤاله عن أبي، سألته عن نفسه، كانت ردوده دائما كما هي مقتضبة وباشة، كأن لكلماته ابتسامة لا تغيب، فيضيع حنقك من اقتضابه في عذوبة الكلمات الباسمة.

جاء دوري لأتصل بـ «سيد عفيفي» ناشر أبي، والذي عرفت من رسائلهما، ومن مازن، أن بينهما خلافًا كبيرا، على أشياء تخص النشر والعقود، والحقوق. ولأني أعرف أن أبي لا يثور لأجل المال، وأنه ترك عمله في الجامعة في الرياض رغم راتبه الكبير فقط لأنه اختلف مع رئيسه، فقد أيقنت أن ما بينه وبين ناشره أكبر من خلاف مادي، ربما ثار أبي لحقه. رد عليَّ «سيد عفيفي» وشعرت بصوته يتقلص عندما عرّفته بنفسي، كانت المفاجأة الكبرى عندما أخبرني أن أبي كان عنده في دبي، قابله وسوى معه حساباته قبل أيام، أخبرته دون تفكير أنني آتية إلى دبي لمقابلته، لم يفهمني، لكنه رحب بي بشكل آلي.

لا أعرف متى بدأت العاصفة، كنا بصدد سهرة مع أصدقاء زوجي وزوجاتهم المتصنعات بالكثير من البهرجة والماركات العالمية لكل صغيرة وكبيرة، والحوارات عن التسوق والمشتريات والمصاريف الباهظة. أخبرته وأنا أُعدّل زواقي برغبتي في السفر إلى دبي لأنني عرفت بوجود أبي هناك، قُلت له إن بإمكانهم أن يرافقوني، انتظرت منه مناقشة سويّة نصل بها لأفضل الحلول، لكنه صمت، كل إيماءاته كانت تنضح بغضب كبير مكتوم، كانت عادتنا أن نتجنب الزعلات الصغيرة، ولا نعطي الخلافات أكثر من حقها، وقت لقائنا الضيق

علّمنا أن نمشي بمحاذاة المشاكل، وأن نبحر بالمركب مع التيار ونرخي حبال الغضب، حتى نصل بسرعة.

في حوار عادي مع الأصدقاء مغلف بالضحك تطرقنا للنساء الناجحات في دبي ثم لفكرة النجاح والكفاءة عمومًا، قال فجأة مشيرًا إليَّ:

- زوجتي تعمل، لكنها لم تفلح لا كامرأة عاملة ولا كزوجة.

تبع كلامه بضحكة لم يشاركه فيها أحد، وقفت الدموع حائرة في عيني، حاولت أن أداريها بضحكة متوترة، لكن هذا لم يمنع سقوطها، ضربت جملته حساسية عندي من شعوري بأنني زوجة متوسطة، أم متوسطة، وموظفة متوسطة، أثبتت السنين أنني لم أُثبت نفسي في أي شيء، وبين مشاغبة هذا لزوجته، وامتنان هذا لزوجته، وقفت أنا ضئيلة، حقيرة، من إهانة زوجي أمام الجميع، كيف لا يدرك الرجل أن الإهانة تثقب القلب، أكثر من الخيانة، لأنها مباشرة وموجهة بدقة، كلمات في سرعة الرصاص وحدة السكين، ثم يضحك كأنها مزحة، ودماء القلب تنزل قطرة، قطرة.

في منزلنا واجهته بإهانته، وواجهني برفضه لسفري، لماذا لم يرفض من البداية؟ ما فائدة الطرق الملتوية ودفن الغضب في الأرض كالألغام التي تنفجر دون سابق إنذار ونحن نمرح عليها، فقط لأننا قررنا أن نطأ الأرض التي طالما زرعناها بالمودة، قُلت له:

- لكنه أبي.

- وأنا زوجك.

- لكنني لن أتركك لأكثر من أيام، وأنا مضطرة إلى هذا.

- انظري إلى نفسك..هل هذه المرأة التي تزوجتها؟

كنت في مظهر جيد بعد أن غيّرت نمط ثيابي وأطلت شعري أكثر وأصبحت أحرره على ظهري كفتاة صغيرة، لم أفهم قصده، حتى استكمل هو:

- طعامك النباتي الكريه، ماء الخُضر والفاكهة الذي تشربينه، أصبحت ثيابك شبابية، أصبحت نضرة، ممتلئة بالحيوية كفتاة صغيرة.

- وهل يغضبك هذا؟

- غياب أبيكِ جعل عقلك يخف..وروحك تشرد.

- هل حقًا تشعر بروحي؟

صمت، قلت: أم أنه يغضبك أنك لم تكن سبب النضارة. أنا أعرف أن كل رجل يكره جمال أو جاذبية أو نجاح زوجته إن لم يكن له يد فيه.

- لكنك لست ناجحة على كل حال. أنتِ زوجة عادية..وأحيانًا أقل.

أيقنت حينها أنه عرف علّتي ويساومني بها، قُلت في لا مبالاة:

- وابنة عادية كذلك، تريد أن تجد أباها.

- وماذا عن أخيكِ لماذا لا يذهب هو للبحث عنه؟

- لأنـه سـيكون في مصر خـلال أيام قادمًـا من كنـدا، لا يمكن أن يحول مساره، أنا الأقرب لدبي.

- وما ذنبي أنا في خرف أبيك؟

ابتلعت قسوة كلامه، لم تكن أمي لتتحمل، كانت ستنهار وتغضب، كانـت سـتدخل غرفتها وتغلق الباب لسـاعات، كانت سـتخاصم أبي لأسابيع، ولا تقبل كل اعتذاراته التالية، كانت ستقف مثل الحجر حتى تُعيد كرامتها، أمّا أنا..ابتلعت كلماته..ابتلعت الحجر.

- تعال معي..لنجعلها نزهة.

- اذهبي وحدك.

فـي اليوم التالي صرفت جزءا مـن مدخراتي وحصلت على تذكرة السـفر، بعد عدة أيام من الجفاء، ودعتهم بحنان كبير، ضممت زوجي لصـدري حتى وأنا أشـعر بسـخطه علـي ومقته لي، مازالت فيَّ أشـياء تُحبـه، رغم كل ما أذاقه لي من اسـتهانة وإهانـة، غيرة وحماقة، هو في النهاية معذور، هو في النهاية رجل!

في المطبخ وقفت أطهو الصبر، لم تعجبه رائحته، صرخ من مكانه «أريد حُبًّا»، الخزانة كانت ممتلئة بالحزن والضياع. هذا كل ما أحضره لي. طلبت البقالة لأحضر بعض الشـغف، أخبرونـي أنه نفد.. نفد من كل المدينة. هو يصرخ وأنا أبحث.. والصبر احترق.

14

بمجـرد أن تركتهـم شـعرت أنني -ويـا له مـن تعبيـر صحيح رغم ابتذاله- عصفـورة خرجـت مـن القفص تـوًا، روحـي تطيـر، خطواتي خفيفة كأنني أمشي على قطع من السحاب، في حلقي حلاوة وهشاشة المارشيملو، أبتلع سـعادة الانطلاق بكميات كبيرة. قررت ألا أنام في رحلتي أبدًا، أنا أولى بكل دقيقة حرية، لا عيون تراقبني هنا، لا أصوات تناديني لألبي طلباتٍ لا تنتهي، لا مسـئولية أحمل همها، لا طعام عليَّ أن أعـده وأجهـزه، لا بيت عليَّ أن أرتبه وأنظفـه، لا لوم وتقريع يكوي جسـدي، لا تذمر يقابل جهدي، لا نظرات عتـاب وأوامر تأتيني تمامًا قبـل أن أقـرر أن أرتاح من عبء يـوم طويل. أنا هنا مجـرد طير لا يعبأ بشيء.

في المطار استقبلتني امرأة أنيقة، لها طلّة جذابة، رحّبت بي بحفاوة وعرّفتني بنفسها أنها «نجلا» زوجة «سيد عفيفي»، كانت مفعمة بالحياة عكـس كل مُدّعي الحيوية ممن رأيتهم مـن أصدقائنا في قطر، حدّثتني عن أفضل الأماكن التي يمكن زيارتها في دبي، أجمل المولات التجارية وأرخصها، وأكثر المعالم غرابة. سـألتها عن أبي، لكنها لم تعرف شيئًا عنه، ثم اتفقنا على تناول العشاء في الفندق في وجود زوجها.

في غرفتي عشـت ساعات من تخيل نفسـي إنسانة غيري، تخيلت نفسي الكاتبة التي كانت تراسل أبي، أعيش وحيدة، أحضر المناسبات الأدبيـة المختلفـة، أدخـل في نسـيج المجتمـع الثقافي، أُحـب رجلًا لـن يكـون لـي، أتعـذب، أُعاني مـن الحُب والوحـدة، أقـرأ الروايات والدواويـن، أكتب الرسـائل، أسـتكمل روايتي، أسـبح في الشـوارع. شعرت بنشوة شديدة من هذا الخيال، جلست إلى منضدة خشبية أنيقة، فتحـت اللابتوب وبدأت في تدوين خواطري، كنت أكتب باسترسـال ونهم، كأنه جوع السنين للكتابة، أشعر بمصابيح تضيء روحي، برجفة تسـري من قلبي حتى أطراف أصابعـي التي كانت تنقر لوحة الحروف فـي رشـاقة وخفّة. الكلمات تتسـابق في ذهنـي، تتغير وتتبلـور عندما تسـقط على الشاشـة، روابط الأزمنة والأمكنة تتضافر، الماضي يرسو بلطف على شـواطئ الحاضر، الألم يطفو بوضوح، رغم ذلك شعرت لوهلة أن هذه هي السعادة.

كنـت أسـمع صوت ضربـة أمي بالملعقة الخشـبية علـى حافة آنية الطعـام، فآتـي هرولـة أسـألها «الأكل خلـص؟» تقـول دون النظر لي «لسّـه» أقـول بغضـب «أنـا جعانة» تـرد بهدوء «هـو أنا النـار؟» أجوع بسرعة وأشبع بسرعة. أطير بكلمة وأسقط بكلمة. أَضُمُّ بكل إحساسي وألفظ بكل غضبي. أسافر بعيدًا بالأمل ويعيدني اليأس في طرفة عين. أشـع بالبهجة تمامًا قبل أن أمتلئ بالحسـرة. أريد كل شيء بينما القليل يرضيني. تمسكني الحياة من ذراعي، تحاول عبثًا أن تضعني في وتيرة

واحـدة. عيناي تبرقان بالقبول والتفهـم، بينما قلبي يصرخ «أنا جعانة» وكل ما في الحياة يجاوبني «هو أنا النار؟!».

أفقت من غفوة الكتابة على هاتفي يرن باسـم «نجلا»، في الطريق أخبرتنـي أن زوجهـا أرجـأ الموعد للصبـاح في مكتبه، ذلـك لأنه في اجتماع لن ينتهي قبل منتصف الليل. أُحبطت من إهماله لموعد قطعته معـه من بلد آخر، لكن سـرعان ما ضاع إحباطي فـي ألفة «نجلا» التي لـم تتوقف عن الحديث والضحك، في مطعـم أنيق يطل على الخليج المعتم الثقيل جلسنا نتناول السوشي، كانت تجربتي الأولى مع السمك النيئ، خيالي صور لي في السنوات السابقة أنني كامرأة تكره السمك، لـن أخاطر بمجرد دخـول مطعم يقدّم السوشـي، لكـن الواقع علّمني شـيئًا آخر، أن الخيال لا يكسب دائمًا. كان له تتبيلة مميزة ومذاق لاذع مع الأرز الملفوف والأعشاب البحرية، سلب عقلي.

بعـض التوتـر الطفيف بـدأ يظهر علـى «نجلا» التـي نهضت فجأة لترحـب بصديقة اقتربت منا، سـمعت حوارا هامسًـا بينهمـا، عبارات مبتورة بأكثر من معنى مثل «كان يجب أن أفعل..» «أعددت كل شيء..» «ينتظرون منذ مدة..» «لن يبقى الكثير..»، شغلت نفسي في هذه الأثناء بإرسال رسالة لـ«مازن» أخبرته فيها بتطورات الموقف، أرفقت الرسالة بصور للسوشي، أبدى سعادة وحماسًا كبيرين، أصبحت أنتظر عبارات الحماس والبهجة التي يبثها فيَّ لأتفه الأسـباب، بمجرد أن يشعر أنني سـعيدة، أو أنني بصدد تجربـة جديدة مهما كان حجمهـا. كنت كأنني أرى وجهـه متهلـلا ويديه تصفقان، للحظة تخيلته أبـي الذي تكتب له

«حُسن» الرسائل. اتصلت بزوجي وحاولت أن أستوعب جفاءه، كنت سعيدة فلففت غضبه بسلام ومحبّة. تماما مثل لفة الأعشاب الخضراء للسوشي اللاذع.

عندما عدت للفندق كنت قد فقدت مزاج الكتابة، لكن نشوة الغربة كانت تلازمني، فلم أشغل نفسي بأسئلة وأجوبة، لم أفلسف الأمور أو أرهق نفسي بأحاجي لا أعرف حلها، فضضت مظروفًا جديدا من رسائل أبي وشرعت في القراءة.

العزيز يحيى،،

لن أسألك «كيف حالك؟» السؤال يجب أن يكون «كيف حالي؟»، ليس لأنك حالي وكل هذه العبارات الرومانسية التي ترفضها، لكن لأنني يا «يحيى» لا أعرف كيف حالي، أحب طرقك المتعددة في الإجابة على نفس السؤال، الذي أعيده عليك دائمًا، وأنا أعرف أنك لن تمل أبدًا، والآن، كيف حالي؟ أشعر أنني أقترب من نفسي بقدر ما أبتعد عنك. وأعرف -كما قلت لي- أن من يبحث عن ذاته ويحاول الاقتراب منها هو إنسان تعيس، لأن الإنسان السوي لا يبحث عن السعادة أو التحقق، يعيش فحسب.

والآن، موعد العتاب، لم أسمع عنك منذ شهر! هل لأنني طلبت منك ألا تراسلني أو تهاتفني؟ أمازلت لا تعرف أن كل قراراتي بالبُعد أو الفراق هي مجرد اختبارات لقوة علاقتنا، لإرادتك في الاستمرار، لقدرتك على التمسك بي؟ أمازلت تُصر أن راحتي وسعادتي هما

أولوياتـك؟ لو كانت راحتي وسـعادتي أولوية عنـدك، لكنت اخترت القُرب، وضربت بغضبي ونزقي وتشتتي عرض أكبر حائط.

هذه المرة لم أنزح إلى البُعد مهابة ما تحمله لنا الأيام، أو ما يحتمه علينـا القـدر، أو غضبًا مـن محايدتـك وورماديتك، هذه المرة نشـدت البُعد حُزنًا، أنا التي لا يعنيني رأي أيًا كان في ما أكتب، أنا التي طردت الناقدة التي أزعجتني بوابل من النقد الأقرب للثرثرة في مناقشة روايتي السابقة، أنا التي لم أهتم بالمقال الذي كتبه ناقد في مجلة إبداع منتقدًا فيه الكتابة النسـوية وكتابتي بالأخص، أنا القوية، أقف الآن أمام نقدك لرواياتي منهارة.

«لم تجذبني الشـخصيات» بهذه البساطة! جملة من ثلاث كلمات تجعلني أبكي لثلاث ساعات ثم أدخل في دائرة مصمتة من حزني، ثم ضعفـي لأنني حزينة، ثم غضبي لأنني ضعيفـة، ثم ضيقي من غضبي، ثـم حزن..ثـم ضعف..ثـم غضب، لم يكن السـبب أننـي فقدت فجأة شـغفي بنص كنـت أكتبه منذ شـهور وبدأنـا صداقة جيـدة، لكن لأنـي فقـدت ثقـة القارئ الوحيـد الذي يعنينـي رأيه..يحييني رأيه. شـعرت أنني فجأة بلا سـلاح، أقـف كجندي أعزل في مواجهـة جيوش النقد، والحقد، والتجاهـل، والتعتيم، ورفض الأهل، ونبذ الكتابة النسـائية، وعادة تعطيل الكتابة التي تداهمني كل فترة فأعجز عن سطر جملة.

عندمـا أخبرتـك أنني بـدأت في كتابة روايـة جديدة لـم أتوقع ردة فعلـك، يومهـا درت حولي وحاوطتني بالفرح فـي كل زاوية لا أعرف

حتى الآن كيف لم أغص في صدرك، وقفت بعيدة عنك بنصف متر وأعطيتك امتناني عوضًا عن عناقي وطبعت شكري على كلمات بدلًا من أطبعه على شفتيك. ما دمت لا أستطيع عناقك بجسدي سأعانقك بكلماتي.

عندما أرسلت لك روايتي بعد عام من تشجيعك الجميل، لم أكن أنتظر غزلًا أو شعرًا في كتاباتي، كنت دائمًا ضد طبعك المجامل الذي يشعرني بالتوتر والعجز، لأنه يضعني في قائمة الغرباء، لكنني انتظرت منك حوارًا ومناقشة طويلة، أن تشرح لي نقاط الضعف والقوة، أن تحملني على محمل الجد ككاتبة، أو على محمل الود كصديقة، أو على محمل الاهتمام كتلميذة، أن تساعدني مساعدة حقيقية عوضًا عن جملة «أنت من يجب أن تساعدي نفسك» التي تلقيها عليّ مرارًا، كان هذا هو الوقت المناسب تمامًا لمساعدتك لي.

إن الجمل القصيرة تناسب تمامًا الأمور التي لا تستحق أن نضيع الوقت في الخوض فيها. هذا ما فعلته جملتك بي، لكني رغم ذلك لم أغضب منك أو أصب عليك انهزامي، شعوري الرهيب بالفشل يومها وبأنني أسوأ كاتبة على وجه الأرض، أو أنني لست بكاتبة جعلني أُصّر على أن أثبت لنفسي أنني مستقلة وقوية ومختلفة. أعرف أنك سترد عليَّ بكلام طويل، ستقول إنني قوية ومبدعة وأن رأيك ليس بمقياس وأنك لم تكن يوما حكمًا أو ناقدًا، وأنك دائمًا تشجعني.. وكل هذا الكلام، لكنني أخبرك اليوم أنك لست مضطرًا لتوضيح موقفك من

كتابتي، أنت حتى لم يكن لديك الجرأة لتوضح موقفك في ما هو أهم من الكتابة.

كان علـي أن أغلق كل الأبواب، حتـى أجمل باب على الإطلاق، بابـك، لأستعيد امـرأة قبلك كانـت تكتـب دون التفكير فـي ردة فعل أحـد، دون تخيل ملامح وجه أحد وهو يقرأ، جمعت كل ليالي الحُزن والخيبة والاحتيـاج في سـلة واحـدة وعلقتها خارج نافذتـي، أنت لا تعرف أبدًا شـعور الكاتب عندما ينكسـر قلمه، نستطيع أن نداوي كسر القلـب بالقلـم، لكن كيف نداوي كسـر القلم؟ كان علـيّ أن أكون هنا لنفسي.

بالأمـس انتهيت مـن كتابة الرواية ومراجعتها، ومنذ قليل سـلّمتها لدار النشـر، سـمّيتها «أنا هويت»، أعرف كم تحب هذه الأغنية، عندما تقرأها لا تبحث عنا بها، لأنني توقفت عن الكتابة عنك، لن تكون بطل كلماتـي، لن أحيل جسـدك الحبيـب وروحك القريبة لحبـر. لن أوثق وجودك الغريب في حياتي. أنت معاقب بعدم ذكرك بين حروفي.

أنتظـر صدور الرواية مع بداية الصيف، لكن ليس كما أنتظر موعد عودتك، أرجو أن أراك في إجازاتك القادمة مرات عديدة، أو حتى مرة واحـدة مثل الإجـازة الماضية، ليس لأهديك الروايـة التي لم تجذبك شخصياتها، لكن لألمسك، لأتأكد أنك حقيقي..أكثر من الرسائل.

حُسن

15

نجلا

فـي يوم جمعـت كل خواطري التي كنت ألقيهـا في نوادي الأدب بالمنصورة، وذهبت إلى القاهرة لأقدّم في مسـابقة للنشـر أعلنت عنها دار نشـر جديـدة فـي المجـلات الثقافيـة، كنـت طموحا يمشـي على الأرض. كاتبـة صغيرة في بداية الطريق، مؤسسـة جماعة الأدب بكلية التجـارة جامعـة المنصـورة، وحاصلة علـى المركـز الأول في القصة القصيرة في مسابقة قصر ثقافة المنصورة عام 1996م.

قدّمـت أحلامي بين دفتي كتاب لمدير النشـر الـذي نظر لي يومها من قمة شـعري لطـرف كعبي بوقاحة لم أعهدهـا، وطالت نظرته على الأماكـن المكتنزة في جسـدي، لم أخـف يومها، جلسـت أمامه واثقة لا أحـول نظرتي الجامدة عن عينيه الوقحتيـن، رحلت بعد أن أعلمني أن علـيَّ أن أنتظـر حتى تظهر نتيجة المسـابقة. بعد أقل من شـهر أتاني اتصال هاتفي منه يُعلمني أن عملي قُبِل للنشـر، كانت فرحة عارمة في البيت احتفل بي الأهل والأصدقاء وزملاء الأدب، كانت أسـعد ليالي حياتي.

لكـن ما حـدث بعدها لـم يكن كذلك، لـم أدرك أنني أقترب من الهاويـة، من الهلاك وليس من الحلم. اتفقنا على كل تفاصيل النشـر، وقّعت العقد في وجود أبي وبعدها دعانا «سيد» مدير النشر على الغداء في مطعم فاخر، كل شـيء أيامها كان مبهرًا، شعرت بعيني سيد تتبعان جسـدي فـي كل لحظة، كان يتقرب لي ومني بـكل الطرق، نفذ لي كل ما أردت في نشر الكتاب، الغلاف الذي صممته عند رسّام صديق لي، التصميـم الذي اخترته، لم يحرر لي الكتاب مثل باقي الفائزين، نشـره كما هو بدون زيادة أو نقصان.

كان يشـيد بي أكثر من اللازم، قدَّمني على كل زملاء النشـر وقتها، حتى بدأت أشعر بالخجل بينهم، ثم انتقل لمرحلة الغزل، مع أول صد مني فاجأني بطلب الزواج، وانعطفت حياتي بعدها للأبد. وافقت بعد أن طرق قلبي بكل الطرق، الورد، الرسـائل، الغـزل، الوعود الخلابة، المنزل الجميل، المستقبل الرائع. وجدت نفسي أحبه وأتنازل مع هذا الحب عن كل شـروطي والأماني فـي قصة حب تأخذني للسـحاب، اكتفيت بسحابات الكتابة ورضخت لرغبات الجسد المكبوتة ولإغراء الحياة المستقلة عن الأهل.

فـي بدايـة الـزواج كان يعطّلنـي عـن الكتابـة، ملأنـي باليأس من مبيعـات كتابـي المنخفضـة (التي اكتشـفت فيمـا بعد أنها تعـود لعدم توزيعـه للكتاب وإبقائـه في المخازن، بعد أن وجدني أشـرع في كتابة عمـل جديـد تدريجيًا أفهمني أنـه لا يريدني أن أنشـر، أخبرني أن هذا

المجال سَيِّئ السمعة للفتيات وأنني في مكانة عالية الآن لا تسمح لي بأن أنضم لركب النشر، ثم إن مسؤوليتي زادت خاصة بعد الحمل، فلا داعي للكتابة.

بهذه البساطة، توقفت عن الكتابة تزامنًا مع سفرنا للإمارات، وإن كنت لم أتوقف عن تدوين مشاعري، أول صفعة منه، أول إساءة، أول قهر، أول إهمال، أول خيانة، منحني التدوين الصبر، أفرغت فيه جم غضبي لأستطيع مواصلة الحياة، لكني توقفت عنه عندما أصاب أحلامي العطب. بعد أعوام طويلة من التعب والملل فتح لي «سيد» بازارًا لأسلي نفسي بإدارته، واشترى لي سيارة لأباشر عملي الجديد وأنشغل بمشاوير الأولاد والبيت. ومع ذلك لم أنس إهاناته الدائمة لي. عشت حياة خالية من الحياة، مجرد نبض وأنفاس، شيء ظل يؤرقني ويمنعني من النوم طوال هذه السنوات، بقايا كرامة مجروحة، قبس نور من أحلامي البعيدة، البسيطة في حياة يعمها السلام..السلام فقط. في العام الأخير ظهرت العلامات التي طالما انتظرتها.

هجر سريرنا نهائيًا، مع كل مشكلة بدأ يأخذ مني مفاتيح البازار والسيارة، يفرض عليّ المكوث في المنزل، أو استخدام المواصلات العامة، بدأ يعاقبني، يخبئ أغراضي، يمتنع عن إعطائي مصروف البيت، يتحدث على هاتفه محادثات غرامية مع النساء علنًا أمامي، يوجه لي إهانات ونقدًا لاذعًا أمام الأبناء، ثم بدأ يختفي ويعود كالعاصفة، وكنت أصمت، الرجال لا يعرفون معنى الصمت أبدًا.

عندمـا عدت يومًا إلى البيت بعد مشـكلة كبيرة بيننا، وجدت قطعًا من ثيابي في الشـارع، وجدت قطتي ميتة على بلاط المطبخ، بجوارها طعام مسـمم، وجدت نباتاتي مُمزقة، وجدت حاسوبي النقال مكسور على الأرض. ورسالة منه تقول «أنا صنعتك..وهذا ثمن تمردك علي» عرفت أن هذه هي النهاية.

بـدأت فـي تنفيذ خطتـي منذ أربعة أشـهر، وإن كنـت خططت لها وتخيلتهـا منذ سـنوات، كنت أخشـى أن أفقـد عزمي فـي الطريق، أن تتخلى عني شـجاعتي، وأضعف أمام اسـتقرار الأبناء. كنت أعرف أن ثمن التحرر هو أن أخسـر كل شـيء، أترك كل المفاتيح كأني لم أخط خطـوة واحدة في الحياة، أبدأ وأنا في الأربعين كأني فتاة عشـرينية، لا تملـك إلا قلبًا ينبض وبضعة أحلام، بمدخراتي الشـخصية اشـتريت سـيارة مسـتعملة، اسـتغللت علاقاتي وبعـض المقـالات الاجتماعية التي كنت أنشرها في السر وتقدمت للعمل كمحررة بمؤسسة للتدوين النسـائي. اتفقـت علـى إيجار شـقة صغيرة فـي حي بعيـد لكنه محاط بالأشـجار والحدائق والحيـاة الحلوة. اتفقت مع الأبنـاء على مغادرة المنزل معي، اتفقت مع المحامي والمعالجة النفسية والأهل في مصر والأصدقـاء المخلصين فـي دبي، لم يكن الأمر سـهلا، قطعت الكثير من أشواط التخلّي، حتى رتبت كل شيء. انتظرت أنسب وقت للتنفيذ الكلي قبل بدء الدراسة، حيث لن يتبقى إلا عدة أيام على استلام الشقة قررت أن أقضيهم في فندق احتفالًا بحريتي.

16

لـم يكن مـن الصعب تدوير محركات البحث لإيجاد رواية باسـم «أنـا هويت»، رواية من إصدار عام 1991م، غلافها رسـمة يدوية لوجه امـرأة جميلة لها نظرة إغواء وفي الخلفية امرأة تقف على هاوية، وظل رجل، اسـم الكاتبة «حُسـن سـالم» ولها تعريف بسـيط علـى الغلاف الخلفـي، بأنهـا خريجـة كليـة الآداب وحاصلـة علـى ماجيسـتير فـي الأدب الإنجليـزي، تعمـل مديـرة مكتبة مصـر الجديدة، لهـا روايتان سـابقتان ومجموعة قصصية. مقـالات عديدة كُتبت عن الرواية أغلبها استحسان، عرفت أنها مازالت تكتب وتعيش في لندن، نشرت العديد مـن الروايـات وحصلـت علـى عدة جوائـز مـن أوروبا علـى أعمالها المترجمة.

لم تُظهر محركات البحث شيئًا عن حياتها الشخصية، مجرد صور فـي حفلات ونـدوات عديدة، معظمها في أوروبـا، لكني عندما رأيت صورتها وهي شابة عرفتها، كانت مع أبي في صورة واحدة احتفظ بها ضمـن ألبوم قديم به صوره مع العديد مـن الأصدقاء والصديقات، لم يخصّها بنظرة مختلفة رغم ما بينهما، لكن بدت سـعادة على وجهيهما ربمـا أكثر من باقي الصور، كان لها وجه بالـغ الرقّة والثقة، قليلة القد،

تقـف جوار أبي فيسـبقها بشـبرين. كانت جميلة كذلـك وهي بخصل شعر بيضاء ومازالت نظرة الثقة تعلو وجهها.

كنـت أتنـاول الإفطار سـعيدة، مُدللـة بوحدتي، أقارن بين نفسـي الآن ومنـذ أقـل من شـهر وأنا أتنـاول فطوري في الجماليـة، هل كنت أنا؟. السـفر يجلـي الروح ويعيد عليها الذكريـات ببريق أخاذ، فيصبح اسـتيعابها أوضـح وأسـهل، كنـت أفكر في أبـي وعلاقته بـ «حُسـن»، باحتماليـة وجوده في دبي وكيفية الوصول له، حتى لاحت لي «نجلا» وهي على مائدة قريبة تتناول فطورها مع صديقة أخرى، تبادلنا ابتسامة فنادت عليّ للمشـاركة، عندما جلست إليهما عرفت أنها أقامت بنفس الفندق ليلة أمس.

مـن حوارها مع صديقتهـا عرفت أيضًا أن ثمة أمـورا ضد الروتين الطبيعـي للحيـاة تحدث معها، كانـت تبدو غير متحفظـة في حوارها، كأنهـا تريد أن تشـركني فيه، رغم أن عمـر معرفتنا يوم واحد، حوارات النساء عادة لا تتطلب العمر الطويل لكن تتطلب الاستماع والإحساس، التوقيـت كان غريبًـا، ووجودهـا في نفـس الفندق أغـرب، لا تغفر لها عفويتهـا غرابـة طريقتهـا فـي إرغامـي للمشـاركة، فجـأة التفتـت إليّ مباشرة، وحكت لي حكاية لم أتوقعها، على الأقل في هذا الوقت.

***

كانـت أمـي تصرخ: «لمـاذا لا أذهب معك للنـدوات؟»، فيبدأ في شرح طويل ينهيه بإذعان قائلًا «تعالي»، ترتدي أبهى ثيابها، تتزوق مثل عـروس وترافقـه، كنت أنتظرهما فـي نافذة البيت، أكتـب لهما العديد من الخطابات القصيرة وألصـق أوراق الملحوظات الصفراء الممتلئة بالحب على كل ما تطاله عيونهما.

عندما يعودان. يفاجئني وجه أبي الجامد، يدخل غرفته سريعًا بينما أمـي تنهار على الكنبة وتدخل في نوبـة عويل وصريخ «أنت لا تحبني ولا تحترمني كيف تتحدث مع النسـاء وتتركني وحدي؟!» «ومن تلك المـرأة التي سـلمت عليها ولم تُعرّفني بها؟» «والفتـاة التي تكبر ابنتك بقليل التي كانت تضحك معك» «هذا المجال القذر الذي تصر عليه يا أسـتاذ التاريخ يا محترم» «كل من فيه عاهرات وأبناء شـوارع» «طلقني حالًا لن أكون على ذمة دون مثلك يوما واحدا».

تعيـد الكرة مرات ومـرات، وأبي صامت لا رد واحـد يبرد نارها، صمتـه كان يقتلنـي أنا، ويؤكد لي كلامها، كنت أنا من أنتظره أن ينطق، أن يبرر لي تصرفاته ويؤكد أنه لم يفضل النساء عن أمي..عنّا.

كنت أسـتعيد جزءًا من حياتي بينما أنتظر «نجلا» التي توقفت عن حديثهـا لتـرد علـى اتصال، كنـا نجلس في ركـن صغير ببهـو الفندق، سألتها: لماذا؟

قالت: ربما خسـرت لكنني ربحت شـيئًا أهم من سعادتي وسعادة أبنائي.

صمتت برهة، عُدت لأسأل باهتمام: وماذا أهم من السعادة؟

- ربحت مقدرتي على اتخاذ القرار.

تذكرت أن آخر قرار مصيري اتخذته، كان موافقتي على الخطبة من زوجي، ثم دخلت في دوامة وهم اتخاذ القرارات، على أمور لم أقررها أبدًا. قلت:

- هذه مجازفة، ليست مهارة.

- كان عليّ أن أختار.

- ماذا لو سقطتِ للأبد؟

- وماذا لو نجوت؟

- لكنك لن تسقطي وحدك، معك فتى وفتاة. أبوهما سيتخلى عنهما. هذا حال معظم الآباء في الانفصال الآن. النذالة.

- وما حاجتي إلى رجل نذل؟ إن لم يخذلني بنذالته في الانفصال سيخذلني بها في المرض والضيق، والهِرم، وكل يوم.

أنا القديمة كانت ستدور في محركات البحث وتوجه شاشة هاتفها لـ «نجلا» وتقول «نسب الطلاق في مصر تخطت الـ 40٪.. الأمر مرعب. قرار خطير وصعب وليس في مصلحة الأبناء» كان هذا قبل لقائي بـ «عزة» التي كشفت لي مرارة ادعائي. كنت دائمًا ألعب هذا الدور في العمل، عندما تشكو زميلة لنا من مشاكل عائلية أقوم أنا

بالتوعية والإحاطة بمشاكل الطلاق وأثره السيئ، كنت أفعل هذا بدافع الخوف، الخوف من أن أستمع إلى صوت عقلي الذي شوشت عليه بكل هذه الادعاءات. والرعب من فكرة الانفصال والمضي في الحياة وحدي بثلاثة أطفال وبلا عاطفة أستند إليها.

- لكن أنا وحدي فعلا.

نـدت عني الجملة دون تفكير، كأنها تسربت من العقل في غفوة زمنية، ردت عليَّ «نجلا»:

- أنا أيضًا كنت وحدي طوال الوقت، وأسوأ أوقات الوحدة هي التي يتواجد بها جواري.

- هذا قرار صعب ومصيري.

- لأنه مصيري كان عليّ أن أختار ولو لمرة واحدة، أختار ما يمكن أن تصنعه يدي، أن تصبح أموري رهن إرادتي أنا. الرجل الذي لا يستطيع أن يشارك ويحب ويعطي بدون أسباب وبدون انتظار مقابل، لا يستحق أن أرهن مصيري به.

- نعم، لن تنجح الشركة بمثل هذا الرجل.

ضحكت «نجلا»: سيفشل المشروع ويضيع رأس المال.

«ليلى»، الزواج ليس مشروعًا أو شركة، لا يقوم على اعتبارات مالية وعطاءات، ولا يسقط كيانه بالخسارة، هو أقرب للشراكة التي تقوم على الثقة والتبادل وتسقط بالغياب والتخلي.

- لو سألتك لماذا حكيت لي أدق تفاصيل ما تمرين به ونحن معرفة الأمس فقط، هل سيغضبك سؤالي؟

- أحيانًا نميل إلى استشارة الغرباء.

- لكنك لا تستشيريني. أنت حققت أهم إنجاز في حياتك ولا تحتاجين بعده رأي أحد. اتخذت القرار.

نظرت لي بشيء من التردد، نفضت عن رأسها خاطرا كان سيبدأ في النقر والوسوسة، قالت بوجه واثق:

-أرى أنك تأخرت على موعدك. اذهبي واسمحي لي أن نتناول العشاء سويًا.

غادرت بصعوبة، كنت قد نسيت لبضع ساعات سبب وجودي الأساسي في دبي، استغرقتني هذه القصة التي بدت مكررة كمسلسل مُعاد يجذبنا لمشاهدته كل مرة، لكنها مع ذلك حرّكت شيئًا كامنًا فيّ. في مرآة الحمام وقفت أبحث عن امرأة كنتها، أصبحت أرى صورتي كأنني شخص لا أنتمي له.

في الدور الحادي عشر من مبنى تجاري ضخم، بواجهة فاخرة من المرايات عاكسة الضوء، استقبلني سيد في مقر دار النشر التي يديرها. كان يبدو كموظف أقرب منه لناشر، بثيابه ذات الطابع القديم، أصلع الرأس، بجسد نصف ممتلئ، ذقن خفيفة وعينين واسعتين. بدا وكأنه غير عابئ بكل ما يحدث في حياته الشخصية، سألته عن أبي،

أجاب باقتضاب أنه كان هنا منذ أسبوع واستلم منه كل حقوقه المادية المتأخرة.

لـم تكن هذه الإجابة هي ما انتظرته بعد سفري مـن بلد إلى آخر، حدسـت أنه رجل يكره التفاصيل، لكنه يحب النقاط المحددة، بدأت أسأله على شكل نقاط عن الموعد بالضبط، مكان المقابلة وتفاصيلها، ثم طلبت منه صورًا للشـيكات المسـتحقة، أجابني بـأن أبي أصر على اسـتلام مسـتحقاته نقدًا، فطلبت صورًا من إيصالات الاستلام، أو أي ورقـة طبع عليها إمضـاءه في الزيارة الأخيـرة. أطلعني على إيصالات باسـتلام مبالـغ نقديـة مؤرَّخـة منذ شـهر مضـى، كان إمضـاء أبي غير مُؤرخ، تذكرت فجأة أنني لا أعرف شكل إمضائه.

بعد وقت قليل اعتذر مني واستأذن للانصراف بحجة موعد في دار الكتـب، كنت قد التقطت صورة للإيصال، وقفت في قاعة الاسـتقبال أُرسـل الصـورة لـ «مـازن» لعله يتعرف علـى توقيع أبـي. أثناء وقوفي تنامـى إلـى سـمعي حديث موظـف لآخر، يقـول: كل هـذه المواعيد وجداول العمل ومسـتر «سـيد» عائد لتوه من السـفر!، لمـاذا لم يأخذ إجازة يسـتريح ويُريح؟، انتفضت في حركة عصبية وباغتُّ الموظفين بسـؤالهما عمّـا إذا كان مديرهمـا كان في رحلة سـفر الأيـام الماضية. أجابنـي أحدهمـا بالموافقـة والآخـر اعتذر منـي بأنه ليـس مخولا له الحديث عن خط سير مديره.

ارتبكت أفكاري لوهلة، اتصلت بـ «نجلا» لأتأكد منها من معلومة سفر «سيد» في الأسابيع الأخيرة، أخبرتني أنها في الأسابيع الأخيرة لم تره، إنما كان يتصل بها لإبلاغها ببعض الأمور مثل استقبالي في المطار، لم تعرف إذا كان قد سافر بالفعل كما أخبر الأبناء أم أنه كان غائبًا على إثر نزوة غرامية، قالت: في الحقيقة يا «ليلى» توقفنا منذ سنوات عن سؤال بعضنا أين كنا أو ماذا فعلنا. حتى اتصالاتنا القليلة على الماسنجر وليس خطوط الاتصالات العادية، لا أستطيع أن أجزم بوجوده في دبي من عدمه.

ثم استكملت بعد برهة صمت: بإمكانك أن تسألي عن والدك في السفارة غدًا صباحًا.

17

كأنني عُدت إلى مصر. موظفون بوجوه مصرية مرهقة، سواعد مجهدة رغم القفشات والضحك الصباحي الطازج، أطباق الفول المعدنية وأكواب الشاي الزجاجية الصغيرة تلف في صوانٍ بين الردهات، رائحة الباذنجان والطعمية تنتشر في أركان الطوابق، النميمة على أعتاب السلالم، والتدخين في النوافذ الجانبية للطرقات، حتى الروتين والتنقل بين الغرف والأدوار والمباني، والانتظار غير المبرر على مكاتب خالية إلّا من أكواب الشاي الدافئة التي تقول أن ثمة شخصًا موجودا رغم غيابه.

بعد ساعات من التنقل والانتظار، وجدته أخيرًا، الرجل المصري الذي تنشق عنه الأرض فجأة، لينجز كل شيء بكفاءة ودقة، في أسرع وقت، وبدون مقابل. بعد أن اقتادني إلى عدة غرف وقام بعدة اتصالات، أخبرني أنه سيعلمني عن موعد وصول أبي ومغادرته دبي في أقرب وقت بعد أن ترد عليه شركات الطيران المعنية، طلب مني العودة إلى الفندق لأن الرد قد يطول انتظاره. قبل أن أستقل سيارة أجرة اتصلت بي «نجلا» تخبرني أنها في الطريق إليّ لاصطحابي في مشوار صغير قبل العودة إلى الفندق.

بعد ربع ساعة وصلت «نجلا» في سيارة زرقاء صغيرة غير تلك الفارهة التي استقبلتني بها في المطار قبل يومين، قالت: تركتها له، ضمن المفاتيح. توجهنا من خلال طريق صحراوي خال إلا من بعض المولات التجارية، إلى بيت «نجلا» الجديد. قالت: الاستلام بعد غد، لكنني أردت أن أريك إياه اليوم.

دخلنا مجمعا سكنيّا شديد البهاء، حدائق واسعة وأشجار تحد البيوت والأسوار، شتلات من الزهور في كل ميدان صغير، تعجبت من وجود زرع بهذه الكثافة والتنوع في بيئة صحراوية وقيظ لا يُحتمل، قالت «نجلا»: كله هجين، شتلات لزهور وحشائش وأشجار مصنّعة خصيصًا لتحمي البيئة هنا..دبي كلها بلد مصنّع.

تخطينا منطقة الفيلات ووصلنا لمبان رخامية الواجهة مكونة من عدة طوابق، حرارة الجو جعلت من ألوان الرخام والزرع والزهور في زهاء قطع الكريستال ونقاوتها، صَفَّت سيارتها تحت مظلة قريبة وصعدنا إلى الدور الثاني حيث شقتها، أخبرتني أن بعض الجيران من لبنان وتونس ومصر، «كل العمائر والشقق مسكونة من موظفين عرب..لكن الفيلات لرؤساء مجالس إدارات ومديري شركات»

منزل بسيط بجدران بيضاء، به قطع قليلة من الأثاث، أريكتان حمراوان وعدة كراسي زرقاء بوسائد صفراء، مكتبة على شكل خطوط متعرجة، أخذت الأرفف المائلة حائطًا بأكمله، بعض اللوحات المنشورة على الحوائط تشير جميعها إلى التحرر والبهجة والدفء،

وسـائد علـى الأركان وقطـع صغيرة مـن الكليم المنقـوش. في زاوية كانت هناك مائدة دائرية حولها عدة كراسـي خشـبية بسـيطة التصميم، علـى الحائط تسـتند مائدة مسـتطيلة طويلة، عليها أنواع وأشـكال من علب القهوة وأكواب ممتلئة بأكياس السكر البنّي، فوقها حامل أكواب قهـوة فخاريـة وزجاجيـة، وصـور لفناجين قهـوة ومقاهٍ غربيـة، قالت «نجلا»: «هذا ركن القهوة..كم حلمت به!»

قالـت: «هنـا أحقـق كل أحلامـي وكل مـا عجزت عـن تحقيقه». شدتني من يدي كأننا مراهقتان، ودخلنا غرفة صغيرة ممتلئة بالشمس، أريكة زرقاء طويلة، مكتب أبيض بسـيط التصميم بكرسي دوار وردي فاتح، مكتبة صغيرة بلون الخشب مكتظة بالكتب، «هذا مكتب العمل.. سـأقوم بعملي من المنزل في أغلب الأيام، تماما كما حلمت به وكنت أحتفظ بصور أماكن مشابهة منذ سنوات طويلة».

مـن درج المكتـب أخرجـت ملـف ورق و«فلاشـاية»، قالت: هنا أحتفـظ بـكل مسـتندات الفـراق. كل الأوراق التي دونتها وأنـا أفكِّر، أحلـل، وأسـرد أدق تفاصيـل علاقتنـا. أوراق أخـرى تضـم تواريـخ ووثائق وأدلة تؤيد قراري. من ضمنها محاضر ضرب وشـهادات طبية كنت أقوم بها سـرًا، في الفلاشـة صـور محادثاته مـع الفتيات، وصور الكدمات والسـحاجات التي أصابتني من يديه. كل شيء هنا لأوثق به لنفسي ولأولادي أسباب اتخاذ القرار.

الشقة كانت صغيرة، خالية من القطع الثمينة والخزانات والأجهزة، غـرف النـوم كانـت علـى نفـس وتيـرة البسـاطة والألـوان والأحلام المتجسدة على شكل قطع خشبية تنبض بالحياة، إضاءات كأنها أقمار صغيرة، أسقف كأنها السماء، نوافذ كأنها شرفات تطل على العالم، أو يطل العالم عليها، قالت «نجلا»:

- أنـتِ لـن تعرفـي أبدًا معنـى أن تصنعـي عالمًا بكاملـه باختيارك وإرادتك.

تذكـرت يـوم أن كنت أقف في معرض الأثـاث مع زوجي ووالدته وأختـه، أوافـق علـى ما يجمعـون عليـه، أُريـد أن أتمم الـزواج بدون خلافـات مادية كما كنـت أرى في معظم الزيجات آنـذاك، أريد عالمًا جديـدًا وبيتا جديدًا، ولا أود أن أقترب مما قد يعطلني عن ذلك. حتى شـقة الدوحة التي أصررت على فرشـها، فاجأني هو بشراء أثاثها على ذوقه، كنت أُحب ذوقه، لكنه في النهاية لا يشبهني أو يمثلني.

- كم من المرات التي أعلن فيها أنني ضيفة في بيتي، مع كل خلاف. أنـا حتى لم أكـن لأسـتطيع إضافة قطع جديـدة للمنزل ولا اسـتغلال أي شـبر فيـه بـدون العودة له، وغالبًـا يرفض أو يسـخر، أو يتنصل من مشاركتي في شـرائه. أنتِ لم تجربي أبدًا أن تئدي رغبتك في التجديد والشراء، لأن شيئًا فيك يلح بقول: «هذا المكان لا يخصك..ستتركينه يومًا ما».

- أنا سعيدة لأجلك يا «نجلا». أنك وجدت نفسك هنا وستعيشين في بيت تنتمين له.

تعانقنا، وكنساء مصريات، بكينا على أكتاف بعضنا. بكاء الحزن، والفرحة، والصدق.

***

هذه المرأة تجعلني أفكّر في نفسي، رغم أن حياتي لا تشبهها، كأني أقرأ رواية، تشغلني فيها البطلة، أهتم بمصيرها وأتعاطف معها، حتى لو كانت لا تشبهني. غريب أن تشعر بالورق يتجسد أمامك على هيئة بشر، أتساءل، ما الذي يجعل امرأة تتخلى عن حياتها بعد هذا المشوار الطويل من البناء والتحمّل والتكيّف؟ هل أرادت أن تجرّب؟ حتى لو كان ثمن هذه التجربة الفشل والضياع.

لكنها لم تكن ضائعة، كانت تبدو كمن وجد خريطة نفسه، عمل تحبه، بيت تحبه، حياة تحبها. حاولت تذكّر كم مرة في حياتي اتخذت قرارا، واكتشفت أنني لم أتخذ قرارًا فارقًا في حياتي. كنت أقضي عمري كدجاجة تنبش في الأرض، تبحث عن الدود، تطعم الصغار، تسوي ريشها، تتحمل مسئولية كل شيء، لا أنا طير حر بلا مسئوليات، ولا أنا عصفور زينة مدلل بلا حرية، الدجاجات لا تتخذ القرارات، ترقد في هدوء، أو تنقنق بلا هدف، من المؤسف أن القرار الوحيد الذي اتخذته في حياتي، هو أن أكون دجاجة.

تكشف لي الكتابة مناطق العتمة في نفسي وفي نفوس من حولي، اكتشفت أن الخداع لم يكن أبدًا من الصفات السوداء الخالصة، الخداع ليس نذالة دائمًا، هذه المرأة عاشت أعوامًا وهي تخطط وتدبر

للرحيـل، كان يجـب أن تخدع معذّبها، الخداع لأجـل الحرية، إن كل الثـورات قامت على الخداع بغرض التحرر. كل الثورات كانت تسـير في طريق الإنسانية ومع ذلك دهست تحت أقدامها الطغاة بلا إنسانية، إنه الخداع الأبيض.

***

الســاعة التاســعة والنصف مســاء، في دبـي، أتاني الاتصــال الذي أنتظـره من مسـئول السـفارة المصرية، أخبرني أن أبي لم يدرج اسـمه ضمن أي من رحلات الوصول أو المغادرة للإمارات في الثلاثة أشهر الأخيرة.

18

ليس بابا فقط من اختفى، أشياء فيَّ اختفت أيضًا، أفتقدها وأحتاجها وأعجز عن الرجوع إليها. أشعر أنني أمر بانعطافة كبيرة في حياتي، ولا أعرف ما ينتظرني في نهاية المنعطف، أريد أن أقرر شيئا لا أعرفه، شيئًا متعلقًا بغياب روحي. حياتي القديمة نفدت بطاريتها، لا أملك القدرة على شحن جسدي وقلبي من جديد. من قال إننا نرى بفعل المعرفة، كلما عرفت شعرت بالضباب يتكاثف حولي.

أخي أيضًا اختفى، قابلني في المطار بمشاعر جوفاء، جلده يبرق، شعره يبرق، ثيابه تبرق، لكن عينيه فقدت بريقها، جسده الفتي فقد الكثير من قوته وبقي نحيفًا، رياضيًّا بغير زهو الصحة. هل كان السبب بابا؟ كانت علاقتهما دائمًا على الحياد، في السنوات الأخيرة تقاربا، لدرجة أنني كنت أطمئن على بابا من خلاله، لكن ورغم كآبة الموقف، ويأسنا من العثور عليه، وعجز أخي المكبّل بسفره، أعرف أن غياب بابا لم يكن هو سبب ذبول أخي.

في مرات قليلة تقابلنا قبل عودته لكندا، لمست معاناته الحقيقية من الغربة، هذا النوع من الرهب الذي يجعله في حنين دائم للوطن

والأهل. الوطن نفسه الذي طالما تذمر من طرقه وناسه والحياة فيه. يظهر بين حكيه كم يتضور جوعًا للعيش فيه الآن. غير أنه ينظر للأمر كنوع من المستحيل. وهذا ما يزيد وجعه، الأشياء البعيدة مهما كانت قبيحة لها سحرها. وهو ينظر لمصر بشكل أكثر عمقًا وحنانًا من نظرة رجل لحبيبته القديمة، هي مازالت أمام عينيه حبيبة معاتبة تنظر لرجل جذبه إغواء أخرى. الأشياء التي لا نستطيع اقتلاعها من القلب تؤلمنا في البُعد أكثر من القُرب. أما أسرته فكانوا يعدّون الأيام ليعودوا إلى ديارهم وحياتهم في الغربة.

زوجي أيضًا اختفى، أو أنه مختف منذ زمن لكن روتينية الحياة حالت بيني وبين الشعور باختفائه. أنا حتى لا أذكر نُطق اسمي بصوته، كم تمنيت لو كنا أصدقاء، لو كانت بيننا شراكة وليس شركة فقط، تنصله من الاقتراب النفسي مني يقف حائلًا بيني وبينه، بيني وبين نفسي، وبيني وبين الناس.

«مازن» أيضًا اختفى، اتصالاته النادرة، رسائله القليلة، حضوره الباهت، لا أنكر أن قلّة حواراتنا أثّرت على مزاجي العام، أصبحت أكثر عصبية وقلقا، لكنني وجهت قلقي غير المبرر في المزيد من الانخراط في الحياة وقراءة كتب بابا. كنت أشعر خلال قراءاتي وحتى مشاويري العادية، بشيء من الإلهام، زرعات صغيرة تنبت تحت خطواتي، وفي قلبي، تمتد في عروقي، فتمنع عني الوحشة رغم كل هذا الاختفاء والفقد.

أصبح «سيد عفيفي» هو مصدر الشك عندي في اختفاء أبي، كذبته عليّ لا بد أن وراءها قصة، كان لابد أن أنزل مصر قبل أن أعرفها، يوم أوصلتني «نجلا» للمطار أخبرتني أن زوجها نصّاب كبير كما سمعت وقرأت العديد من اتهامات الكتّاب له، وأنها كانت بصدد سرقة أوراق تفيد بإقامته لشركة نشر وهمية في مصر، عقود مزورة وشيكات مزورة، ليصبح معها صك إدانته فتستطيع الدفاع عن نفسها ومساومته وقت اللزوم، غير أنها لم تعرف من بإمكانه أن يقوم بهذه المهمة ويسرق الأوراق من مكتبه بمصر. فتوقفت خطتها مؤقتا.

كان الوقت ليلًا، الأطفال نائمون وأنا يُعييني الأرق، قلقة وغاضبة من كل ما مر بي، وصلتني رسالة على الفيسبوك من «ندى عصام»، صور بخاصية «السكرين شوت» لمحادثة بينها وبين «مازن» يتودد فيها إليها بشكل غير مباشر، يعطيها نصائح للنشر، يتحدثان عن أبي بشكل موارب، غموض له معنى، أن بينهما سرا يخص أبي. حظرتني بعد إرسالها للصور. لا أعرف ما الذي زاد هياجي وجنوني في هذه الليلة، هل لأنه يتودد لها بعد أن كان يحدثني عنها على أنها من كوارث الوسط الأدبي، أم لأنه أصبح محل شكّي. إن أصعب شك في الوجود هو الذي يصيب مصدر ثقتك.

***

تركت الأولاد في أحد الحدائق وعيونهم مازالت معلقة بأجهزتهم الذكية، وذهبت لأتمشى في النادي لأفرغ عقلي قليلًا من توتره، في

المعرض وبدون ترتيب خطرت في بالي خطة، تحديدًا عندما وجدت «عـزّة» أمامي، كانت تقف أمـام بضاعة «ورد»، بدت بمظهر أفضل من آخـر لقاء لنا، كانت تتناول غداءها من طبق كشـري بلاسـتيكي عندما رأتنـي، أقبلت عليهـا بمودة غريبة وضممتها كما لم أتوقع من نفسـي، الغريـب أنها بادلتنـي المودة بأكثر منهـا. أعطتني رقـم هاتفها الجديد واتفقنا على مقابلة بعد ساعات عملها.

في المساء كانت خطتي قد استوت في رأسي، ذهبت لمقابلتها في النـادي، هناك طلبـت منها أغرب طلب لم أتوقـع أن أطلبه في حياتي، طلبـت منهـا أن تسـرق الأوراق التـي تديـن «سـيد عفيفـي» وتعطيني إياها.

قالت: الآن! اخترت أسوأ وقت لتطلبي مني مثل هذا الطلب.

- الأمـر طـارئ يا «عزة»، هذا الرجل له يد فـي اختفاء أبي، كما أنه نصّاب وأذى العديد من الناس.

- تقصديـن أن هـذا الورق سيسـاعد من نصب عليهم لاسـترجاع حقوقهم؟

- على الأقل سيكون ورقة ضغط عليه حتى لا يعاود نصبه. وحتى يصدق معي ويدلني على مكان أبي.

- أنـت لا تعرفيـن مـا حدث لـي في الشـهر الماضـي. احتجزتني النيابة خمسـة عشر يوما، لم أخرج إلا عندما اتفقت «ورد» مع المتقدم بالبـلاغ ضدي لسـحبه وتم الصلح. أمضيت أسـوأ أيـام حياتي هناك،

لأول مرة أشعر بأنني بلا ثمن، تخلى عني كل من عملت معهم وكل من ساعدتهم. عندما خرجت كنت كقطعة قماش قذرة يقرف الناس من لمسها. كلامك عن سمعتي بدأ يتحقق أمام عيني. من يومها وأنا لا أفارق «ورد»، هي الوحيدة التي وقفت إلى جواري وشعرت بعطفها، الآن أنا أعمل وأكسب وأحاول ألا أفكر في طريقي القديم، والآن تريدينني أن أسرق!

- سرقة اللصوص عمل شريف.

- أنا لست بطلة لأقوم بهذا.

- بل أنت كذلك.

- بإمكانك أن تطلبي مني أي شيء. إلّا السرقة.

تركتها وأنا مذهولة من تبادل الأدوار الذي حدث بيننا، لهذه الدرجة عطب تفكيري، كنت كمن يسلك ممرا معتما اخترته دونًا عن كل ممرات حياتي، لم أعد أعرف أين يمكن أن أضع قدمي، أصابني شك زلزل كياني، قوة من الشر ملأت عروقي، كفر عميق بكل قيمي، كنت محتاجة لشيء واحد يقيني يعيد لي الأمان حتى أستعيد قدرتي على التفكير. الإنسان الوحيد الذي كنت موقنة بصدقه أصبح داخل زنزانة الشك.

19

لم أستطع أن أتحكم بنفسي أكثر، كان «مازن» قد أرسل لي رسائل عديـدة من الأمس، واتصل بـي مرتين، دون رد مني، لكن مع رسـالته الأخيرة رددت عليه بإرسـال الصور التي أرسـلتها لي «ندى»، رد فعله الهادئ أربكني. كتب:

«امـرأة غريبة الأطوار ترسـل لك مثل هذا العبـث فتصدقينها. ولا تردين عليّ؟

كنـت أتمنى أن تكوني أكثر ثقة ووعيا بنفسـك حتى لا تصدقي كل ما ترينه».

زاد ارتباكي من جملته، أتت على موضع ألمي تمامًا، صمتُّ صمتًا طويلًا. فإذا به يتصل بي على الهاتف.

- «ليلى».. لا داعي لأن تقلقي من كل شيء حولك. فقط عليك أن تؤمني بحدسك وتستخدمي وعيك.

- أنت بالذات لم أتوقع منك أن تخفي عني شيئًا متعلقًا بأبي.

- ألا تعرفيـن أن هنـاك طرقًا كثيرة لصناعة صـور مفبركة مثل هذه التي أرسلتها لي؟

ألـم تلفت نظـرك الصور المفبركـة التي تملأ الفيـس بوك ليقتص الناس من الفنانين والسياسيين ومن بعضهم؟

قلت بعد برهة صمت: أنا آسفة.

- لا تعتـذري يـا «ليلى». أرجو أن تواجهينـي دائمًا فهذا أفضل من أن تشكي في.

- أنا آسفة يا «مازن».

وبصوت مخنوق بالدموع: كنت أفتقدك.

قال بعد صمت: تحدثي معي في أي وقت وكل وقت. لا سبب لأن تفتقديني وأنا هنا.

لا أدري لمـاذا أخبرتـه بالافتقاد، شـعرت بالحـرج لأنني وضعت نفسـي وإيـاه في هـذا الموقف، لـم أتصور أن يبلغ بي التشـتت للشـك بكل شـيء ولفقد ثقتـي بالرجل الوحيد الذي يسـاعدني ليس فقط في البحث عن بابا لكن في البحث عني، وماذا لو كان يعرف «ندى»؟ ماذا يضيرنـي في هـذا؟ كان يجب أن أصدقه هذه المـرة على الأقل، يجب أن نصدّق ولو شخصًا واحدًا في هذا العالم.

في المسـاء قررت أن أتصل به لأصالحه بشـكل غير مباشـر. كان هادئـًا، متحفظًا، مجاملًا، كعادته. بعد السـلامات اللطيفة، وحكاياتي العشـوائية عن دبي و«نجلا» وأولادي، وقراءاتي. شـعرت أنه لـم يكن متحمسًـا كثيرًا كعهدي به عندما أحكي له عن أي شـيء، شعرت بهذه

الشـعرة بيـن التحفظ المقصود والتحفظ التلقائـي وهي تميل قليلًا في اتجـاه جدّية كرهتها. قال إنه يود أن يخبرني بشـيء هام، كلامه أتى في نفـس اللحظة التي سـمعت فيهـا أصواتًا طفولية تنقنق مثـل الكتاكيت الصغيرة، كلام مبهم لم أفهمه ولكني شعرته بأمومتي.

قُلت: أبناؤك!

قال ضاحكًا: نعم..يتقافزون حولي.

أغلقـت الخـط فـورًا باعتـذار سـاذج، خفـت أن يـرى ذهولي في ذبذبـات الهاتـف، أن يلمـس موضـع وجع صغيـر داهمنـي، أن تصله الصدمـة التـي بلا معنى التي شـعرتها. لمـاذا كان يبدو أمامي كإنسـان بـلا أسـرة، بلا عائلـة، أو عنوان، أو عمـل؟ لماذا رأيته مجـردًا من كل الصفـات والبيانـات الدنياوية؟ كأنه أتى العالم على براق من السـماء، كأنه غير مرئي للناس غيري. كأنه بجسـده وروحه مجتمع في الصوت الذي أسـمعه، في الحروف التي يرسـلها لي من مكانـه الغريب. لماذا تصدمني حياته الآن؟ أم أن صدمتي أنه مثل الناس، له حياة.

***

بطاقة معايدة

يحيى

فـي هـذا اليوم أريد أن ألقي نفسـي في حضن الشـوارع وأبكي. أن أقف أمام أول رجل تقابله وحدتي وأطلب منه أن يضمني. أن أمسـك

أصدقائي من ثيابهم، أهزهم وأصرخ فيهم: أين أنتم؟ لماذا لستم هنا جواري؟ لماذا لا تسألون عني اليوم؟ ألا تعرفون أن اليوم لا مكان لي. اليوم أنا ضيفة شرف في عمل لا يخصني، ضيفة فضولية ثقيلة ينتظر أهل البيت مغادرتها. أنا أرتعد من غيابك، من حضورك البارد، من صوتك المحايد، من غيرتي عليك، من شوقي إلى من لا يشتاقني. أحتفل اليوم وحدي بعيد ميلادك، أشعل الشموع وحدي، أنطفئ وحدي. و أغنّي لك وحدي.

سنة حلوة يا جميل

حُسن

***

«ليلى... أعتذر عن رسالتي لك الآن برغم أنك مشغولة، لكنك أنهيتِ المكالمة أمس بطريقة مُقلقة، أردت فقط أن أطمئن عليكِ، أرجو أن تتصلي بي عندما يتاح لك الوقت، لم أخبرك بالأمر الهام الذي اتصلت بك لأجله بعد..»

اتصلت به على الفور، كنت قد استعدت نفسي في يوم كامل ما بين إنهاء الاتصال معه والرسالة التي وصلتني منه، لم أسمع صوت الأطفال في الخلفية مثل الاتصال السابق، كان مُطمئنًا أكاد أرى ابتسامته من صوته، أخبرني أنه أخيرًا استطاع الحصول على موعد لمقابلة صديق والدي، «لطفي الشاهد». بعد أن تعافى من عملية

جراحية قريبة. وأنه يتوقع أن يجد عنده خيطًا يستطيع أن يصلنا بمكان أبي. أبلغني بعنوانه وبموعد الزيارة وأنهى اتصاله بلطفه الكبير.

وجدت نفسي أتقافز على الأرض كأنني طفلة، ثم رحت أتنقل برشاقة بين غرف البيت كأنني أرقص الباليه، امرأة ثلاثينية ترقص الباليه، تدور حول نفسها، تمشي على أطراف أصابعها، تفرد ساقها وتثنيها، لم أعرف قبلًا هذا الشعور الغريب من رقة الخطو، وخفّة الجسد، أدرت في المطبخ كل الأغاني التي أُحبها، قديم وجديد، عربي وغربي، أُدندن وأتنقل راقصة وأنا أُعد الطعام، لاحظت وأنا في حالة المراهقة التي داهمتني ست عيون صغيرة تراقبني من طرف باب المطبخ، «ماما بتعملي إيه؟» ثم غرقنا جميعًا في ضحك غاب عنا طويلًا.

قالت «ملك»: مامي، أنتِ سعيدة!

هل كانت سعادتي لأنني سأقابل شخصًا قد يدلني على أبي؟ أم لأنني أخيرًا سأقابل «مازن»؟

الغريب أنني منذ عرفت أن له أسرة، وسحرًا غريبًا أحاط به فجأة، أصبح يطارد خيالي في كل لحظات يومي، تُلحّ عليّ أفكار عديدة بشأنه، هلاوس للقاءات لم تحدث، تخيلات لتطورات حياتية قد تجمع بيننا، أشياء ساذجة ووهمية لم يخطر ببالي أبدًا أن أمر بها وأنا المرأةِ والأم الوقورة، لدرجة جعلتني أزور محلات الثياب والزواق وأشتري قطعًا جديدة، ارتديت أجملها في اليوم المنتظر، بعد زيارة

للكوافير صففت بها شعري على غير عادتي، انطلقت إلى حي الضاهر حيث بيت «لطفي الشاهد».

قابلتني زوجته بحفاوة، كنت قد قابلتهما في عدة مناسبات متباعدة، لكن لم يجمعنا أكثر من السلام، كان هو جالسا على كنبة صالون قديم يرتدي بيجامة كاستور وعليه روب ديشمبر يشبه أرواب أبي، وزوجته كذلك بروب ستان منقوش وشبشب منزلي مبطّن من الفرو، بدوت متكلفة بينهما بثيابي الجديدة، شعري المصفف وزواقي الكامل، شعرت بحرج ذاب سريعًا في دفء جلستهما، لفت نظري صور في براويز كثيرة على كل سطح بالمنزل، بالأبيض والأسود والألوان، لعدة أجيال الرابط بينهم ضحكات متسعة من القلب، وجدتني بين مزاحهما ومناكفاتهما مبتسمة صامتة، لم أجد في نفسي الدافع للكلام، شعرت أن الصورة مكتملة بدوني. لكن الانتظار كان يقتلني.

مرت نصف ساعة قبل أن تصلني رسالة من «مازن» يعتذر فيها عن حضوره. زاد توتري بشدة للحظة، شعرت أنني عود ثقاب مشتعل وضعوه بماء مثلج، حتى أنهما سألاني «ماذا بك؟»، بعد أقل من دقيقة من رسالة الاعتذار أتاني اتصال منه، قال «أنا آسف..مضطر لحضور اجتماع مفاجئ» كان اتصاله الودود كفيلا بجعلي أعود لطبيعتي وكأن كل ما حدث في اليومين الأخيرين لم يحدث. سألت «لطفي»:

- كنت قريبًا منه يا أستاذ «لطفي»، فماذا تعتقد سبب غيابه؟

- ناديني عمو مثل البنات الحلوات.

قلت ضاحكة: ولو أني لست بنات حلوات إنما أنا أم لبنت حلوة، لكنني سعدت بالمجاملة يا عمو.

- أنا لا أجامل وأبوك عارف، وأنتِ أجمل البنات يا «ليلى». بالمناسبة تعرفي لماذا سمّاك والدك «ليلى»؟

- قال إنه اسم بطلة رواية تقريبًا.

- رواية «الباب المفتوح»، وكانت لطيفة، مثال رائع للنساء المثقفات وقتها، سحرت عقولنا. قابلناها عدة مرات وكان أبوك مفتونًا بكتاباتها ومواقفها وروايتها. قال لي قبل ولادتك: لو رُزقت بنتا سأسميها «ليلى».. لعلها تكون بنفس الحماس والفكر المتحرر، لعلها تستطيع فتح كل باب تواجهه في حياتها.

ابتسمت بحنان، أحاول تخيُّل وجه أبي وهو يقول هذا الكلام. قلت: لكن، أين هو؟ لو يعلم كم أفتقده.

- بالتأكيد يعرف، الآباء يعرفون.

- إذا لماذا يختفي؟

- أحيانًا يكون الاختفاء نوعا من الاحتجاج. ولا إيه يا زوزو؟

وجه السؤال لزوجته التي أكدت كلامه، قلت:

- أعرف أنني لم أكن ابنة جيدة في السنوات الأخيرة. لكن أنا معذورة يا عمو. ماما..

- أعرف أن «هناء» قضت حياة تعيسة، لكنه كان اختيارها.

- كان اختيارها لأجلنا..لذلك لم أستطع أن أمحو من نفسي تأثيره السَّيِّئ على حياتها وسعادتها.

- وهل كان أبوكِ سعيدًا؟ كل منا له تعاسته، لكن هو كان يحاول على الأقل أن يحافظ على البيت وعليكم، هي كانت دائمًا تغلق الأبواب في وجهه. ورغم ذلك استمر.. لأجلكما، ولأجل أمك حتى. المرأة تستطيع أن تعيش مع رجل تكرهه، لكن الرجل لا يستطيع يا «ليلى». ولا إيه يا زوزو؟

وافقته زوجته مرة أخرى، بدا عليَّ مشاعر مختلطة من عدم الاقتناع والموافقة، تذكرت أمرا فسألته مرة أخرى:

- آخر رسالة على هاتف أبي لك كان يقول: «لا تفعل ما نويت عليه..لا تبلغ «ليلى»» ماذا كان يقصد يا عمو؟

سعل قليلًا فناولته زوجته كوب مياه، شرب ثم قال:

- لا أعرف بشأن الرسالة.

- أين يمكن أن أجد بابا يا عمو؟

- أبوك عاقل، لم يصب العجز عقله بعد. لا داعي للقلق عليه.

- أين كان يذهب عندما يكتب؟

- لم يكتب إلا في بيته.

- أين كان يذهب عندما يحزن أو يضعف؟

-لا يترك بيته إلا نادرًا.

- هل تعرف «حُسن» يا عمو؟

صمت قليلًا، وبعد دقيقة كاملة رد عليّ:

- نعم، أعرفها. التقيت بها مرات قليلة..في ندوات.

خشيت أن أذيع سر أبي، ربما لا يعرفه صديقه. قلت:

- هل كان على اتصال بها في السنوات الأخيرة؟

قال بعد صمت قليل: ولا في السنوات الأولى..كانت مجرد صديقة في الوسط الأدبي. هاجرت منذ مدة طويلة.

- هل تعرف «ندى عصام»؟

قال ببطء: كاتبة مبتدئة شجعها أبوكِ.

- هل ثمة علاقة بينهما؟

قال: لا تسيري وراء الأقاويل في هذا الوسط. الشاي يا زوزو من فضلك.

عدة أسئلة أخرى ولم أحصل منه على أي إجابة شافية، بعض الحكايات القديمة والقصص الشيقة والترحيب الدافئ والعلاقة الزوجية التي طالما كانت ضمن خطط حياتي، أن أشيخ مع رجل يجمعنا تفاهم وصداقة وحب، أيقنت من هذا اللقاء كم أنا بعيدة عن هذا

الحلم البسـيط. تركتهما وأنا في حالة من الضياع أكثر مما كنت أشعر به قبل حضوره، لا أمل في إيجاد أبي، ولا أمل في تحقيق حلمي.

فـي طريق عودتي أتاني اتصال من مـازن، حذّرت أن اتصالاته بي زادت مـن بعد معرفتي بكونه متزوجًا، كأنـه اطمأن لعلاقتنا أكثر، الآن لا يمكن أن يخامرني خاطر للمزيد من الاقتراب، وكأن زواجي وحده لم يكن يكفي! قال:

- وددت أن أكرر اعتذاري.

- لا عليك يا «مازن».. أنت بالذات لا تعتذر أبدًا.

- لا، ليس صحيحًا.

- ماذا تقصد؟

- ليس صحيحًا أن هناك ثمة شخص لا يمكنه أن يعتذر أبدًا..يجب أن يعتذر لك من يخطئ في حقك. لا تتهاوني أرجوك.

حكيت له عن لقائي مع «لطفي الشـاهد»، لم يبد اندهاشًا من عدم وجـود معلومة عنده عـن أبي. طال الاتصال لأكثر من سـاعة، وأنا في السيارة، لا أشعر بالوقت، أضحك وأبكي وأنفعل وأهدأ، حتى قال لي وأنا بصدد إنهاء الاتصال:

- أمر آخر مهم أود لو تعدين نفسك له.

سفر. سويسرا.

قلت ضاحكة: مستحيل..مزاح!

- قلتِ إنك بدأتِ في كتابة بعض النصوص.

- مجرد حكي ذاتي.

- لماذا لا تصقلين موهبتك.

- لست متأكدة أصلًا أن لدي موهبة.

- هذه التجربة ستساعدك على اكتشاف إن كان لديك موهبة أم لا.

- سفر؟!

- معتكـف كتابـي. لمـدة عشـرة أيـام. أسـاتذة وكتّـاب معروفون ومبتدئون، في انعزال تام تسـتطيعين أن تقتربي من نفسـك وتكتشـفي موهبتك، تكملين نصوصك وتصلين لشيء ما بخصوص حياتك.

قلت بدون تفكير: لا أريد.

- فكّري..إذا سمحتِ.

- لا مجال للتفكير.

- في الصباح يمكنك أن ترسـلي أحد نصوصك وتملئي اسـتمارة التقديم وترسليها على الإيميل الذي سأرسله لك الآن.

أضاف: أثق بأنهم سيختارونك.

20

يشبه المجلس العسكري، حماي وحماتي في بيتي، زوجي على السكايب وأخي على الهاتف. كل منهم يتحدث ثم يلقي حديثه للآخر، بخليط من الهدوء والانفعال، من بداية طرف الحديث حتى نهاياته واللوم لي، كل الأسهم تشير نحوي، تقول «مجنونة!»، «كيف تسافرين وتتركين أبناءك؟» «كيف تسافرين وحدك؟» «كيف تجرئين على التحرك بدون رجل؟».

هذا ما كان سيحدث إن أخبرتهم بنيتي للسفر، لذلك تصرفت بشكل مغاير، كذبت. كان يجب أن أكذب حتى أتخلص من ضغوط المجتمع والناس، وهل كل من يكذب أفاق ومدلس؟، أليس هناك من يكذب لينقذ نفسه، لينجو بنفسه، ليجد نفسه. وضعت لنفسي كل المبررات للكذب، فعلت الفعل الذي أتت به زميلتي في العمل ووصفته بيني وبين نفسي أنه مشين، كذبت عليهم، مثلما فعلت مع أسرتها لتقضي بعض الأيام برفقة صديقاتها. أخبرتهم أنها سفرية عمل ضرورية، تترتب عليها ترقيتي.

أكثر ما يهم زوجي بعد تربية الأولاد، أن أحافظ على عملي، دخلي الصغير الذي أصرف به على نفسي يجعله يشعر بالاطمئنان، أنه

ليـس مضطرًا للصرف عليّ. لذلك وافق أن أترك الأولاد لأمه، ومعهم مسـاعدتي التـي أحاسـبها من دخلـي. في العمـل اتفقت مـع مديرتي برغـم أننـي كنت في إجـازة بدون مرتـب، أخبرتها بأهمية السـفر لي، واضطراري للكذب، وقبلت أن تتعاون معي على كذبتي.

يـوم أن أخبرنـي «مـازن» بالمعتكـف الكتابي، كنت أعـرف أنه لا يناسبني تماما، فلا أنا كاتبة، ولا أنا في ظروف تسمح بالسفر للخارج، لم يخطر حتى في بالي من بعيد. ثم إنني عائدة لتوي من سفرية دبي، لا أملك المال ولا القدرة على خوض تجربة سفر أخرى، ومازالت توابع سـفري السـابق تطاردني في غضـب زوجي، وإحجامه عـن التواصل معي إلّا في ما يخص الأطفال. وفي ضميري الذي يؤنبني على إفسـاد إجازتنا الصيفية معه.

كنـت قـد انتهيـت من مذاكـرة الأولاد، تعبـة وممتلئـة عن آخري بالأفكار، ملت برأسي الثقيل على ظهر أريكة وثيرة في غرفة المعيشة، تذكرت مشـهدًا طالما راودني، رأيتني وأنا أقف في شرفة منزل، أمامي حديقـة واسـعة، وفيـرة الأشـجار، بها شـتى أنـواع الزهـور والنباتات والطيـور، علـى مسـافة يجري نهـر صغير، علـى ضفافه بيـوت غربية بأسقف مائلة، في الخلفية جبال خضراء شاهقة، على قمتها ثلج، الجو بـارد وأطرافي دافئة. قلت لنفسـي إن هـذا المنظر يشـبه الصور وأنني لابد وقعت بداخل صورة صباحية جميلة مما ينشره الناس على مواقع التواصل للاستبشـار بيوم رائع، غير أن بعـض قطرات المطر الخفيف

بللت وجهي فكانت اللحظة حقيقية أكثر من كونها خيالا، كنت سعيدة رغم أني كنت أعلم أنني لست هنا من أجل ذلك كله.

أدركت في هذه اللحظة أنني على موعد مع السفر لأوروبا، أرسلت نصًّا أدبيًّا مرفقًا ببيانات عني على الإيميل الذي أرسله لي «مازن»، بعد عدة أيام اتصلت بي شابة من المسئولين عن المعتكف الكتابي، سألتني عن رغبتي في كتابة رواية أو كتاب، وعَمَّا ينقصني للكتابة وما يجذبني لها، وعَمَّا إذا كنت أمر بقفلة كتابية تعطلني عن إنجاز مشروعي الأدبي، كنت أجاوبها كأني أبي، تقمصت روحه لدقائق، قلت: «أمر بقفلة بالفعل وأحتاج لبعض الإلهام والانزواء بعيدًا عن صخب الحياة»، في اليوم التالي أرسلت لي المنظمة إيميل يفيد بأنني قُبلت ضمن من اختاروهم للسفر إلى سويسرا في المعتكف الكتابي.

اتصلت بـ «مازن» مُهللة، امتص فرحتي بمزيد من الفرحة، ثم نصحني باختيار ثياب ثقيلة وشراء كوفيات صوفية وقفازات مبطنة من الجلد ومحوّل كهربائي يناسب أكباس الكهرباء في أوروبا. كما نصحني بأخذ بعض الكتب التي تعجبني بترجمة إنجليزية. كنت أستمع له مثل الأطفال، ثم فاجأتني نفسي عندما طلبت منه أن أراه قبل سفري، فقال بمنتهى اللطف «لا داعي» ولم يزد عنها.

***

في المطار أتاني اتصال من «نجلا»، اختفت بعده لمدة طويلة، أخبرتني أنها تأكدت أن زوجها قد سافر إلى مصر وسوى أموره مع أبي

هنـاك وليس في دبي، تأكَّدَت من هذه المعلومة من أحد موظفيه الذي صـوَّر لها جواز سـفره بتأشـيرة الدخول والخروج مـن مصر في نفس التوقيـت الـذي أوهمني فيه أنه قابل أبي في دبي، سـألتها عن تصورها لسـبب الكذبـة، قالت إنـه لم يرد أن تعرف هي بشـأن سـفره لأنه على علاقة غرامية بامرأة في مصر. كانت تبدو حزينة في الاتصال خائفة من ثمن قرارها، تعرف أن سيدا يدبر لها شيئًا.

تعرفـت في المطار على رفقاء السـفر والاعتكاف للكتابة، «أحمد وشـيماء»، يبـدوان فـي منتصـف العشـرينيات، كانـا بصـدد الانتهـاء مـن كتبهمـا الأولـى، «أحمد» يكتـب كتابًا عـن تاريخ مصـر في حقبة الخمسـينيات، يزعـم أنـه يصحح فـي كتابـه، الذي بذل نصـف عمره لأجله، تاريخ المصريين الحقيقي. و«شـيماء» تكتب رواية، تقول إنها تكره روايات الحُب، لا سـيما التي تكتبها النساء وتتسم بالضعف وآفة الخـذلان، لذلك قررت أن تكتب رواية وجودية، لم أفهم ما يمكن أن يعني تصنيف رواية بالوجودية، لكنني شعرت أنه أمر خطير وعميق.

لم أشـعر بالوقت وهو يمضي بيننا ثلاثتنا لا نتوقف عن الحديث، فـي النهاية غطّوا في نـوم عميق، وبقيت أنا أراقـب المقاعد، والناس، وجنـاح الطائرة، أترقـب لحظة الهبـوط المحببة إلى قلبـي وقد بدأت الشمس تنثر حبات النور البديع على الكون، كنا نسير في مطار جنيف الدولي كأسـعد ثلاثة بشـر فـي الوجود، تسـتقبلنا رائحة الغـرب التي طالمـا تمنيت أن أتعرف عليهـا، تخيلتها رائحة عطرية لأنواع نادرة من

الزهـور، رائحة ثلج وبرودة، رائحـة نقية مثل التي تلحق المطر. عندما خرجنـا مـن المطار عرفت أن خيالي لم يكـن حقيقيا، كان مجرد هواء محمل بعطور التنظيف، حتى البرد لم يكن قارصًا كما تخيلت، للحظة نسيت أنه الشتاء، كان الجو منعشًا وجافًا، انعدام الأتربة جعل المناظر أجمل حتى لو كانت لأرصفة وشوارع مزدانة بصناديق القمامة.

التقينـا بعضـوة من المؤسسـة اصطحبتنا في سـيارة أجرة من نوع مرسـيدس إلـى الفنـدق المتفق عليـه، كان فـي منطقة نائيـة بعيدة عن العمران، اسـتغرق الوصول إليه سـاعة ونصف، كنـا مبهورين بكل ما عرفناه مسبقًا من نظام، نظافة، أناقة البشر وبساطتهم، لكن الرؤية على الواقـع تختلف كثيرًا عن الخيال، مثل بُعد ثالث، يُمكّنك من الشـعور بالأشياء ولمسها دون لمسها.

علـى جانبـي الطريق جنّـات من الطبيعـة، منها المحتفـى بجمالها ومنهـا المنسـية كامـرأة جميلـة بـلا زواق، لا وجود للفـراغ هنا، حتى الإهمال يضع لمسـاته الجميلـة، فلا تقع عيناك إلا علـى صورة فاتنة. الفنـدق فوق ربـوة خضراء بداخـل منتـزه لاجرانج، أشـبه بالمنتجع، بيوت صغيرة متناثرة داخلها شـقق فندقية، كنت أسير كأني في حلم لا أريده أن ينتهي، نسيت أبي وبلدي وأولادي وحتى نفسي، شعرت أنني تواقة بشدة لتذوق كل لحظة من هذا السحر بلا أي حسابات.

تعرفنـا على عدد مـن الكتّاب الأجانب، كانت لغة البلد الفرنسـية لكـن التواصـل معنـا كان بالإنجليزيـة، فـي مجموعتـي إنجليـزي

وموريتاني وياباني، امرأة أمريكية، وأخرى من جنوب أفريقيا، لم يكن «أحمد وشيماء» معي في المجموعة، وهذا أشعرني ببعض الراحة. تبادلنا أحاديث قصيرة متنوعة من التعارف بلهجة إنجليزية، أهدى كل منهم كتابًا لي، تذكرت الكتب معي التي نصحني بهم «مازن»، فأهديت كتابًا لكل منهم، رواية لـ «محمد المنسي قنيدل»، رواية لـ «بهاء طاهر»، روايتين لـ «نجيب محفوظ»، رواية لـ «ميرال الطحاوي» وأخرى لـ «أهداف سويف». كان لقاء حميميًا تغلب عليه البهجة، أو عدة بهجات على الأصح، بهجة الكتابة، بهجة القراءة، بهجة السفر وبهجة الانعزال مع غرباء.

غرفتي الجديدة بسيطة، أبسط من غرفة فندق دبي بكثير، سرير وطيء، منضدة خشبية عليها أدوات مكتبية ولابتوب وماكينة طباعة، خزانة صغيرة، كرسي من الأبانوس بقاعدة وظهر مبطنان، رفّان خشبيان معلقان على الحائط، يحملان بعض الكتب، أكثر ما أعجبني النافذة البيضاء الكبيرة، المُزيّنة بستائر مُزهرة، والتي تطل على حديقة صغيرة تدخل منها شمس غير الشمس التي اعتدتها، تنعكس على المنضدة والأرض كمجرد لون مضيء، رقيقة وهادئة كأنها ابنة الشمس.

بعد ساعة من المشاعر المختلطة بين الذهول والسعادة، أتى موعد الغداء، كانت هذه هي أسوأ فقرات اليوم، طعام غريب بمكونات غير معتادة وكميات قليلة، هوّنت على نفسي المتشبّعة بالمغامرة، واعتبرتها طريقة للحمية الغذائية التي لطالما لم أستمر بها. شربنا

عصائر شـهية بعدها وحاولنـا لفق أحاديث أخـرى، جذبتني الفتاة من جنـوب أفريقيـا وبدأنـا صداقة لطيفة رغـم اختلاف الألسـن، تواعدنا علـى قـراءة نصوصنا بمسـاعدة مواقع الترجمة. قبـل أن أدخل غرفتي وزوعـوا علينا أوراقًا صغيـرة عليها كتابة دقيقة كأنها عمود من جرنال، لم تكن الصورة على رأس المقال غريبة أبدًا، قالوا غدًا سـتأتيكم كاتبة إنجليزيـة مـن أصل عربي عُرِفت بالكتابة عن وطنهـا الأم، عن الهوية، الفقد، الحرب، والاغتراب. نط قلبي من صدري عندما قرأت اسـمها «حُسن سالم».

21

يحيى،،

كيف تحكم عليّ بأني واهمة؟ كيف تخبرني كل حين من بين السطور أن ما أشعر به لا يتعدى كونه إعجابًا؟ وكأني بعد كل هذه السنوات وهذه الخبرات لا أستطيع أن أميز مشاعري وأعرف ماهيتها! أتذكر عندما قلت لك في هذا اليوم أني أفتقدك. هل تذكر إجاباتك؟ قلت«إن شاء الله لأ»! لكنه شاء أن أفتقدك..وشاء أشياء أخرى، فلماذا تريد أن تغيّر مشيئته؟

لقد عانيت كثيرًا يا «يحيى» حتى أتجنب أذى العالم. ظنونهم السيئة بامرأة تكتب، تفسيرهم لكل ما أكتبه وربطهم لكل خيوط حياتي، كم عانيت حتى أتخلص من نظراتهم المستهجنة، أسئلتهم المتكررة عن وضعي الاجتماعي وأهلي. عمّا إذا كنت أكتب لزوجي أم لرجل آخر. حتى أصبحت الآن، أخيرًا حُرّة، بعد أن أثبتُّ نفسي، فلا تعيدني للمعاناة مرة أخرى.

أصبحت أعد نفسي للقهر، وأنا معك أتخيل نفسي بدونك أعيش ألم الحرمان مقدما وأنا بقربك، الدفء لا يمنعني من تصور البرود

الذي سيلف حياتي بعد رحيلك، تأخرك في الرسائل هو بروفة لحياتي بدون رسائلك، غيابك المؤقت هو نوع من الفراق الأبدي، اعتذاراتك الصغيرة عن انشغالك هي عن رحيلك، كل اللحظات الحلوة أصنعها معك كذكريات، كل الهدايا أشتريها وأنا أقول لنفسي: حتى يظل يتذكرني، كل ضحكة أسمع في آخرها بكائي، كل شعور بالأمان أشعر بعده بضياعي، كل تأكيد منك على بقائك أضعه في خانة الوعود التي لم تتحقق. أنت رجل واقعي يؤمن بقوة الأدب والخيال الذي يربطنا وأنا امرأة خيالية أؤمن باليوم الذي ستصير فيه الحياة مواقف واختيارات، وأعرف أنك لن تختارني.

أعرف أنه موسم الامتحانات وأنك مشغول،أعذرك لأني أعرف السبب الحقيقي للغياب. هو اتفاق غير معلن بيننا، نريد أن نُجيب على السؤال الذي لطالما أرّقنا. «هل أستطيع العيش بدونه؟» والإجابة يا عزيزي لا تحتاج لجهد وتفكير، «نعم أستطيع العيش بدونك» كلنا نعيش يا «يحيى»، كل من نراهم يعيشون حتى لو تحت جلودهم موتى. كلنا نتحرك وندور في دائرة الحياة، نتنفس ونأكل ونضحك. لكن من منا يحيا؟ . .أنت تمنحني الحياة بوجودك، حتى لو كان مجرد كلمات على ورق.

كنت غضّة، عندما يأتيني اليأس في زيارات طويلة، أضع حدًا لمعاناتي بجملة ساذجة «نقطة ومن أول السطر» . العديد من البدايات والقليل من النقاط، علموني أن أمزق الورق وأفقد إيماني بكل شيء.

حتى إذا ظهـرت أنت فأعدت إيمانـي بالصفحة البيضـاء. غير أنني لا أحـب معك الفواصـل، وأنت تجيد وضـع النقاط. ربمـا يومًا تعلمني كتابة المقال فأنهي كل سـطر بيننا بنقطة. وربما أعلمك كتابة الأغاني، فلا تضع نقطة أبدًا.

لمـاذا تريد أن تلغي وجـودك رغم أنك تملأ وجودي وتغمر وجود كل من يعرفك بالنور؟

أنـت دائمًا تنكر مـا تقدمه للعالـم من جمال، دائمًا تخفي نفسـك من البراويز وتطمس اسـمك من الحكايات، تسير في الحياة كناسك، تتنقل بين الأصدقاء كروح حلوة، يمكنك أن تشعر دفأها وجمالها ولا يمكنك أبدًا أن تلمسـها، لكن أنا لمسـتها يا «يحيى» يوم لَمَست قلبي، إن كل محاولاتك لطمس وجودك لا تزيدك إلا حضورًا في قلبي.

حُسن

***

قرأت الرسالة في مساء هذا اليوم الذي عرفت فيه بمقابلتها، قرأت أيضًـا الكثيـر من المقالات عـن أعمالها، بعض النصـوص والقصص المنشـورة ومقالات عن الكتابة، هذه المرأة لا تكتب شـيئًا عن نفسها، لا معلومة واحدة عن حياتها الشخصية، حتى الصور ومقاطع الفيديو، كلهـا في نـدوات أو حفلات تكريـم، اللقاءات والحـوارات كلها عن الأدب وفقط، صورة واحدة بعد الكثير من البحث عثرت عليها تجمع بينهـا وبين رجل أوروبي طاعن في السـن، كانـا يضحكان، تنظر له في

محبـة وينظر هو فـي كتاب بين يديه وعلى وجهه ضحكة وراحة، كُتب على رابط الصورة أنه زوجها.

قضيت وقتي في انتظار رهيب، مشحون، بين الحديث مع صديقتي الجنوب أفريقية وبعض المحادثـات الإلكترونية القصيرة مع «مازن» الذي أصبح مشـغولًا دائمًا، حتى أنه لم يتفاجـأ من اللقاء غير المرتب بـ «حُسـن». نزلنا أنـا وزملائي بعد العصر لنتمشـى حـول نهر قريب، خف توتري قليلًا بين الضحك والتصوير والسـحر، ومنظر النهر تلونه الشمس ويحده الخضار الطازج البهيج، بعض الأرائك الأنيقة، الكثير من الزهور، كنت أتساءل كيف ومتى سقطت في هذا العالم؟

انتظرناهـا في قاعة ملحقة بإحدى الشـقق، لحظات لا أسـمع ولا أرى، عينـاي معلقتـان ببـاب القاعة، تخيلت سـيناريو غريبـا، وكانت عادتـي فـي الفترة الأخيرة منـذ بداية الكتابة أن أتخيـل القصص، وراء كل لقطة حكايـة أتخيلها وأربط أحداثها وأضع لها نهاية غير محتملة، تخيلت أن أبي سـافر لـ «حُسـن» وتزوجا، ربمـا اختفى حتى لا يجرح شـعوري، لكـن القـدر أحضرنـي هنا لأجـده، وليعـرف أننـي تغيرت وأصبحت أريده في حياتي.

دخلت علينا إحدى منظمات المعتكف وخلفها ظهرت «حُسـن»، تبدو أصغر من عمرها بعقد كامل، شـعرها فضي بضي أصفر، جسدها رشـيق، مشـدود في تاييـر أزرق قاتـم وبلـوزة حريرية بيضـاء، عيناها لوزيتـان، عسـليتان، تلمعان في وجه قليل التجاعيـد. رحبت بالجميع

وجلست خلف منضدة أمامية، بجوار منظمة المعتكف التي عرّفتها بأنها بالإضافة لكونها روائية، فهي كاتبة مقال، مسرحية وسيناريو، وهي أيضًا فيلسوفة، وقد تحمست كثيرًا في بداية مشوارها الأدبي ضد الشيوعية، مما أكسبها كره بعض الناس بالإضافة لحب الكثيرين لها. قالت إنها مصرية تخرجت من كلية الآداب جامعة القاهرة، دق قلبي بعنف عندما أشارت تجاهي أنا و«أحمد وشيماء» وهي تقول «معنا ثلاثة معتكفين من مصر». ابتسمت لنا «حُسن» بسعادة للحظة واحدة ليس أكثر.

بدأت حديثها بدعابة عن كونها تاهت كثيرا واضطرت لدخول الحمام في حانة على الطريق أثناء قدومها للمعتكف، ثم راحت تحكي عن شبابها عندما كانت موظفة في مكتبة عامة في مصر، كانت المكتبات لا يطؤها إلّا قلة قليلة من الناس، ومع ذلك اندمجت في مجتمع المثقفين في مصر آنذاك وشاركت في إقامة العديد من الندوات للكتّاب، الشعراء، النقّاد والمحللين السياسيين.

حكت عن رواياتها الأوائل، وكيف أن لا أحد كتب عنهما تقريبًا، ولم تنل النجاح الذي انتظرته، ورغم ذلك استمرت في الكتابة، لم يكن لديها مشروع روائي مثل معظم الكتّاب آنذاك، كانت تكتب لأنها لم يكن لديها أصدقاء، ولم تعرف طريقة أخرى لتعبر عن نفسها ولتضع حدًا لمعاناتها، لتحكي كل الحكايات التي أرادت أن تعيشها أو رأتها وتأثرت بها، ثم حكت عن التحول الأدبي في حياتها من الكتابة

الذاتيـة للكتابة عن المجتمعات والتاريخ والإنسـانيات، كانت الكتابة عالمها الذي أرادت أن تسـتمر به لآخر يـوم في حياتها. حكت كذلك عن قرارها في السفر الذي تحول لرغبة في الهجرة، وقد كان.

فـي الغـرب تعرّفت علـى رؤية جديـدة للكتابة والكتّـاب، عملت عـدة أعوام في سلسـلة من أكبـر المكتبـات، تطلب الأمـر أن تبدأ من الصفر وتعرّف نفسها بمجتمع المثقفين الكبير، المنغلق هناك. لم ينتبه لهـا أحـد لأنها كانت تكتـب بالعربية، بعد محـاولات عديدة ومذاكرة واسـتعانة بأصدقاء، كتبت أول نص لها باللغة الإنجليزية، أرسلته لكل جهات النشـر، ولـم تنجح أيضًا. حتى تعرفت بصديق مترجم وكان هو سـبب تعريف المجتمع الإنجليزي المثقف بها. نشـرت أول رواية لها وهي في الأربعين، كانت رواية بالإنجليزية عن الهوية العربية وشملت قضايا مهمة مثل قضية فلسـطين، والتدخـل الأمريكي في العراق، من خلال عائلة نصف عراقية نصف فلسـطينية عانت من التشـرد والغربة، ونبغ فيهـم الابن الذي استطاع أن يكون أديبًا من طراز خاص.

نالـت هذه الرواية جائزة الإندبندنـت لأدب الخيال الأجنبي، كما ترشـحت لعدة جوائز. تهافتت دور النشـر عليها بعـد ذلك، وانطلقت فـي عالـم الكتابة، نشـرت عـدة روايـات والعديد من المقـالات، كما تخصصت فـي تدريس الكتابة الإبداعية في الجامعات ومراكز الكتابة المختلفة، حتى أصبحت الآن بينهم تحكي مشـوارها في سعادة، لأنها وثقت من البداية في موهبتها وعملت على الكتابة وحسب.

صفـق لهـا الحاضـرون بشـدة، فلتت الدمـوع من عيـون البعض، ثم أتى دور الأسـئلة، بعد عدة أسـئلة أدبية، سـألتها صديقتي الجنوب إفريقية عن الزواج في حياتها وتأثيره على الكتابة، ردت «حُسن» بأنها تزوجت في بداية حياتها ولم تستمر الزيجة لأكثر من عامين، وتزوجت مـرة أخرى مـن كاتـب إنجليزي شـهير وكانت قـد تخطـت الأربعين بقليـل، عاشـت معه في اسـتقرار وهناء ودفعات مسـتمرة لاستكمال الطريـق الذي أحبته، تأثرت وهي تقـول أنه توفى منذ عدة أعوام. لكنْ أي مـن الزيجتيـن لم يؤثر على الكتابـة وإن كان زوجها الأخير أضاف لها بالكثير من التشجيع والدعم.

أخذتني الجرأة وسـألتها عن أسـماء أفضل من كتبوا في مصر أثناء معيشـتها هنـاك، سـمّت عدةّ أسـماء، أولهم كان اسـم أبـي. ارتجفت بشـدة، حتـى أنني خفـت أن يلاحـظ النـاس روحـي التي تلـف مثل الأعاصير على دقات قلبي الموتورة، استمرت الجلسـة لساعة أخرى بيـن أسـئلتهم وحكاياتها عن الكتابة والإلهـام، كان صوتها هادئا بنبرة سـريعة، الحماس علـى وجهها هو ما يعطيها عمـرا أصغر من عمرها، رغم سـنواتها السـتين كانت تتحدث عن أحلامها، مشاريعها القادمة، أشـياء تود أن تتعلمها، شعرت بهالتها الجذابة تقتحمني، بل الأكثر من هذا، شعرت أن كل ما فيها أتمنى أن أكونه يومًا ما.

عندما انتهت أخذتها مسـئولة المعتكف للخارج، في أقل من ثانية كنـت أمامها، طلبـت منها أن أتحدث إليها على انفـراد، همت باعتذار

مهـذب لأن طريـق عودتها طويل، لكني على سـبيل الإصرار قُلت لها اسـمي كاملًا وباللهجة المصريـة. تحولت ملامحها فجـأة إلى ذهول ممـزوج بحيـرة، كان علـى وجهها هـذا التعبيـر الغريب مـن الغضب والفـرح فـي آن. قالت باللهجة المصرية وهي تشـير إلـى غرفة مكتب «تفضلي».

كانـت أكثـر لباقـة منـي، سـألتني مـن الأكبـر للأصغر، مـن العام للخاص، سـألتني عن مصر، ثم عن الكتابة وعن رحلتي في سويسـرا، ثـم أخيـرًا عن أبي. علـى عكس ما توقعـت، كنت أنـا المرتبكة، وهي الثابتـة، الرصينـة، حتى عندما عرفت بخبر اختفائـه، لم يهتز لها جفن، قالـت: ربمـا يكتب عملًا جديـدًا، قُلت: لكنها ليسـت عادتـه، قالت: العادات تتغير.

قلت: في الفترة الأخيرة منذ وفاة ماما لم أكن ابنة جيدة له.

تلعثمت لأقل من ثانية، ثم قالت: هذا الشـعور في حد ذاته لا يدل على أنك ابنة سيئة.

- لكنه تركني على أي حال.

- بإمـكان المـرء أن يتـرك أحباءه دون أن يفقد حبـه لهم. قد يكون احتاج لهذه العُزلة، وهو شـعور متكرر بين الكتّـاب. واحتياج غالبًا ما ينتج عن البحث ويؤدي للوصول لشيء. ربما كان يبحث عن شيء.

- ربما يبحث عنك.

قالت باستنكار: عني أنا؟!

- نعم، سمحت لنفسي بقراءة الرسائل.

ارتشـفت مـن كـوب القهـوة فـي يدهـا، قالـت بعـد لحظـات من الصمت:

- كان هذا قبل أكثر من عشرين عاما، لم يعد شيء كما كان.

- هل حاول التواصل معك خلال هذه السنوات؟

قالت باقتضاب: لا أدري. لا أظن.

- لم يتصل بك خلال الشهر الأخير؟

- كلا.

- هل تساعديني في تخمين أين يكون؟

-لا أسـتطيع. أنـا لـم أعـد نفس الإنسـانة، لـم يعد شـعوري نفس الشعور، ولا حياتي نفس الحياة. لم أعد أستطيع أن أتوقع شيئًا يخصه، هو بالنسبة لي الآن جزء من ذاكرتي نحيته جانبًا.

- إذن تجاوزته.

قالت وعلى وجهها ابتسامة نصر: بالطبع.

- منذ سافرت؟

- منذ تركت كل شيء.

قلت كمراهقة متشبثة بأحلامها: لم تعودي تحبينه؟

- لم أعد. وربما لم أكن أحبه.

عادت للوراء وقالت بعينين غائمتين كأنها لا تخاطبني أنا،

- هو كان دائمًا يقول: «أنتِ لا تحبيني. ستعرفين مع الوقت، ستمضي السنين وتكتشفي أنك لم تحبيني، ستنطفئ هذه الشعلة الكاذبة في قلبك، وسيحل مكانها نور رباني تخلقينه أنتِ، ستعرفين أنني مجرد رجل مر في حياتك، لست ملهمك، فأنت ملهمة نفسك، ولست حبيبك لأن الحب لا يعرف العقبات، وأنت امرأة مستحيلة».

تأثرت ودمعت عيناي من إلقائها الشجي، ومن كلام أبي الذي لا أعرفه، نظرت إلى ساعتها في إشارة إلى تأخر الوقت، أفرجت عنها من أسئلتي، وأنا أشعر بالجوع، أشعر أنه ينقصني الكثير، لكن صرامة وجهها لم تترك لي مجالًا آخر. تركتها وقلبي حزين وناقص، كتفاحة مقضومة.

22

- لا أحد يجني كل شيء. هذه المرأة رغم كونها كاتبة مشهورة، حققت حلمها في النجاح والحب، إلّا أنني عرفت أنها تركت والديها في مصر يموتان وحيدين، لم تعتن بهما أو تبرّهما، ربما لذلك لم تُنجب حتى لا تأتي للحياة بابنة تشبهها.

- أنا كنت سمعت أنها عاشت قصصا غرامية مع عدة كتّاب في مصر، حتى رواياتها الأولى تتسم كلها بمغامرات الحب وآلام الخيبة.

- سمعت أن بعضهم كانوا متزوجين ومع ذلك لم تتوان عن الإيقاع بهم.

- لكنها لم تتزوج أيًّا منهم.

- كانت عابثة بالتأكيد، وهل من رجل شرقي يتزوج بامرأة عابثة. من الممكن أن يقعوا في الحب..لكن الزواج له ناسه.

- ممكن أن يتزوجوا من امرأة أحبوها، لكن كونها كانت مطلقة في هذا الزمن، كان وضعها يؤهلها لقصص الحب المستحيلة فقط. أنا لا أحب كتابتها عمومًا، الكتابات المترجمة أفضل.

- هـذا رأيي أيضًا. لا أحب الكتابات العربية ككل بالمناسبة، كما أنني لم أحب شخصيتها المنفلتة التي تداريها بهذا الوجه الصارم.

- أوافقك، لكن..لندع الخلق للخالق.

- ربنا يهدي.

سمعت هـذا الحوار بين «شيماء وأحمد» بعد أن غادرت «حُسن».

كنت أظن قديما أن الكتابة مجرد مهنة أخرى، يقوم بها الإنسان ليسترزق دون أن تؤثر على حياته، أو أنها غواية تدفع بالإنسان إلى الجنون والتقصير في حياته. إلى أن كتبت فشعرت بأن الكتابة روح طيبة، تسمو بالأرواح، تجعل الإنسان يترفع عن الخوض في الدنيويات الرخيصة، والأحكام الجزافية، لكن بدا لي في هذه الأيام أنني أعاني من رومانسية ساذجة. تلك التي يمر بها الناس في بداية الشباب. يبدو أن لا شيء يفوت الإنسان، علينا أن نمر بكل اللحظات ويخطر ببالنا كل الأفكار، ونعيش كل التجارب، أيًّا كان الترتيب الزمني.

كنت حزينة وهشة بعد مغادرتها، حزنت مرة لأبي لأنها لم تعد أو لم تكن تحبه، ومرة لأمي لأنها استشعرت وعاشت ألم قصة كانت تُنسج خلف قصتها. كتبت لـ «مازن» الذي لم يرد على رسائلي منذ الصباح، وكتبت لزوجي الذي لم يهاتفني من يوم سفري. وصلتني منه رسالة واحدة «حمدا لله على السلامة». شعرت بانكسار قلبي الذي لا أعرف مصدره، هل هو تجاهل زوجي المستمر، أم اختفاء «مازن» المتعمد.

كان عليَّ في هذه الأمسية الدافئة في قلب الثلج أن أكتب نصا عن الألوان، وبرغم روحي المعتلة، كتبت عن الألوان كما شعرت بها في هذه اللحظة،

«صديقاتي يرون لي هالة حمراء قرمزية ويعتقدون أنها تناسبني، امرأة تكرهني كتبت ذات يوم أن لي هالة صفراء بلون الكهرمان الذي ينبت من حشرات ميتة، ابنتي ترى لي هالة بنفسجية وتهديني كل ورقة أو لعبة، أو حلوى لها لون بنفسجي. زوجي كان يراني قبل الزواج بيضاء، ثم أصبح يراني مع الوقت شفافة، ثمة رابط بين الحب والألوان، كل إنسان يحمل لك لونًا، لكن لونك الحقيقي لا يراه إلا إنسان رأى روحك. عندما عرفتك عرفت لون روحي..أخضر بلون الكنتالوب المثلج».

عندما ألقيته عليهم في الصباح لقى استحسان زملائي ورواد المعتكف، كانوا يتناقشون عن حبكات الأعمال الروائية، نماذج من روايات عالمية، آراء ورؤى مختلفة، وكنت فارغة، ماذا سيقولون عني عندما يعرفون أنني أكتب وفقًا لحدسي، ليس لي منهج أتبعه أو رؤية أتبناها، كنت أستمع إلى أحاديثهم بشغف وبدون تفاعل، اسفنجة جاهزة لاستقبال المعلومات وامتصاص كل قطرة معرفة، شفع لي في صمتي نصي الذي أعجبهم.

قابلنا في المساء كاتب أمريكي، كان أكثر مرحًا من «حُسن»، أكثر جنونًا وهذيانًا، هذه التركيبة الغريبة منحت الليلة بريقًا مختلفًا، ألقى

نصائـح تخـص الكتابة، تحدث عن الرواية بالأخـص، عن كيفية خلق الشـخصيات والتعـرف عليهـا، عن الأشـياء التي نتجنبها فـي الكتابة، عن شـدة الملاحظة والخيال النشـط، شـبّه الكتاب بالمتشردين الذين يبحثـون عـن الذهب، ونصحنا بأن نكون سـميكي الجلـد عندما نقرر نشـر أعمالنـا. وبأن نكتب مسـودات غزيـرة في البدايـة. كان علينا في نهاية المحاضرة أن نكتب نصًا حُرًا. كتبت: أنا بيت من خشب أستطيع أن أمنحك رائحة المطر وهمس الرياح، أستطيع أن أكون لوحاتك عند الترف ووقودك عند الشـظف، معي لن تعـرف الصدأ ولا التصدع ولا الوحدة ولا الفقر. بي عيب وحيد يجعل الجميع يفضلون عني البيوت الأسـمنتية، الحـرارة.. تزيد فتجعلنـي أنكمش حبًا، خوفًـا واحتياجًا، وتقل فتجعلني أتمدد صخبًا، غضبًا وكرهًا. إذا أحببتني أحب خواصي، ولا تحاول أن تجعلني إسمنتًا.

فـي اليـوم الثالـث خرجنـا إلـى منتـزه لاجرانـج، تنحـدر أراضيه الشاسـعة نـزولًا باتجـاه بحيـرة «جنيفا» مما يتيـح مشـاهدة البلدة وما وراءهـا فـي منظر بديـع، زادته جمـالًا جبـال الألب التـي ظهرت من بعيد. قررت أن أشتري السعادة بالحزن، كل شيء في هذه المدينة كان يبدو كالحلم، كل مكان وكل خطوة وكلمة، الشـيء الوحيد الذي كان يجذبنـي للأرض ويعيدني لمصر هو (أحمد وشـيماء) لا سـيما أنهما انفصلا عـن الجميع وبدا وكأنهما يعيشـان حالة من حـالات الانتقال مـن الصداقـة للحُب، لكن في ظل الأجواء السـاحرة التي كنا نعيشـها

كنت أدرك أن نزولهما إلى مصر سيكون كفيلًا بأن يعيدهما إلى نقطة الصداقة والتردد والخوف من المستقبل مرة أخرى.

لم يكن عقلي قد توقف عن التفكير في «حُسن»، لقاؤنا القدري، حديثنا القصير، هالة الإلهام التي تحيطها، نسيانها لأبي. هذا النسيان الذي وجع قلبي كأنه يخصني أنا. وكأنها هي الأخرى كانت مشغولة بي، إذ جاءني خبر عن طلبها لمقابلتي في البيت الذي تقيم فيه في مدينة لوزان، أثار هذا الموعد تبجيل زملاء المعتكف لي، وبدأنا نقاشاتٍ طويلة عن الأدب، كنت أود أن أتوقف خلالها وأقول لهم «أنتم مخطئون..أنا لست أديبة أبدًا..أنا هنا بالصدفة» لكنني حرصت على الصورة التي يتوجب على أعضاء المعتكف أن يكونوا عليها.

في هذه الساعات غادرني اليأس الذي لمس قلبي، اخترعت مبررا لـ «مازن»، هذا الرجل اللطيف دائمًا، لم يُسِئْ لي في لحظة منذ عرفته، لا سبب على وجه الأرض يجعلني أغضب منه، أو أتحفز لغيابه. أما زوجي فتجاهلت إهماله. من الأحمق الذي أخبر الرجل أن يَرُدَّ بُعد امرأته بإهمال، إن المسافات لا تتباعد إلا بالسير في الاتجاه المعاكس، وما الذي يضير طرف أن يتجه قبالة من يبعد ويعيده معه في الطريق. اللطف..هذا السر الكبير الذي لا يستخدمه الإنسان، رغم أنه المفتاح لكل الخزائن الحلوة في الطباع الطيبة المخفية. لم يحاول زوجي أن يكون لطيفًا أبدًا.

***

لم يكن هذا هو البيت الذي تخيلتها تسكنه، غرفة في منزل أصدقاء لها، المكان أشبه بمشفى معزول، هواؤه نقي، محاط بالخضار الواسع، بيت صغير وهادئ له قرميد أحمر يشبه معظم البيوت التي رأيتها في المدينة، كانت تنتظرني في بهو غرفتها، الغرفة حوائطها من زجاج، نافذة كبيرة بطول الغرفة، وشرفة مسيجة بالزجاج، تنسدل على الزجاج ستائر خفيفة ملونة بشكل ملفت، صافحتها وجلست قبالتها على مقعد من الجلد الفاتح، كانت ترتدي جينزًا وسترة شتوية من الصوف بلون الماستردة، ابتسامتها كانت أكبر وأقل تكلفًا عن أول لقاء لنا، قالت:

- أردت أن أعتذر لك عن مقابلتنا السابقة، في الحقيقة ألجمتني مفاجأة مقابلتك هنا.

- لا داعي للاعتذار، أنا أفهم.

- هل أعجبك المنزل؟

- المنزل رائع. هل تقيمين دائمًا مع أصدقاء؟

- للأسف لا. أنا أفضّل العزلة، وإن كنت أحتاج إلى الناس، معادلة غريبة عجزت عن حلها، أرتاح في هذه الحالة من تواجدي بين ناس وغربتي فيهم.

قالت وهي تصب الشاي من براد خزفي أمامها،

- قرأت الرسائل إذن! هل لي أن أطلبها؟

- ليست معي كلها، معي رسالة واحدة..تركتها في المعتكف.

قالت -وهي تقلب الشاي دون أن تسألني عن سكّري-:

- أحببت أباكِ.

رأيت دمعة وحيدة تتلألأ في عينها، عجزت عن الرد، لا أعرف هل أرد نيابة عنه وأقول إنه أحبها بالمثل، أم أصمت وأحترم اعترافها، قالت:

- كان دائمًا يتهمني بأنني أتوهم الحب، لكني كنت أعرف أنني أحبه حبًا حقيقيًا.

سألت: هل كان يخطر ببالك على مدى الأعوام؟

ردت: كان يخطر مثل الحلم، مرات قليلة، بعيدة، كأنه رواية تمر أحداثها في خيالي ولكنني لا أحاول أن أعيد قراءتها.

- لماذا نسيته؟

تنهدت: قصة طويلة لا أريد أن أخوض فيها، كان يجب أن أستغني.

-تستغنين عنه؟

- عن كل شيء، عنه، وعن أصدقائي، بلدي وعملي وحياتي القديمة.

- كيف يمكن لإنسان أن يستغنى عن سيقان حياته، الحب، الأصدقاء، الأهل، العمل، والوطن؟

- لم يكونوا سيقان حياتي، كانـوا جذورها. قلعت جذوري، وكم كان صعبًا، وكم تعذبت حتى أتخطى هذه الأيام.

- لمـاذا قلعـت جذورك؟ كان من الممكـن أن تتركيه دون كل هذا العذاب.

- أبـوك كان متوغلا فيَّ، في روحي ودمي وأيامي، تركه كان أشـبه بالانتحار، لـم يكن أمامي سـوى الاستغناء عن كل شيء، حتى أستطيع أن أبدأ من جديد.

- هل يمكن للإنسان أن ينبت جذورًا جديدة في أرض جديدة؟

قالت مبتسـمة: هذا ما فعلتـه. كانت أصعب مرحلة في الاسـتغناء هـي الوقت ما بين نزع الجذور وظهور جذور جديدة، فترة اللا انتماء، الـلا شـيء، كأنك معلقـة في الهواء، جذع بلا شـيء يجعله مسـتقيمًا، يربطـه بـالأرض. كنـت أهـرب بعزم ما فـيَّ من شـعور الفقد، شـعور الاسـتغناء كان أطيـب وأعذب. كنـت نبتة جديدة، قطعـة لحم جاءت للحياة توًا. صفحة بيضاء لـم تعرف ألم الشطب ولـم تتجعد بعد.

اسـتمررت فـي الانغماس فـي المـآزق، اللغة الجديـدة، الأرض الجديـدة، الجيـران الجـدد، المجتمـع الجديـد، بعـد أن تصيـري في الخامسـة والثلاثين الدخول في صراعات العمل، العلاقات العاطفية، ومجابهـة الحيـاة، أمر صعب بعض الشـيء. كان عليّ أن أنشـغل عن الجـزء الناقـص المبتور فيَّ بتطوير الجزء الموجـود، الدائم، كمن فقد إحدى حواسـه فعمل على تقويـة باقي الحواس ليعيـش حياة طبيعية.

النجـاح، ومشـاركة الحياة مع زوج صديـق ينتمي لعالـم آخر وخلفية أخرى، أنبتا لي جذورًا أقوى وأبقى. كل ما جنيته فيما بعد من استقرار ومحبة كان هو الزهور التي نبتت في حياتي.

- لكن بقي حبك لأبي في عروقك.

- أبدًا. كان في أوراقي التي تسقط يومًا بعد يوم.

- كيـف عرفـتِ إذن أن حبك له كان حقيقيًّـا؟ كنت أظن أن الحُب الحقيقي لا يذوي.

- لـو لم يكن حقيقيًّا لما كنت بحاجة للاسـتغناء عنه..وعن حياتي التي ارتبطت به. نحن لا نستغني عن الوهم..يتركنا بخفة أو بثقل دون أن تتغير حياتنا ونحتاج أن نولد من جديد.

- أنـا لم أشـك في صـدق مشاعرك..رسـائلك كانت تمـس قلبي بشـكل مذهل. ورغم أنني ابنة المـرأة التي..إلّا أنني أحببت حُبك، بل وصدقته.

ابتسمت بمرارة وهي تقول: المُرسل له لم يصدقه.

غريبـة أن تقع رسـائلي في يدك، لم أتخيـل أن يحدث هذا في أكثر تصوراتي غرابة. أتدرين، أظن أن أباكِ ترك لك الرسائل عمدًا.

- تتوقعين أنه مختف عمدًا.

- بالتأكيد. إلا إذا كان نضوجه الأربعيني تحول لهوس ستيني.

قلت ضاحكة: خطر في بالي أنه سافر ليلتقيكِ.

ضحكت وهي تقول: لن يفعلها. ليس «يحيى»! لم يكن أبدًا سينمائيًا عاطفيًا لدرجة أن يسافر لأجل امرأة مرت في حياته قبل عشرين عامًا، غير أنه يكره السفر. تقابلنا مرة واحدة منذ عدة سنوات في مؤتمر الرواية العربية في القاهرة، دعاني على فنجان قهوة ولبيت دعوته، طلب مني عودة التواصل يومها. كان ودودًا، لطيفًا.

قدمت لي قطع شوكولاتة باللوز والعسل، كنت أعرف هذا النوع، فهو الذي يحبه أبي ويحضره لي دائمًا، لا أدري الآن إن كانت اختياره وقلدته، أم اختيارها وقلدها.

قُلت: وهل عدت للاتصال به ومراسلته؟

حسبت في بالي أنه منذ عدة سنوات كان يعيش أهدأ سنواته مع أمي قبل رحيلها.

- اعتذرت منه. لم أره أو أسمع عنه من بعدها.

حكيت لها عن بحثي عنه في الجمالية، عن مقابلتي لـ «ندى عصام»، وعن رحلتي لدبي. كانت هادئة في استماعها، تتشرب الكلمات وتصدر إيماءات متفهّمة، بدأ الليل يداهمنا، فهممت بالرحيل في الموعد الذي حددته لي إدارية المعتكف، كان هذا ضد رغبتي، وأكثر ما أثار حنقي يومها، لا أحب الاضطرار. قلت بعض كلمات إنهاء الحوار الرتيبة، قالت وهي تلملم نفسها استعدادًا للوداع:

- هل جربت أن تبحثي عنه في البلد؟

- أي بلد؟

- قريتـه.. أعتقد كانت في الصعيـد. كان يذهب هناك كلما ضاقت به الدنيا ويعود بهدوء وإقبال أكثر على الكتابة والحياة.

- لا أذكر أنه سافر هناك إلا في حالات الوفاة للأقارب. ربما كانت عادة قديمة.

- ربما جددها!

عند باب الغرفة تركتني مسرعة، أحضرت شيئًا من خزانتها، قالت: هـذا آخـر خطاب وصلني من «يحيى».. والوحيـد الذي أحتفظ به منذ تركت مصر.

مددت يدي لآخذه، سحبته مرة أخرى، قالت: صوّريه بهاتفك.

ودعتنـي بحفـاوة مصريـة، حضـن طويـل وقبلتين علـى الخدين، دموع معلقة، وكلمات مرتبكة حميمة. السـائق الذي أرسـلته لي إدارة المعتكـف ينتظرني، لكن قدماي لا تريدان انثناء الجلوس مرة أخرى، قلبي المتخم بالأسـئلة لا يريد العـودة الآن، معدتي تضور جوعًا، ولا يناسـبها الليلـة أكل المعتكـف غيـر المفهـوم ولا الأكل النباتي الذي عودت نفسي عليه في الأسابيع الأخيرة.

انحرفـت لرصيـف جانبي تجلس عليـه فتاتان تبـدوان مراهقتين، يدخنـان ويتحدثـان إنجليزية واضحـة، ركيكة، جلسـت جوارهما في

صمـت، ناولتني إحداهما سـيجارة، دخنّتها بنهـم دون أن أنطق، كنت بحاجة ماسـة إليها في هذه اللحظة، سـألتهما عن مطعم قريب، تبادلا نظـرة وقالا «هيّا»، كنـت بحاجة لأن أخرج عن إطاري، عن مسـاري، عـن جلدي إن أمكن، كانت أشـد لحظاتي شـعورًا بالتيـه، والرغبة في عدم الوصول في آن.

ركبـت خلفهما على «موتوسـيكل»، كنت قد قـررت بالاتفاق مع معدتـي إلغـاء عقلي وخـوض المغامرة كاملـة. دخلنا بين عـدة منازل ومررنا بعدة شوارع حتى وصلنا لشارع مضاء بالكامل مثل عروسة في ليلة زفاف، عرفت بحدسي أنه هنا مثل شوارع وسط البلد في القاهرة، دكاكيـن ثياب تبدو رخيصة، مطاعم ومقاهٍ صغيرة تضج بالناس، وقفنا أمـام إحدى المطاعم العالمية المعروفة، دخلت معهما بثقة كبيرة كأننا أصدقاء عمر، طلبتا شطائر الهامبرجر بالجبن، وطلبت شطائر الدجاج المقلـي والكثير من البطاطس المقلية والكروكيت. كنت أشـبع فيعود عقلي تدريجيًّا، وتنسحب معدتي بعد أن أتمت مهمتها.

عندما طلبت من السائق أن يأتي ليقلني من هذا المكان، تأخر، لم تصدق إدارية المعتكف أن «حُسـن» دعتني علـى الطعام في هذا المطعم، يبدو أنها اتصلت بها لتتأكد، ويبدو أن «حُسن» كذبت لأجلي. لم تستغن عني بعد.

23

العزيزة حُسن،

أنا آسف. أضيفي هذا الأسف لاعتذاراتي الكثيرة السابقة. أعرف أنها تتزايد بشكل كبير وأنني لا أملك غيرها. لكن ما يمكنني أن أفعل حيال غضبك وألمك وحزنك غير الاعتذار. حتى مشاعري الغنية، أغنى مني في الحقيقة، الاستثنائية كما أظنك تعرفين، الكثيفة كشجر الغابات، المتجهة لك مثل زهرات دوار الشمس، لا تكفي.

امنحيني بعض الأعذار، مثل كل مرة، هذه المرة أحتاج لطيبتك أكثر. ثمة احتمالات ثلاثة لديك فيما يتعلق بي. إذا أردتِ أن تعاقبيني، عاقبيني وسأكون مستعدًا. إذا أردتِ أن تبقي، ابقي وسأكون ممتنًّا، إذا أردتِ أن ترحلي، ارحلي وسأساعدك على ذلك. كل ما يهمني أن تتخذي قرارك وأنت راضية عن نفسك، غير غاضبة مني. أنتِ تعرفين أنني لست رجل شعارات، بنفس القدر الذي أنا به لست رجل مجازفات.

تمنيت كثيرًا أن تتوقفي عن خداع نفسك، ألم يكفك ما لاقيتِ من إيذاء نفسي جراء الوهم الذي تلقين بنفسك فيه، أنت كما قلت لك

مـرارًا، تعانين من نقص عاطفي، وتوافق هذا الشـعور مع وجودي في حياتـك كصديق مخلـص. فدخلت فقاعة الوهم ورفضـت مغادرتها، وبرغم تحذيري المسـتمر من هذا التـورط، الذي قد يؤدي إلى المزيد مـن الألـم، والفـراق الحتمـي. إلّا أنـك اسـتمررت وعاندت..أيتهـا العنيدة!

كنت أراكِ مهملة في حياتك، لا تريدين أن يشـفق عليكِ أحد، أو أن يحميـكِ أحـد، وهـذا كان دوري، وكانت قواعـدي أن أكون معك صديقًا وقريبًا وسـندًا، لم يكن بحسـباني أن نصبـح أكثر من صديقين، من سـيتكبد ثمن هذا؟ خسارتك وخسـارتي. لكنك رفضت قواعدي وضربت بها عرض الحائط. لم أتخيل يومًا أن أصير عبئًا إضافيًا عليكِ، أن أكون أحد عذاباتك، أن تنزل دموعك لأجلي، أنا الذي وكلت نفسي لأمسحها. لكنك سقتِ الأمور إلى هذه الحافة الخطيرة.

أنا لسـت متحيزًا ضدك، أصبحتِ في الفتـرة الأخيرة مركز الكون لي وسـر سـعادته، تلاقي أرواحنا فـي الكتابة هو الحافـز الذي يعينني لأسـتمر، لأكتب، لأقترب من نفسـي. لـم أخبرك بهذا مـن قبل، لكن أنـا أيضًا أحتاجـك بقدر ما تحتاجين إلي. في هـذا العالم المضطرب، الكئيـب، أنـتِ ورسـائلك، دائمًـا طوق النجـاة الذي يبقينـي على قيد الحيـاة. لكن يا صغيرتي صدقيني عندما أخبرك أن الحُب سيفسـد كل شـيء. فلا أنا أسـتطيع الاقتراب ولا أنـتِ مهيأة له. هـذا الحاجز خير لكلينا.

غـدًا ستجدين حبيبًا تتكئين عليه وتعيشين في دفئه، لكن أنا لا أستطيع أن أقدم لك شيئًا، أنا وحيد جدًا، مخطئ جدًا، ولا أريد أن أدنسك بخطئي، خطئي الكبير يا عزيزتي أنني فشلت في أن أسعد أقرب الناس لي، كنت غارقًا في تعاستي قبل أن أعرفك، كنت مثلك محتاجًا ليد تربت على ظهري، لصوت يقول لي أنت لست بهذا السوء،لا أحد يشعر بآفة الغربة التي تقتل روحي كل يوم، بهذا الجفاء الذي يحاصرني، تمر أيام لا أسمع فيها «صباح الخير»، لا يلمس قلبي أو جسدي شيء، حتى أتيتِ أنتِ وكتبت لي كل هذا الكلام، ونظرتِ لي بعين الحنان. فما رأيت لمسة أجمل من نظرة عينيكِ، كيف رأيتني عذبًا؟ كيف وصلت لبؤرة روحي. أنتِ بالنسبة لي فتاة لم أر مثلها من قبل. عيناكِ تقهران العالم، حماسك، أحلامك، عفويتك، وحتى ضجرك. جذبوني لهذا الخطر الكبير. والذي أخذت على نفسي عهدًا لحمايتك منه. هل رأيتِ مدى تعقد الأمر؟

أقول لكِ. اذهبي وعيشي حياتك، اكتبي، اقرئي، ازرعي الزهور، تعلمي العزف على البيانو، ادرسي النقد، أحبي، تزوجي، كوني أمًا، أنا هنا أفكر بك طوال اليوم، حتى أنني أحيانًا أنسى ما أود تحضيره وقوله لطلابي. أقول هي الآن تشرب القهوة، الآن تكتب، الآن تحضّر للندوة، الآن تنام على سريرها. كيف أشرح لك أن كل ما أتمناه أن أراكِ سعيدة، ليس تضحية مني، لكن لأن سعادتك تنعكس على رضائي عن الحياة.

سألتني في زمرة غضبك كيف أستطيع التحكم في مشاعري. الإجابة هي أنني أحاول تذكير نفسي بالمبادئ العامة التي قررت أن أعيش عليها، بتصور تبعات أي تصرف وتقدير إن كان تصرفًا حكيمًا أم لا، وبأن الدنيا قصيرة والله يكافئ الصابرين براحة البال والمعروف. غضبك الشديد يا صغيرتي لأنك في وضع سيظل سلبيًّا إن لم تغيريه، أي إنسان يحمل مشاعر معينة لإنسان آخر يتوقع ردود أفعال وتصرفات معينة، وإذا لم تصله يصاب بالإحباط والحزن والغضب، وضعنا يؤهلنا لصداقة متينة، ولا يسمح لنا بأي تطور آخر، أية مشاعر أخرى ستظل تولد التوتر والتوقع والإحباط، أنا مُنحت القدرة على التحكم في مشاعري، وأظن أن عليكِ تدريب نفسك على ذلك لكي تستمر العلاقة كعلاقة صداقة جميلة، أو التفكير في حل آخر، وأنا سأساندك في أي قرار أو تجربة، ويمكن أن أفكر معك إذا أردتِ ذلك.

وأخيرًا، أريدك أن تعلمي بأن رسائلك أحدثت لي فارقًا عظيمًا، وأنني سعيد أشد السعادة أنني التقيت بك، وأنك موجودة وأنك تؤلفين. لا أريد أن أصدق حدسي بأنك لن تكتبي لي مرّة أخرى، أنا هنا في الغربة الثقيلة، سأضع هذه الرسالة في البريد غدًا صباحًا، وسيكون من دواعي سروري أن تردي، وأن أبقى على تواصل معك.

يحيى

24

«لـي قـدم واحدة تـكاد لا تلمـس الأرض، ولي أياد كثيـرة تعمل وتطبـخ وترتب وتكتب وتربت على قلوب الأحباب، ولي أجنحة غير مرئيـة تنقلنـي بخفة من حال إلى حال، ولي فـم واحد يمضغ الألم في صمـت، ولي أنف واحـد مزكوم دائمًـا بالذكريات، ولي لسـان واحد لصقته في حلقي حتى لا ينطق حُبًّا أو شـوقًا أو غضبًا، ولي أُذن واحدة كانت مفروشـة بـورود الثقة حتـى أصبحت جرداء ترفـض أن تصدق شيئًا، وليس لي عيون.. أنا ليس لي عيون»

صفـق الجميع بحرارة عندما انتهيت مـن قراءة نصي، كنت أبكي. الكتابـة أمـر مرهق، بالأمـس طُلِب منـا أن نقضي خمس عشـرة دقيقة نكتـب فيهـا عـن أسـوأ صدمـة مررنا بها فـي الحيـاة، أقسـى لحظات عشـناها، تلك التي لم نجرؤ على الحكي عنها لأحد من قبل، الغريب أن بعض رفقاء المعتكف بدءوا في البكاء، مما استدعى دموعي، كنت أكتب عن لحظة قرر أبي وأمي الطلاق، رحل هو من البيت وبقيت هي تُفجّـر انهيارها في كل شـيء، يومها كان الكون فـي عيني بلون الحمم البركانيـة، برتقالـي متوهـج. تعجبت أنني لـم أكتب عـن اختفاء أبي،

ولا عـن رحيل أمـي، كتبت عن لحظـة بعيدة وكانت مجـرد تهديد لم يتحقق.

تحدث إلينا خبير نفسي، قال إن بعض التعبيرات المستخدمة تتغير بتغيير الوقت، فمن مازالت جراحهم مفتوحة يبدءون الجمل باستخدام الضميـر «أنـا»، أمّا مـن التأمـت جراحهم يبـدءون الجمل باسـتخدام ضمائـر الغائـب «هـو» و«هـي»، والسـبب أن نظرتهم للأمـور تتحول تدريجيًّـا لتصبح أقل تمركـزًا حول ذواتهم. وأن من يكتب مسـتخدمًا كلمـة «بسـبب» فهو يحـول مواقفه لحكايـات يحاول فهمهـا وترتيبها بصـورة منطقية، وأن هذه الطريقة في تحويل المشـاعر لحكايات تؤثّر في الجهاز المناعي بالإيجاب. لهذا لا يجب علينا أن نبحث عن حلول بالكتابـة وإنما أن نعيـد ترتيب عواطفنا من خلال الكتابة، الغريب أنني لاحظت أن كل جملي تبدأ بـ «أنا».

لـم أكـن أكتب رواية مثل زملائي في الثماني سـاعات المخصصة للكتابة، كنت أكتب شـيئًا يشـبه الحياة، مواقف وأفكار وشـخصيات، كنـت أجـرّب كل أنمـاط التنقـل مـن مشـاعر لأخـرى ومـن وجهات نظـر لأخرى ومن قناعـات للنقيض، أسـعدني هذا بقدر ما شوشـني، للحظـات كنت أتوقف لأتذكر من أنا، هُيِّـئ لي أنني لا أعرفني، كيف يمكن للإنسـان أن يحتفظ داخله بآخر لا يعرفه، كيف يتجاهل وجوده إلى هذه الدرجة، ينبذه رغم أنه الحقيقي، النسـخة الأصلية من نفسـه. النسخة التي تعرف ما تريده على الأقل.

خطـاب أبـي رقد عميقًـا في قلبي، تقـت للقائه أكثر مـن أي وقت مضى، أريد أن أسمع منه الحكاية فربما يكون أقل تحفظًا من «حُسن»، فـي هذه الأيـام لم أتوقف عن إرسـال الرسـائل لـ «مـازن»، أصبحت رسـائل أطول وأعمق، ليسـت مجرد رسـائل بين صديقين على مواقع التواصـل، لكني كتبت له كأني أكتب لنفسـي، أوثّق لحظات مهمة في حياتي، غدًا اليوم الأخير لي في سويسـرا، استوحشت أولادي، ورغم ذلك لم أكن متشـجعة على العودة لحياتي السابقة، الخالية من نفسي، الممتلئة بالآخرين.

كنا ننتظر في المساء آخر محاضرة، للتعرف على أعضاء المعتكف والقائميـن عليه عن قـرب، التعرف كذلك على مـدى تأثير المعتكف علينا، ولمعرفة طرق التواصل معهم حتى بعد عودتنا إلى بلادنا، كانوا شـابين وفتاة في بداية الثلاثينيات، شديدي اللطف، كل همهم جدوى الكتابـة والإنسـانية، ومـا تثيرانـه من عطف. ظهـر بجوارهـم قبل بدء المحاضرة شـخصٌ لم يظهر من بداية المعتكف، منذ رأيته بدا داخلي شـعور غريب بالفضـول تجاهه، ليس هذا الشـعور الذي يشـبه الألفة عند أول لقاء للأحبة في الأفلام والروايات الرومانسية، ولا هو شعور شـعاع النور وسـط العتمـة، لأن كل المكان كان نورًا بالنسـبة لي على الأقل، لكنه شعور يشبه غبطة أن تكون في حضرة شيء عظيم.

كان ينظر لي باستمرار، عيناي لم تخطئ، له وجه كالشفاء وابتسامة لا تفارقه، تضيق معها عينان ماكرتان، هذا المكر الطيب، الشقي. كنت أبادله الابتسام، فقدت تركيزي مع المتحدث وانتبهت لرصد حركة يده

البسيطة، ونظرات عينيه الهادئة، حتى أنهى المتحدث كلامه وأمسك بكتفه وهو يعرفّنا به، قال ضاحكًا: «في الواقع لا أدري سبب حضورك المبكر بيوم عن موعدك، تكره الأضواء لكنك تريد أن تخطفها اليوم؟ أحـب أن أعرفكم بزميلنا مـن مصر، الكاتب الخلوق الخجول، «مازن جلال».

لحظة نطق اسـمه اقشـعر بدني كله، لا أعرف كيف بدوت ولكني بالتأكيـد كنت بلهاء تضحك وتشير عليـه دون أن تنطق بكلمة، بادلني الضحكـة بضحكـة صغيرة ضاقـت فيها عيناه أكثـر وظهرت الخطوط المحببـة على جانبيها، قال من بعيد «إزيـك» قلت دون صوت بحركة شـفاة فقط «مـش مصدقة». عندما أحـاول الآن تذكر لحظة أعذب من هـذه مرت بحياتـي لا أجد، ربما تكـون ذاكرتي ظالمة، لكـن ما فائدة الذاكرة إن اسـتدعت كل شـيء، وما ذنبها إن لم تسـتدع إلّا اللحظات الصادقة، الحقيقية فقط؟!.

مـرت دقائـق طويلة وأنا وهو نتبـادل النظرات والابتسـامات التي قالت كل شـيء، عاتبتـه واعتذر، اطمأن عليّ وطمأنته، وبّخته وشـرح لي، تفهمت وصالحني، سـردت له سـعادتي وقال إنـه يعرف، ربطت بين حضوري هنا وكونه أحد المنسـقين، وافقني وتمنى لي الاستفادة، لمتـه على هروبه من لقائي في مصر، فقال أنـا الآن هنا..أمامك وملء عينيك، في بلد غريب مثل كل الحكايات الغريبة.

صافحني بسـرعة بعـد انتهاء الحوار القصير الـذي تحدث فيه عن أهميـة المعتكـف للكاتب، كان الـكلام ما زال كثيرًا على شـفتي يكاد

ينزلق منها، لكني لم أقل سوى «أخيرًا!» قال: بإمكاننا أن نتحدث في غرفة الاجتماعات، دخلنا غرفة بها مائدة مستديرة، جلس عند أبعد نقطة عني، كان قلبي ما زال يرتعد، وحروفي تتلعثم، الزحام داخلي ينتظر إشارة صغيرة منه لينساب في كل مكان، قال مُداعبًا:

- يا لئيمة كنتِ تعرفين أنني أعمل في المعتكف.

ضحكت بصوت عال سرعان ما كتمته وأنا أحاول ضبط أعصابي.

- لماذا لم تخبرني؟

- تخيلت هذه اللحظة قبل أن تحدث وأحسست كم ستكون مذهلة.

- مازلت لا أملك التحكم بأعصابي..

ضحك، قلت:

- بتضحك؟ طيب..لماذا لم تأت من أول يوم؟

- أنا مسئول عن المجموعة التي ستليكم.

- لماذا لم تضعني فيها إذن؟

- هكذا أفضل.

صمتنا. كنت ما أزال مصعوقة من رؤية صاحب الصوت الذي طالما طمأنني وأسعدني في الأيام الماضية. قطع هو الصمت عندما

قال بمرح:

-عرفت أنك من أفضل المشـاركين في المعتكف، يقولون إن جل تركيـزك كان في الكتابة ولـم تغادري المعتكف كثيرًا مثل الآخرين..أنا فخور بك يا «ليلى».

ككل القصـص، أنـا أيضًـا شـعرت أن نطقه لحروف اسـمي جعله مختلفًا وبهيًّا، قلت:

- الآن فهمت. لولاك لما شاركت أبدًا. أنا لست أديبة من الأساس.. قصة حضوري هنا كانت أغرب ما يمكن أن يحدث لي.

- كل الأشـياء الجميلة من الممكن أن تحدث لك إن أنت عافرت وحاولت أن تجديها.

- لو كان صحيحًا لكنت وجدت أبي.

- ربما غيابه عنك الآن يعرّفك على وجه آخر من الجمال.

- كنت تعرف أنني سألتقي بـ «حُسن»؟

- كنت أعرف.

- أنت من دعوتها؟

- بالضبط.

- لست سهلًا كما كان يبدو عليك.

- وأنتِ لست مسالمة كما كان يبدو عليكِ.

- لا أحب الخطط.

- تحبينها جدًا. هكذا حكى لي أستاذ «يحيى» عن إعجابك بالخطط وحبك للمفاجآت. يوم عيد ميلادك العاشر عندما أحضر أصدقاءك للبيت واستقبلتهم بالبيجامة وكنتِ أسعد ما يكون، في عيد ميلادك الثالث عشر فاجأك بتذكرة طيران لمصر لتقضي بعضًا من إجازتك هناك كما كنت تحلمين، ويوم نتيجة الثانوية العامة عندما أحضر لك تذاكر لحفلة مطربك المفضل، في إحدى الإجازات فاجأك بسفرية للأقصر وأسوان كما تمنيتِ، ويوم تخرجك حجز لك حفلا موسيقيًا بالأوبرا وكانت مفاجأة سعيدة، غير أنك لم تذهبي إذعانًا لرغبة والدتك.

دمعت عيناي، نعم، كان هذا هو أبي الذي لم تسمح لي غشاوة الخلاف أن أراه أبدًا، ومع كل مفاجأة كانت تنقلب سعادتي لتعاسة. الآن ميّزت أنني كنت له خيبة أمل وسببًا للحُزن.

قلت: أنت تعرف أكثر مما يجب.

قال ضاحكًا: لا..أنا لا أعرف إلّا القليل.

- لماذا لم تقابلني في مصر؟

- ولماذا أقابلك لأول مرة في مصر إذا كان بإمكاني أن أقابلك لأول مرة في سويسرا؟

- لكنك لم تجعل فرحتي بهذا اللقاء تكتمل لأنني مُسافرة في الصباح.

- كنت أريدك أن تركزي على الكتابة والاكتشاف والعزلة. وجودي كان سيجعل لك صديقًا وهذا ضد قواعد المعتكف.

- كنت سألتقيك مثل الغرباء، لكن وجودك كان سيسعدني.

- أنا أكبر منك وأعرف أننا لن نكون كغرباء ولن نتوقف عن اختراع الحجج للقاء والحديث طوال اليوم.

ضحكت: أنت لست أكبر مني بكثير..كل الحكاية بضعة أعوام.

- ألا تعرفين أن ما يقدّر السن هو الشعور.. وهذا شعوري تجاهك.

ارتبكت من جملته الأخيرة، حاولت أن أبدو جادة ومتماسكة، نظر إلى يدي، كنت دون شعور مني أداعب خاتم الزواج، لا أذكر منذ متى، ربما منذ بداية حديثنا. لاحظت أنه لا يرتدي خاتم زواج، قال دون أن أسأله: «لا أطيق الخواتم ولا الساعات».

تحدثنا عن كل شيء مر بي في المعتكف، عن الكتابة، «أحمد وشيماء»، الكتّاب الذين حاضرونا، وبالطبع عن «حُسن». أبدى سعادة واندهاشًا عندما حكيت له عن الغريبتين اللتين ركبت معهما الدراجة النارية وتناولت معهما الطعام، قال:

- هذا الجانب في شخصك تعرفت عليه هنا.

- كل الحكاية أنني احتجت أن أكون غيري ولو لساعة.

- لكنك لم تكوني غيرك..هذه أنت تمامًا.

- دعني أسألك لماذا تؤمن بي؟

- وما الفرق إن آمنت بك أم لا؟ ما الفرق إن لم تؤمني أنت بنفسك.

- عندما عرفتني كنت أؤمن بنفسي.

- أعرف..وربما هذا ما جذبني للاقتراب.

- في الحقيقة لم أكن واثقة بنفسي.

- أعرف.

- لكني كنت معتزة بنفسي جدا.

قال ضاحكًا: أعرف.

- كنت أشعر ببعض الشتات..

قال وهو يربت على يدي: أعرف.

دمعت عيناي رغمًا عني، قلت: لكنك بالتأكيد لا تعرف أنك ألطف رجل عرفته في حياتي.

ها قد قلت مغازلتي الأولى توًّا، بدأت أنسحب في نفسي وأهرب لداخلي، ربما شعر هو لأنه قال:

- لماذا تبكين الآن؟

- اللطف يجعلني أبكي.

قـال «تعالي» وهو يسـحبني من يدي، ثم عـاد يقول وهو يفتح باب الشرفة: أنتِ أيضًا ألطف إنسانة قابلتها في حياتي.

سحبت يدي من يده وأنا أردد: أنا سعيدة لأنني عرفتك.

قال: ليس في مثل سعادتي لأنني عرفتك.

الجمـل الأربعـة الأخيرة نطقناهـا بتناغم كأغنية، مـن هذه اللحظة أصبحنا نردد الأغنية كل يوم.

عندما دخلنا الشـرفة، قال وهو يلتفت لي: سـأريك أجمل منظر قد ترينه في سويسرا من هذه الشرفة.

لـم أكن رأيت هذا الجانب من البيت منذ أتيت، حجب عني الرؤية وهو يمازحني، عندما انسـحب من مرمى بصري، رأيت أمامي حديقة واسـعة، وفيرة الأشـجار، بها شـتى أنواع الزهور والنباتـات والطيور، علـى مسـافة يجـري نهـر صغيـر، علـى ضفافه بيـوت غربية بأسـقف مائلـة، في الخلفية جبال خضراء شـاهقة، على قمتها ثلج، والجو بارد وأطرافـي دافئـة. بعض قطرات المطـر الخفيف بللـت وجهي فكانت اللحظة حقيقية أكثر من كونها خيالا، كنت سعيدة رغم أني كنت أعلم أنني لست هنا من أجل ذلك كله.

25

غـادرت الطائـرة علـى عجـل، كل محاولاتـي للاتصـال بالأولاد وبأهـل زوجـي وبزوجـي نفسـه فشـلت، قلبـي الـذي كان يتفصد من السـعادة قبل سـاعات أصبح كقطعة قماش مهترئة تنفـذ منها الأحزان الثقيلـة الرابضة لتنتقل لرأسـي وتصيبني بالشـلل التام عـن التفكير في أي شـيء سوى الاحتمالات الكئيبة. السـعادة مثل الكحول تتبخر من أقل حرارة، والحزن إن غادر يعود سريعًا ليتكثف على أسطح القلوب الباردة. لكن قلبي كان دافئًا، لماذا لم يمنعه الدفء عن التكثّف؟

لملمـت حقائبـي واسـتقللت سـيارة أجـرة مـن المطـار مثل كل الغربـاء، تركـت الحقائـب في بيتـي الخالـي، الكئيـب، واتجهت إلى بيـت أهل زوجي، كنت قد اسـتنفذت كل أعصابـي ودمائي حتى أنني تعثرت بسـلم مسكنهم، سقطت وجرحت ركبتي، وأنا طفلة اللالعب، طفلـة الجلوس أمام التليفزيون ببـلادة. الآن أقع مثل الصغار. ضربت الجرس بضراوة، لابد أن مكروها حدث، مصيبة، موت، قبل أن أسقط تمامًا على الأرض فتح زوجي الباب.

تسـمرت في رعـب رهيب متضاعف، همسـت «متـى أتيت؟» ثم صرخـت «أين أولادي؟»، أذكر أصـوات أقدامهم الراكضة، وجوههم

المتلهفـة، ضمـات الولديـن التـي انتشـلتني مـن رعبي عنـد الأنفاس الأخيـرة، أذكـر وجه زوجي الغاضـب، صمته وكتمانه لشـيء رهيب، أذكـر أهل زوجي وسـلاماتهم الباردة ونظراتهم المحتقـرة، أذكر أنني ارتميـت على الكنبة القريبة التي كانت تجلس عليها ابنتي ودخلت في هيسـتيريا من البـكاء في حضنهـا، امتصت كل شـيء وذابت مخاوفي وهي تهدئني بكلمات طالما قلتها لها. أشار لي الصغير على قدم أخته الملفوفة بالشاش.

صـرف زوجـي الأطفال الذين حملـوا أختهم واختفـوا بالداخل، ولم يصرف أهله، سألني أمامهم كمحقق يسأل مذنبة: كنتِ فين؟

قلت: أنت تعرف أين كنت..في سويسرا.

- مع من؟

بدأت أحدس أن كذبتي انكشـفت، لم أنطق، من حقيبتي أخرجت استمارات وبطاقات احتفظت بهم من المنظمة المسئولة عن المعتكف والفنـدق، ألقيـت أمامـه كل أوراقي، كقاتـل يحمل كفنه، استسـلمت تمامًا، قلت:

- بعثة لمعتكف أدبي..فرصة قلما تأتي، كنت أحتاج إليها.

- لماذا كذبتِ علي؟

- كنت أعرف أنك سترفض، لم نتعاف من أثر سفرية دبي بعد.

- جميـل أنـك تعرفيـن كم سـببت لي سـفريتك الغبية مـن ضيق.

وجميـل أيضًـا أنك لـم تعبئـي بهذا وكـررت الأمـر، هذه المرة سـفر للفسحة، كذب وأنانية وانعدام للمسئولية.

- هل أتيت من قطر لتُسمعني هذا الكلام؟

- أتيـت من قطـر لأطمئن على ابنتي التي كسـرت كـوب زجاجي ودخـل الزجـاج فـي قدمها، احتاجـت إلى عمليـة جراحيـة، لأن أمها المهملة لم تكن هنا.

- وأين كان بابا وماما؟

- ليست مشكلتهم، لا تتنصلي. إنها مسئوليتك أنت.

- إنـه قدر..وأنـت رجـل مؤمن، تعـرف أن هذا كان سـيحدث في وجـودي أو غيابـي، ثـم إننـي أتركهـم وحدهم حتـى وأنا هنـا لقضاء المشاوير. لا تلق اللوم علي، أعصابي لم تعد تحتمل.

-حسـنًا، بإمكانك الذهاب حتى تتحسـن أعصابك ويتسـنى لنا أن نكمل حديثنا.

ناديت على الأولاد، قال: نحن سنبقى هنا. اذهبي وحدك للمنزل. وحاولي أن تعتادي على هذا، فأنا لن أترك الأولاد لأم لم تعد تهتم إلا بنفسها، تظن أنها صبية صغيرة، لا تراعي وقار سنها ومكانتها، وزوجها الغائب. اذهبي، أنا لا أريد أن أراك.

***

لماذا أنا لست محاربة؟

عُـدت إلى المنزل بدون أولادي، ينهشـني العجز ويجلدني تأنيب الضميـر، تتبروز في روحي ووجدانـي وعقلي جملة واحدة، قاتلة «أنا أم سـيئة»، في سـريري، تحت غطائي البارد بكيت بصوت عال، دموع لـم أعرف يومًا أنـي أختزنها، كانت ابنتي تنـزف وتتألم، تنام في غرفة عمليات، تتنفس المخدر، تتسـلل الأدوات الجراحية لجسدها، تُخاط وتُلـف بالشـاش والقطـن، وأنـا هناك، في بلـد آخر، أكتـب وأضحك وأتواصـل مـع مجانيـن. كان زوجي مفزوعًـا على ابنتـه، مصدومًا في كـذب زوجته البريئة، وكنت أنا أقف في شـرفة بعيدة مع غريب نتبادل أحاديث تُشـبه الإعجـاب. أي خداع وأي امرأة كنت؟ ليته يسـاعدني، ليته يصفح ويأخذ بيدي لأتعرف إلى نفسي معه.

لماذا الخطوات التي تقرّبني من نفسي تبعدني عن أحبائي؟

بالأمـس كنـت أشـعر أننـي امتلكـت كل شـيء، اليوم أشـعر أنني مسـلوبة من كل شيء، بداية من أولادي وحتى كرامتي، اليوم أنا غريبة عن نفسي، أكثر غرابة من الأمس، لم أتركهم معه لأنني ضعيفة وأخاف المواجهة، تركتهم لأنني احتجت أن أكون وحدي هذه الليلة، أن أرتب أوراقي وأستعيد بعضًا من أعصابي ودمائي.

فـي خضم حزني أرسـلت رسـالة لـ «مازن»، قلـت: «لا يمكننا أن نبقى أصدقاء» وحظرته على مواقع التواصل. كتبت العديد من رسائل العتاب والاعتذار والغضب لزوجي، لكني لم أرسـل أيًا منهم، ما زال

لـدي بعـض عقل يذكرنـي بمواقفي القديمـة معه، عندمـا كان يتركني فريسـة القهر دون أي رد، حتى توقفـت تماما عن حماقة العتاب. لكن الثمن كان بُعدي النفسـي عنه. حتـى الآن لا أدري لماذا يُفضّل الحياة الجافة الخالية من العتاب عن حياة العتاب النابع من حميمية؟

هاتفنـي مـازن، من بين دموعي حكيت لـه عمّا حدث، وجدت أنه من السخف أن أطلب منه أن نبتعد ونفترق كأننا كنا قريبين أو مرتبطين ونحن لم نلتق سوى مرة واحدة في إطار رسمي، لا شيء ملموس بيننا يُمكننـي من الإفلات، الحكايـة كلها في عقلي، لكنـه رغم ذلك تفهّم ولـم يتصل بي بعدها لمـدة طويلة. هاتفني أخي ثـم بعض صديقاتي، كنت بحاجة إلى مسـاعدة ومشورة حقيقية، سـمعت كل الآراء، لكني فضلـت الاعتمـاد على عقلـي. نفّضت حزني، أمسـكت ورقـة وقلمًا وبدأت في كتابة تحليل.

«ذنبي: الكذب.

ذنبه: الإهمال، الجفاء، التهرب مني، إثارة مخاوفي وقلقي.

النتيجة: معاقبتي بحرماني من أطفالي.

أنا لسـت صغيرة ليعاقبني، لست ابنته ليعاقبني، لست موظفة عنده ليعاقبني، لست خادمته ليعاقبني.

هو ذنبه أكبر، لذلك الغضب من حقي أنا.

إذا كان سيعتني بهم، هو..المسافر..الغائب، أكثر مني، إذا كان سينكر كل أعوام الاهتمام والمحبة والتضحيات من أجل كذبة واحدة دفعني لها، فليذهب إلى الجحيم.

ثلاثة أضلع في مثلث حياتي، بيتي، أولادي، عملي وهوايتي. أما زوجي فهو إما أن يكون البيت أو يكون أبا الأولاد، عليه هو أن يختار.

لن أتصل به

أنا لست مذنبة

لم أقصر مع بيتي وأولادي

هذا حقي وهذه حياتي»

لم أكن أعرف أن بحثي عن نفسي يعني فقداني لها، حاولت أن أعيش دون أن أفكّر في ما أفعله، دون أن أعرف ما علي أن أفعله وما يجدر بي فعله، كافحت حتى أكون مثل الجميع، عانيت حتى لا أصغي لقلبي، لكن الشغف سحبني من أطراف ثيابي ومشيت فوق آلامي وعجزي وتحركت عكس علامات الطريق، من الظل إلى الشمس، مشيت في كل الممرات التي قد تؤدي إلي، ظننت أنني لا أخاف. والآن فقدت قدرتي ليس على الرؤية فحسب، لكن على الحركة والتفكير والكلام. الآن قدماي مثبّتة على الأرض وظهري للجدار. لا أحتاج لأحد ولا أغفر لأحد. كل ما فيَّ لن يمنعني من التعرّف على الجزء الكافي مني الذي يمكّنني أن أتخذ قرارًا. حتى لو ابتلعني هذا القرار.

ربطت على قلبي حجرا، لم أحدثهم ولم يحدثوني، حدست أن إجازته على وشك الانتهاء، وأن أهله ضاقوا بأولادي وأهملوا فيهم، فلن يتركهم لهم أكثر من ذلك، الامتحانات اقتربت وأنا من أذاكر للصغيرين، هو لا يعرف عنهم إلا ما يعرفه الأقارب، لا يعرف كيف يفضلون الطعام، ماذا يريحهم في الثياب، الأماكن التي يحبونها، المطاعم التي يختارونها، لا يعرف أطباءهم وتمارينهم وهواياتهم، لا يعرف متى يفرحون، يضجرون أو يخافون؟

في اليوم الثالث اتصل بي «سليم»، قال بنبرته الصغيرة المحببة أنني أوحشه وأنه يريدني أن آتي، أخذت منه «ملك» سماعة الهاتف، قالت: تعالي أنا أحتاجك يا ماما، «مالك» تحدث أخيرًا، طلب مني بمباشرة ملقّنة أن آتي لمصالحة والده وآخذهم إلى البيت لأن الأسبوع القادم ستبدأ الامتحانات، أحكمت ربط الحجر على قلبي ورفضت، قلت لهم تعالوا، إذا كان لابد أن تحدث مُصالحة فلتحدث هنا، في بيتنا. كنت أعرف أن الخلافات تتعاظم في بيت الأهل وأنني هناك لا أملك إلا سلاح الصمت، الذي يجرني للإذعان.

في المساء أتوا جميعًا، نجحت خطتي، كنا أنا وزوجي أهدأ وخاصة بعد نوم الأطفال، لكن الهدوء لا يعني التسليم، قال:

- هذه ليست النهاية. عقابك سأؤجله.

قلت متجاهلة رعونته: ماذا تريد على العشاء؟

- بداية من العام الجديد سأنقل مدارسهم للدوحة، ليبقوا معي.

- هـذا كان طلبي القديم..كنت أود أن نبقى سـويًا، لكنك رفضت لأجل المصاريف.

- سيعيشون معي من بداية العام وأنت ابقي هنا.

- ولماذا من بداية العام؟ عيشوا سويًا واتركوني من الآن.

- أنت اخترت كل شيء، ولا أحد يربح في كل شيء.

- اخترت أن أكون نفسي، أن أحاول في كل شيء.

- للأسف، مضطر لتركهم معك إلى أن تنتهي الدراسة.

- يـا حـرام. أنصحـك أن تحضر لهـم مربية أفضل منـي تقوم على الاهتمام بهم. أنت لست مضطرًا أبدًا لإبقائهم معي.

- وهل سيطاوعك قلبك؟ كم أنك أم قاسية!

- كمـا طاوعك قلبك أن تحرم أطفالك من أمهم. لسـت أقل منك قسوة.

سكت قليلًا، ثم أشار بيده وهو يقول: حضّري لي بيض بالبسطرمة.

لـم ينته حوارنا هنا، كانت نقطـة فاصلة وصلنا لها بغرض التهدئة، أو بغرض التفكير. عندما قال: لا أسـتطيع أن أسـامحك، حكيت له أن الحيـاة تجارب، وأن على كل منا أن يتقبل تجربة الآخر، طالما أنها لن تمس أمان أسـرتنا، وأن ما حدث لابنتنا أمـر قدري لا يرتبط بوجودي أو غيابي، مثل المرة التي سـقط فيها «مالك» وكسـر ذراعه وهو برفقته فـي النادي، حكيت الكثير من الحكايات المقنعـة. في النهاية عاد عن

قرار نقل الأولاد للدوحة، قال: «اكتبي، اعملي، افعلي ما يحلو لك. لكن لا تعبثي بمستقبلنا ومستقبل أطفالنا. بيننا شركة، غير مسموح فيها بالخسارة».

في اليوم السابق لسفره ذهبنا لتناول الغداء في الخارج. في المطعم كنت أنظر لأبواب المراحيض أمامي، على يميني ستائر رمادية سميكة تخفي لون النهار، وعلى شمالي نادل يمر بسرعة. وهو أمامي. يبثني الكُره واللوم. على كل الأشياء التي أعرفها ولا أعرفها. قبلها بدقائق سألني عن المكان الذي أريده، طلبت منه بقعة بها هواء وماء. فأدخلني هذا المطعم وقال إنه أفضل مطاعم المدينة. ثم طلب لي أفضل أطباق السمك. السمك ميت في طبقي. الشوكة باردة.. وكذلك قلبي. استأذنت كامرأة أنيقة تقرر فجأة أن تدخل الحمام، لتبكي، لتتحدث على الهاتف، لتكمل محادثة على الماسنجر، لتصلح زواقها. لتفعل أي شيء إلا أن تفرغ مثانتها. يومها تمنيت لو أتركهم وأرحل.

عندما غادر للسفر في اليوم التالي، لحظة صفق الباب، لم أكن المرأة الخائفة، الحزينة، البائسة التي عادة أكونها في هذه اللحظة، شعرت براحة غريبة، بأن عبئًا فوق قلبي انزاح، أحزنني هذا الشعور. إنها فاتورة الكبت التي يدفعها الأزواج من المحبة والتشبث بهم.

26

اقتربـت مـن إتمام أعوامـي الأربعين ، كنت أظن قديمـا أنني بهذا العمر سأكون امرأة ناضجة ترتدي تنّورة سوداء وسترة لها أكتاف قطنية تداري كتفين صغيرين تتهدل الثياب فوقهما عادة، ترتدي حذاءً جلديا بكعب عال، وجوارب «فوال» خفيفة، تتحدث بهدوء وترسل الحكمة بـكل إشـارة منها، تقطّر كبرياء وقوة. لكني اكتشـفت أننـي مازلت أنا! لسـت المرأة التـي تخيلتها. كل شـيء يضعـف فيَّ يقوى أمامه شـيء آخـر، كل خـط يظهر وكل تكسّـر يَجِدُّ، يلتئـم أمامه جـرح مفتوح. أنا الآن أقترب منّي وتدهشـني نفسـي! بعد كل أعوام الصمت وسـاعات الشـكوى اكتشـفت أنني لم أعد المرأة التي تمتـن لمن يطيب خاطرها ويعطيهـا الحلول..أصبحـت امـرأة تحب مـن يلهمها..مـن يقول لها «افعلي كل ما يجعلك سعيدة».

قضيـت عيد ميلادي أذاكر مـع الأولاد، أعددت لهم كعكة وطلبنا بيتـزا، قضينـا وقتًا سـعيدًا في نهاية اليوم أمام شاشـة التلفاز لمشـاهدة فيلـم The BFG العمـلاق الصديـق، خلال اليوم لـم يعايدني زوجي، لكنه حرص على مهاتفة الأولاد، الذين ذكّروه بالمناسـبة، دون فائدة، منذ أسـبوع وأنا أوطّن نفسـي على هذا التصـرف، إنها فرصته العظيمة

لمعاقبتي، «العقاب» هذه الكلمة الغريبة التي لم أعشـها أبدًا، فلا شيء كان يدعـو أهلـي أو مُعلمِـيَّ إلـى معاقبة فتاة تسـير وفـق كل القوانين، والآن يأتـي زوجي وقـد اقتربت من الأربعين ليعاقبني، لأنني لم أسـر وفق قوانينه.

أصبحت أشـعر أنني أعيـش كالمطلقة بنفس مسـئوليات الزوجة، جسـدي يمـوت يومًا بعـد يوم، أشـعر أنني أفقـد قوامـي، ولوني، كل مـن يراني يعلّـق على بهتان وجهي، الأمر لا علاقـة له بكلمات الحب والغزل، لكن له علاقة بشـعوري الداخلي بأنني مسلوبة الكرامة، الآن فهمـت سـبب طلاق العديد مـن النسـاء، عندما تقف المـرأة فجأة في الحيـاة وحدها، مع وجـود باهت لرجل، لا يقدم إلّا الأشـياء المادية، حينها تشعر المرأة أنه يأمر في ما لا يملك.

تسـربت قوتي مني عندما نام الأولاد، كبالون اتسعت ثقوبه، نمت على سـريري مغطـاة بالكامل، متقوقعة على نفسـي في وضع الجنين، أسـمع قلبـي وهـو يدق سـريعًا، حزينًـا، أفقـت على صـوت نقر على البـاب، كان عاملا بأحد محلات الزهور المشـهورة في حي الرحاب، قدّم لي شتلة من الزهور الوردية والبنفسجية.

تعجبـت مـن الموقـف ومن أنها ليسـت باقة زهور إنمـا ورود في طينهـا، أشـعلت فيَّ الزهـور طاقة من البهجـة، جلسـت أتأملها كأنني أمـام معجزة، حتى رن هاتفي برسـالة، كان «مازنًا»، كتب لي «كل عام وأنـت بخير، أتمنى أن تحققي كل ما تتمنينه في هذا العام، وأن تكوني

أقوى وأسـعد..كما أتمنى أن تعجبك الزهـور، هل فكرت في الزراعة من قبل؟ أعتقد أنها ستسـعدك، ضعيها عند نافذة المطبخ لتريها دائمًا، أرجـو أن تكون حياتـك الآن أفضل. عندما تصلك رسـالتي اكتبي لي عن رؤيتك للمستقبل، وعمَّا تتمنين أن تحققيه في عامك الجديد».

بثّت فيَّ رسالته حالة غريبة، كنت قد شعرت بها عدة مرات خلال الشـهور الماضيـة، حالة من الرشـاقة فـي القلب والخطى، الاسـتهانة بالمشـاكل، وتعظيم التفاصيل الصغيرة، حالة من اللامبالاة المنطقية، ومن الجموح المشروع، أعتقد أن هذا يناسب تمامًا شعوري بالإلهام، أمسـكت هاتفـي، فتحـت صفحـة جديـدة علـى صنـدوق الرسـائل الإلكترونية وبدأت أكتب عن أشـياء أتخيلها وأدرك اسـتحالة حدوثها ومـع ذلـك بدأت تداعبنـي أحلام كانـت تزورني قديمًـا وأطردها، لم أفتـح لها الباب إلّا بعد سـنوات طويلة، والغريـب أنني كبرت وهي ما زالت غضّة، يبدو أن الأحلام لا تشيخ.

أرسـلت لـه رسـالة طويلـة مـن أكثر مـن ألف كلمـة. قرأتهـا بعد الإرسـال عشـرات المرات، في كل مرة أشـعر بتفاهتها وأنه حديث لا يمكـن أن يهم غيري. انتظرت حتـى الثالثة صباحًا، عندما أضاء هاتفي برسـالة منه قفزت مثل الأطفال، درت عدة دورات في الغرفة وأنا أقرأ إطراءه الرقيق، تشـجيعه الكبير، سعادته البالغة ونقاشه الذي لا ينتهي، آخر جملة من الرسـالة كانت سـؤالًا آخر، أجبته باختصار، رد بسؤال، استفضت في الإجابة، زاد من استفاضتي بالنقاش، تحدثنا عن الزهور

والكتابـة والكتب والأحلام، ثـم انتهينا قرب الفجـر كغريبين يودعان بعضهما بشكل رسمي.

***

في هذا الوقت طلبني الضابط الذي تولى البحث عن أبي قبل عدة أشـهر في مكتبه أخبرني أنه اكتشـف أن هناك شخصًا قام بسحب مبلغ مالي من حسـاب أبي البنكي عن طريق بطاقة الائتمان، وأنه يشـك أنه قد يكون أبي نفسه، أعطاني كشف حساب أرسله له البنك يفيد بسحب المبلـغ بالأمس، لاحظت أن هناك مبلغًا أيضًا قد نزل لنفس الحسـاب بتاريـخ أقدم لكـن في نفس فترة الاختفاء. سـألت الضابط عن إمكانية أن يكون من سـحب المبلغ لصًّا. لكنه اسـتبعد هذه الفكرة لأن آليات ماكينات الصرف لا تسـمح بالسـرقة. كنت أمام أحد الخيارين، إما أنه أبـي، أو شـخص كان يثق به أبـي. ذهابي إلى البنك لم يُجِب سـؤالي. لكنني على الأقل جمدت الحساب بمحضر الاختفاء.

فـي هـذا الوقت اكتشـفت مصادفة أنني ليس لـي أصدقاء، كل من عرفتهـن في سـنوات شـبابي مـن الجامعـة والعمل وأمهـات أصدقاء أطفالـي، كلهن ذرات غبار، تعلق قليلًا بحياتك ثم ما تنفك أن تسـقط عنك سريعًا مع أول حركة، كل الضحك والقفشات والنم والاتصالات الطويلة، لم تكن إلا تمضية وقت، مسـاعدات، مصالح، متنفس، لكن لا اهتمامات مشـتركة، لا تواصل روحي حقيقي، لا شـيء يجمعنا إلّا القشـور، هذا الاكتشـاف أصابنـي بالاكتئاب، ليس فقـط لأنني عرفت هذه الحقيقة، لكن لأن معرفتي بها أفسدت لي علاقتي بهن.

في رسائلنا المتواصلة أنا و«مازن» أخبرني أنه من الخطأ أن أتعامل مع الصداقات بمعايير، وأنه لا يوجد قشور أو أعماق، لكن كل إنسان به العمق والقشرة، ترى فيه ما يظهره لك، وأن النميمة والاهتمامات التافهة ليست دليلًا على سطحية، لكن ربما اختاروا أن يظهروا هذا الجانب لمداراة جوانب أخرى، طلب مني ألا أتعالى عليهم كوني لا أشبههم، أن أبقى معهم وأوسّع دائرتي، طالما أنهم لم يؤذوني.

في هذا الوقت كان «مازن» يرسل لي العديد من المقالات والروابط المفيدة، كل ما يخص الأدب والفنون، فيديوهات عن التنمية الذاتية، الصحة النفسية، وحتى الصناعات الحِرفية البسيطة ووصفات الطعام، الكثير من القصص الملهمة والنكات الظريفة، كان يفرح لكل ما يُفرحني، يتفنن في إبهاجي، لم أره يومًا حزينًا، إيمانه الراسخ بالغيب ورضاه الكبير حالا بينه وبين الانفعال والغضب والحزن. اتسعت روحي في هذه الأيام، بدأت أحب كل شيء، وأجرّب كل شيء. حتى أطفالي لم يغفل عن إرسال مقالات وفيديوهات تربوية تناسب ما أحكيه له عن شخصياتهم، مخاوفهم وأحلامهم. كيف لا ينجذب أي إنسان لهذا الرجل؟

حاولت أن أحكي عن صداقته لزوجي حتى أقلل من شعوري بالقلق، لكنه لم يهتم، حاولت أيضًا أن أحكي له عن رغبتي في دراسة الأدب، لكنه لم يناقشني، لم يرفض حتى. عندما انهرت وقلت له يجب أن تسمعني، قال «افعلي ما يحلو لكِ..لكن أنا مشغول عن تفاهاتك، ثم إنني أعرف أنك لن تنجحي في شيء».

في هذا الوقت كنت متخبطة، تقدمت لدراسة ماجيستير في الثقافة مـن كلية الآداب، لكنهم رفضوني لأنني لسـت خريجـة كلية أدبية. ثم تقدمت لدراسة دبلومة ترجمة من الجامعة الأمريكية، ومن ثم تراجعت بعد أن فقدت شـغفي من أول محاضرة. شـاركت في عدة ورش أدبية كانـوا دون المسـتوى، مجرد كلام مرصـوص من كتّـاب مُدّعي خبرة قـرءوه من بعض المواقـع أو الكتب وقرروا تقديمه للمبتدئين بشـكل تقريري خال من الشغف.

في هذا الوقت كنت قد بدأت أشتري لأولادي الكتب، أصطحبهم فـي جولات للأماكن الأثرية، بدأت معهم طقسًـا جديدًا من أن نقضي كل جمعـة فـي مـكان مختلـف ونتنـاول أطعمـة مختلفـة مـن مطابخ عالميـة، حضـرت دروس بيانو مع ابنتـي التي فضلت الموسـيقى عن القـراءة، أشـركت «مالكًا» فـي دورة لتعليم التصميـم والجرافيك كما أراد واشتركت لـ «سليم» في كرة القدم بدلًا من التنس كما تمنى دائمًا. أصبحت أقضي أوقاتًا أطول في الحديث معهم وإجابة الأسئلة التي لا تنتهـي، لأول مرة يطلبون منـي قبل النوم أن أحكي لهم قصة، وللغرابة الشـديدة، أننـي لم أكـن فقيرة الخيـال كما تصورت، وجـدت داخلي منبعًـا لا نهائيًا من القصـص الخيالية، والقصص شـديدة الواقعية، في إجازة نصف العام أصبحنا أربعة أصدقاء.

فـي هـذا الوقت لم أتوقف عـن التفكير في أبي، هـذا الصباح وأنا أقلّـب فـي أدراجه وجـدت بضع رسـائل ورقية في حقيبـة صغيرة من البلاسـتيك كانوا كلهم بينه وبين صديق من بلدته في الأقصر، رسـائل

قصيـرة تحمـل الود والافتقـاد وحكايات عـن ذكرياتهما فـي بلدتهما «أرمنـت»، المشـي فـي شـوارعها، الوقـوف علـى نواصـي أراضيها، حلقات الذكر وقصر ثقافة الأقصر، بدأ سفر آخر يلوح لي.

27

«نحن لم نتشارك الأزمنة ولا الموسيقى، لكننا تشاركنا الأعماق لم تكن أبدًا جذور ولا أوراق. ومع ذلك.. أزهرنا أنت لا تناديني بكلمة «حبيبتي» وأنا لا أفاجئك بكلمة «بحبك» لكنني أسمع من بين صفحات الكتب ونواصِي الشوارع صدى صوتك يردد «وأنا كمان» أنا لا أجيد تشكيل الحروف مثلك. أخاف الكسرة وأتعبني الشد لكن ربما.. لو علمتني السكون أمنحك مع كل حرف ضمّة فأفسد لك التشكيل». كتبت هذا النص واحتفظت به.

كان عليّ أن أواجه العطب بالكتابة، والحزن بالكتابة، أن أحول فائض مشاعري لكلمات تنسلّ من بين أصابعي ككذبات متراصّة تكون جملًا صادقة، لا أحد يعرف هذا الخيط الرقيق بين الحقيقة والخيال، بدأت أدرك في هذه الأيام أن الكتابة هي طبيبي الذي أُشرّح نفسي أمامه فأفهم أكثر، ولأنني قضيت عمري في شخصية التابع، لأم، لزوج، لظروف، ولأنني درست وعملت في أشياء لم أخترها أو أحبها أبدًا، ولأنني أكبر دون أن أفعل ما أحب، كان لا بد أن أمتلك مفاتيح ما أحبه، أن أعيش ولو مرة واحدة وفي حياتي هذا الشغف.

الدبلومـة التـي قررت الالتحـاق بها كانـت من جامعـة إنجليزية، بالدراسـة عن بُعد، في البداية صدمتني تكاليفها الباهظة، لكن «مازنًا» سـاعدني علـى تقديـم أوراق تثبـت التحاقـي بالمعتكـف الكتابي في سويسـرا ممـا أكد لهـم جِدّيتـي وموهبتي فتحملـوا الجـزء الأكبر من المصاريف على شكل منحة.

كنـت أعيش فـي حالة من الانكمـاش، زوجي توقف عن إرسـال المـال الخـاص بمصاريف البيت، توقف عن مهاتفتي والسـؤال عنى، وأنـا مثـل المحمومـة بلا حمـى، لا أدري ما نوع الفيرس الذي سـكن جسـدي فجعـل روحـي حزينة، شـاردة. لم يمثّـل لي المـال نوعًا من المتعـة بقدر ما كان لـي نوعًا من الحماية. لم أفكـر يومًا بامتلاكه لكن يكفينـي أن أطمئن أنه هنا ليحميني من الاحتياج. أصبحت أشـعر أنني أرتبط برجل لا أعرفه، كما كنت ابنة لرجل لا أعرفه، هل كنت غبية إلى هذا الحد؟ أم أنني كنت أتجنب المعرفة؟

كتبت لـ «مازن».

أريد أن أصبح سحابة، بعيدة، هشة وآمنة

أريـد أن أكـون كتلـة مـن الفـراغ، لا أحـد يرانـي، رغم أننـي أملأ المكان

أريـد أن أقول للوحش أننـي لا أحبه لأنه يخيفني، ولا أملك الصبر لأغيّره

وللأمير أنني لم أعد أصدق أن قُبلته ستحييني

وللشرير أنني بدأت أعذره

ولسندريلا أنها ليست حمقاء

وللخنازير أنني لا أكرههم

أريد أن أدافع عن كل ما هاجمته وأن أسيء الظن بكل ما وثقت به

أريد أن أعبّر عن رأيي دون أن أجد من يؤكد لي أنني سفيهة

أريد أن أقرأ وأكتب عَمَّا قرأته دون أن يتهمني المثقفون أنني أفسد الذوق

أريد أن أكتب كتابة حقيقية، لا لتبقى ولا لتصدم ولا لتحل مشكلة كونية، لكن لأستمتع ولألمس قلوب الناس

وأن أرقص

وأن أرسم

وأن أعزف

وأن أغنّي

وأن أحكي حكاية طويلة، عني، دون أن أحترس مِمَّن يسمعني

أريد أن أعيش كل ما لم أعشه وأحقق كل ما لم أحققه، حتى لا أخاف الموت

لا أريد أن أفقد نفسي أو كرامتي أو عقلي إزاء ذلك

لا أريد أن أتسامح

أريد أن أقسو على من يقسو عليّ

لا أريد أن أمسك بيد تفلتني

ولا أن أنظر في وجه بارد وأتلقى كلمات باردة

أريـد أن أصـرخ وأحطـم أشـيائي القديمـة دون أن يتهمنـي أحـد بالجنون

أريـد أن أعاتـب العالم وأتحداه وأقف في وجهـه. دون أن يتهمني أحد بالكفر

لا أريد أن ألوم نفسي كل دقيقة

ولا أن أتمنى الخلاص اليائس من الحياة

أريد أن يكون لي أصدقاء وأحبة لا تضجرهم طباعي

لا يبعدهم بُعدي

أريد أن أتخلص من تعايشي السلمي مع المشاكل والمخاوف

وأن أواجه

وأن أخسر

وأن أستغني

أريد أن أراك ثانية

وأتمشى معك تمشية طويلة

وأن تظل تقول لي: إن كل شيء سيصبح بخير

28

لا أحـد يعرف كمَّ الخوف والرعـب الذي ينتاب امرأة مثلي عندما تكـون في المطبـخ ويحاصرها صوت جلبـة الأطفال، تعلـم أن هناك أفواهًـا تنتظر منها الطعام، وقلوبًا تنتظر منهـا الاهتمام، وأرواحًا تنتظر منهـا العطـاء، ثم العطاء ثم العطاء. لا أحد يشـعر كمّ مقاومة السـقوط أرضًا، وكمَّ الرغبة في الهروب من العالـم في هذه اللحظة.

بـدأت أموالـي تنفد مـع اقتـراب انتهاء إجـازة نصف العـام، حتى أننـي قـررت التوقف عن الالتحـاق بدبلومة الكتابـة الإبداعية، فقدت حماسـي بالكامل للكتابة والقراءة وتوقفت عـن الخروج مع الأولاد، أصبحنا مسـاجين فـي البيت، أحارب لأشـبعهم بأقـل النفقات، حتى فكـرة العـودة للعمل بدأت تُلـح عليّ، العمل الذي لـم أحبه يومًا لكنه على الأقل سيوفر ما يساعد في قيام البيت.

دخلـت لعـدة أيام في نوبـة حادة من اليـأس، على شـكل ازدحام أفكاري الذي لا يؤدي لشيء إلا الصداع القاتل. البحث عن عمل آخر يشـبه شـيئًا أحبه، حسـاب مصاريف الأولاد، التفكير في إلغاء الباص وتوصيلـي لهم، إحصاء مصاريفي أنا، جهـدي، أحلامي. لماذا عندما أصبـح لي مطالب فقدت مواردي؟ لماذا حرص زوجي على أن يكون

هـو مـواردي؟ رفض أن أعمـل في مكان أفضل بحجـة قلقه من تغيبي عـن البيت، وضع بنـودًا لصرف كل قرش أجنيه حتى لا يتسـنى لي أن أوفـر إلا القليل من النقود. لم أنتبه لهذه الخطة إلّا الآن، بعد أن نفّذ ما كان يعد له طوال هذه السـنوات. إن أبشـع إحساس في الوجود عندما تكتشف فجأة أن ظهرك عارٍ.

لكـن المحبة تغطي العراء، في إحدى الليالي وصلتني رسـالة عن طريق صديقة لي في النادي، كانت من «ورد»، رسالة قصيرة من الشكر والامتنان مرفقة بالمبلغ المالي الذي كنت دفعته لها ذات يوم.

كانت إشـارة مـا تتضح لي في هـذه الأيام، تحرّضني على السـفر لبلدة أبي في الصعيد، كلام «حُسن» عن أنه كان يسافر لها كلما ضاقت به الدنيا، رسـائله مع صديقه الصعيدي التي تقول إن ثمة حياة له هناك يفتقدها، والأهم من ذلك هو اتصال مسئول من البنك يبلغني أن هناك من حاول أن يسحب من حساب أبي عن طريق ماكينة في الأقصر. كان السـفر لبلدة أبي هو أملي الأخير الذي بات وشـيكًا بل وحتميًّا. تزامن هـذا القـرار مع تقدمي بطلب العـودة للعمل من بداية الشـهر، وتخليّ عـن فكرة الكتابة وأحلامي العظيمة، الغريبة، المُفاجئة، كما تزامن مع اسـترجاعي لمصاريف الدبلومـة حتى أضبط مصاريفـي. قللت فكرة السـفر والعثـور على أبـي الكثير مـن إحباطـي. وبعثت فـيَّ خيط نور جديدا.

هذه المرة لن أسـافر وحدي، أولادي معي، نتبادل الأمان وكل منا لا يعـرف أنه مصدره للآخـر، زوجي منحنا موافقتـه الغالية عن طريق

«ملك» التي أخبرته أنها تشتاق إلى هذه الرحلة. حجزت الإقامة بفندق الأقصر، حزمت حقائبنا واستقللنا القطار «الأسباني»، في الساعات الأولى كانت الدهشة، في الساعات الثانية كان الإرهاق، في الساعات الأخيرة كان الضجر، كان النبات الأخضر يمتد أمامنا والسماء تغيّر في ثوبها الأزرق، نسير بمحاذاة ترعة تتسع كلما صعدنا، وصلنا بعد عشر ساعات في القطار منهكين تمامًا.

الجو كان لطيفًا، ساكنًا، كذلك الناس، وجوههم البسيطة تحوطها هالة رضا عوضًا عن هالة التحفز التي من سمات سكان القاهرة. الشوارع واسعة، هادئة، المباني ليس لها طابع، كل شيء يشع بالجمود والسكون الرهيب. رغم أعداد الناس في الشوارع، لكن يبدو أن السكون آت مني أنا بعد ليالي الازدحام. كنت رغم تعبي أحاول التغلب على تململ الأطفال بالمزيد من الاهتمام والحكايات والاستجابة لكل الطلبات الصغيرة، كان لنا هدف أن نستغني في هذه الرحلة عن الأجهزة الذكية وعن التواصل الخارجي، لكن بمجرد أن وصلنا إلى الفندق بدأت تلح عليهم أعراض الانسحاب، لم ينقذني إلّا الإرهاق الذي أفضى بنا جميعًا إلى النوم.

انسللت من بينهم ووقفت في الشرفة الصغيرة الملحقة بالغرفة، أطالع المدينة التي تخيلتها يومًا تشبه الأثر، لكني لم أجد إلّا شبيهة للقاهرة، أختا صغرى لها. يظهر معبد الأقصر والنيل يلوح في بهاء، لكني لم أجد خضار أراضي الفلاحين، ولا طراوة المدن الساحلية، ومع ذلك شعرت بشيء من الصفاء، ربما لأنني لم يكن لدي أي

توقعات عن المدينة، كنت أتمنى أن تنقشع أمامي حكاية وتخبرني المدينة عن نفسها. غريب أمر السفر للداخل، لا يشعرك بالغربة الجميلة التي تبحث عنها لتجد نفسك. إنه أمر يشبه زيارتك لبيت أحد الأقارب.

خُيل لي أنني هنا لأهرب، أنا هاربة، وربما لست حقيقية، أنا مجرد وهم أجري وراء خيال بحثًا عن شيء أخطر من أبي، نبتة ضعيفة، ليس لي جذور، اقتلعتني الحياة فجأة حيث كنت مستقرة في الطين، وها أنا أسبح في تيار لا نهاية له، لو مت الآن في الصعيد لن يشعر بي أحد، حتى زوجي لن يشغله إلا أمر واحد، من سيعتني بالعيال؟ لكن لا يجب أن أموت، أنا أُم، والأم لا يجب أن تموت من أجل عيالها. لو مت من سينفطر قلبه فرحًا أو جزعًا أو لهفة على كل لفتة منهم.

في اليوم الأول لم يبتهج أبنائي كثيرًا بالبلدة، كان مصدر بهجتهم أنا، كأنهم كانوا يفتقدوني لسنوات وأخيرًا عثروا عليّ، لم يتوقف أيّ منهم عن الأسئلة طوال الوقت، نظمت لهم أدوارًا حتى لا يتعدى أحدهم على حق الآخر في السؤال، ولا تنشأ بينهم الخلافات الفارغة الأبدية بين الإخوة. وبقدر ما أسعدني دوري الجديد معهم كمعلمة ومرشدة وموقع جوجل متنقل، إلّا أنني كنت مرهقة نفسيًّا بشكل كبير. اكتشفت أن لي شخصية تختلف عنهم، عدا ابني الكبير الذي يشبهني كثيرًا، أنا أرتاح للوحدة، أُصبح أفضل عندما أرافق نفسي فقط، أستجمع طاقتي من العزلة. أما هم فيستجمعون طاقتهم من الأحاديث المتصلة، يصبحون أفضل كلما استفضت في الإجابة على أسئلتهم،

يرتاحـوَن لالتصاقهم بي. فسّـر هذا لـي لماذا كنا عندمـا نعود منهكين مـن الخارج أهرع أنا إلى سـريري بينما يصيبهـم الضيق من غيابي لأن مصدر الطاقة أصبح خاملًا.

فـي اليـوم التالي صحونا مبكرًا، نسـمات الهواء البـاردة، الحلوة، خرجت من كل شـقوق البلدة لتجعل الصبـاح طازجًا. في بهو الفندق يلعـب أولادي بكل شـغف لعبـة كادت تنقرض في الأعـوام الأخيرة، البلياردو، كنت أنا أسـتعيد طاقتي، عندما اتصل بي «مازن» أخبرني أنه أرسل لي شابًا زميلًا له بالموقع الثقافي الذي يعمل به، يسكن بالقرب مـن الشـوارع التي ذكرتها له ليسـاعدني فـي البحث والتنقـل، قال إن اسـمه «شـادي» وأنه على وصول للفندق. لا أعرف كيف سـمعت في خيالي فيروز تغنّي «كان اسمه شادي..».

29

شادي

وصلنـا متأخريـن، أخذتنـي أصالة المـكان فوقفـت كالمجذوب أمسح بعيني الجدران العتيقة والمساحات المفرودة أمامي من التاريخ في قصر الأمير طاز، كان منظر الشباب وهم يلتقطون الصور ويضجون في المكان بالضحك والأحاديث المتصلة يشوش على رهبة الماضي، ومـع ذلك وقفت بحثًا عن هذا الشـيء الذي ينقـص روحي. لكنها لم تسمح لي بالوقوف، سحبتني من يدي بخفة لنلحق بالعرض.

كرسـي واحد هو ما تبقى بعد أن امتلأ المكان على آخره، حاولت أن أشـدها لتجلس لكنني لم أجدها، أفلتتها عيناي في الزحام، لم تمر ثوان حتى سـمعت صوتها من بعيد تنادي عليّ «شـادي»، كانت تقف أعلى سـور أسمنتي يحد المكان، فارعة، كغصن ورد، في جينز أزرق، «بلوفـر» أبيـض وطرحـة خفيفة تلـف وجههـا، عندما لـم أتحرك من مكاني صفّرت لي بشـكل لفت إلينا كل الأنظار، فهرولت إليها مرتبكًا وهي غارقة في الضحك، همسـت لها «مجنونـة» فرفعت كتفيها بعدم اكتراث.

«من هنا المشاهدة أفضل»

قالتها وهي تربع قدميها فوق السـور، جلسـت جوارها وقد بدا لي أن صلابة السـور لا تنبئ بمشاهدة جيدة بل وإن فقراتي الأخيرة بدأت تؤلمني بالفعل، لكني استسلمت لها في النهاية ككل المرات السابقة، كان يفصلنا عن بدء العرض نصف سـاعة على الأقل، قضيتهم أتفرس فـي وجهها وهي تطالع هاتفها جواري، شـعرت بتشـابه مـا بينها وبين المكان، ألبسـتها في خيالي ثيابًا عثمانية زرقاء مطعمة بالذهب وغطاء رأس أبيض يهرب شـعرها الحرون من تحته، كل الأشياء التي أعشقها تليق بها.

اتصلـت بـي مـن سـاعات دون ترتيـب لتأمرنـي أن أحضـر معها هـذا العرض، لم يفاجئها عدم حماسـي للعرض، لأنهـا كانت تثق في حماسـي للخروج معهـا، كل ما تحمله من نزق وتـوق وجموح يقابله كسـلي وتحفّظـي، كل المجازفـات الصغيـرة التي بـدأت تملأ حياتي كانت هي سـببها، لم تكن أقرب أصدقائي، لـم تكن تجيد سـماعي، لم تشـاركني مشـكلاتي وتحاورني وتخفف عني، كنت كلما حدثتها عن أي مـن همومي تسـحبني من يدي وتخرج بي لحيـاة جديدة، حياة من صنعها، لم يشغلني إن كانت تُلهيني عن همي أم تجرني لعالمها، ربما لأنني أحببت عالمها.

بـدأت الأنوار حولنا تهدأ وتتلاشـى، إلا وجهها، كان مُضاء بفعل الهاتـف الـذي لا تمـر دقيقـة قبـل أن تطالعـه، أعطتها إضـاءة الهاتف

مسـحة سـاحرة كأنها تطل عليَّ من حلم، همسـت لي وهي تشد على يدي «مبسـوطة إنك هنا» رأيت ابتسامتها فأشرقت الظلمة، حاولت أن أسـتجمع كل مشـاعري التي فلتـت والتي غابت والتي لـم أعرف أنها موجودة، منذ سنوات وأنا لا أحلم، هل تكون هذه بشارة حلم!

عزف العود كأنه نابع من أوتار قلبي، فاضت الموسيقى في المكان تقـرع القلوب وتهدر في الصـدور، ثم بدأ رجل يرتـدي ثوبًا فضفاضًا أبيـض عليـه صديـري ذهبي في الغنـاء، فجأة قفـز لذهني هـذا الطفل ذو السـبعة أعـوام يرفـل في ثوبه الأبيض بين أقرانه ومن سـبقوه سـنًّا، ثـم يتراصـون على منصّة ضيقـة بالكاد تحملهم ويبـدءون في الترنيم، «ماما..خذينـي معـك للكنيسـة..أريد أن أصبـح شمّاسًـا» «شـادي صغيري الطيب يجب أن تعرف أن الشـمّاس لا يرتّل ويحفظ الألحان فقط، الشـمّاس خادم للكنيسـة، يتلو الصلوات ويوقد الأسراج، يُعمّر المجامـر، يرتب المذبح، ينظف الهيكل، يحفظ كُتب الكنيسـة، يخدم ويعظ ويُعلّم».

لكن كلامها لم يثنني عن هذا العشق الذي سكن دمي منذ الطفولة، كنـت أنتظـر كل مرّة تصطحبني معها وأنا بثوبـي الأبيض الطويل كأني علـى موعـد مع العيد، أنغـام الترانيم تسـحرني وتحاوطنـي ليل نهار، أرددها في نفسـي لتبدد وحشـتي وخوفي. ثناء الناس على صوتي كان يشـجعني على حفـظ المزيد من الألحان والتجويـد في تلاوتها، حتى مرت بي السـنون وما زالت الألحان تؤنسـني ويهـدر لها قلبي، تحول

ثناء الناس لتقدير وإجلال، لكن شيئًا تغير في قلبي ولم يبق على موعده مع العيد.

أصبحت أرنّم بشكل آلي، أشعر بالشغف وهو يغادرني، أنظر للقساوسة والكهنة فأشعر أنني لا أنتمي للمكان، الوعظ يضجرني، فلا أنا بواعظ ولا أنا ممن يتعظون، مع الوقت توقفت عن الترنيم، وكأن جزءًا من روحي انتُزع، أصبحت أعيش أيامي فاقدًا للشغف، لم يكن توقفي إلّا لأنني أردت ألّا أشغل مكانًا لا يناسبني، لكن ها هي ذكرى الترنيم تلاحقني أينما ذهبت.

في يوم استثنائي تعرفت إلى «مسرّة»، صحفية من المنيا، تعمل بالقاهرة وتتنقل بينها وبين المنيا. نشأت بيننا صداقة غريبة، سريعة وحميمة، كانت خارجة لتوها من علاقة عاطفية مدمرة، كذلك كنت أنا، عرفتها بعد زواج حبيبتي بقليل، كانت مسرّة على النقيض تماما لها، فتاة لا تخضع لقوانين المجتمع، تسير وراء قلبها، درست ما تحب، عملت بما تحب، اختارت دائمًا ما تحب. روحها المغامرة كانت دائمًا تُنِير الشموع وتنثر الحماس، عندما اقتربت منها بدا لي أن الأمر ليس له علاقة بروحها الحرة المغامرة فحسب، لكن بشيء أكبر.

بدأت تحدثني عن تهذيب النفس، عن استخدام القلب للرؤية، عن معرفة الله، عن الزهد والتسامح، عن هذه الحالة الروحية التي تجعلها تتعبد دون أن تتعبد، وترى دون أن ترى، وتقترب جدًا وهي البعيدة، عرفت أنها صوفية الهوى. جذبني هذا التوجه، لم يكن غرضي معرفة

الله، لكنه الكسـل، الكسل عن مواجهة المشـاكل والعقبات، والتفرغ لـكل مـا يحرك القلـب من شـغف. إيماني بـأن الحياة قصيـرة والمتع عظيمة والكره يطفئ نار الحماس، جعلني أتوافق مع صوفية «مسرّة».

في هذا اليوم الذي حضرت معها حفلا صوفيًا وسـمعت الأناشيد الصوفيـة نط قلبي من صدري وغادرتني قطعة من روحي للأبد، بقيت هناك في سماء الشغف، تُرنّـم كأنها تُنشِد، حضرت بعدها عدة حفلات مع «مسـرة»، ثـم بدأت أرصـد مواعيد الحفلات والحلقـات الصوفية وأحضرهـا وحـدي، أخفـي حقيقـة أننـي مسـيحي وأكتفي بجسـدي الملتـاع المتمايـل وقلبي المحلّق وأنا أُنشـد، لم يشـغلني كون التوجه الصوفي توجها إسـلاميًا، كنت أُغنّي للمحبة، للعشق، للروح. أي دين لا يعترف بهذا التوجه؟

اختـرت الفرقة الأقرب إلى قلبي ولـم أترك لهم حفلًا إلا وحضرته ولا نشـيدًا إلا وحفظته، أقمت معهم صداقات إنسانية، سافرت معهم، أكلـت معهم، غنّيت معهـم. حتى أتت لحظة قلبت لـي حياتي، عندما طلبـت أن أُغنّـي معهم فـي الفرقة خاصة بعد أن لمسـوا عذوبة صوتي وشـغفي بالإنشـاد، في هذه اللحظة سـألوني لأول مرة عن ديني. ولـم تكـن الإجابـة في صالحـي. رفضـوا ضمي معهـم في الفرقـة، بحجة أن وجـودي سـيجلب لي ولهـم المشـاكل. وأنني بإمكانـي أن أحضر الحفلات وأشـاركهم كضيف عزيز، لكن ليس بإمكاني أن أُنشد معهم كأنني منهم.

تزامن هذا مع زيارة قس من كنيسة قريبة لي في الشقة التي استأجرتها بالقاهرة، أخبرني أنه يعرف علاقتي بـ«مسرّة» والتصاقي بحفلات وتجمعات الفرق الصوفية، ثم طلب مني بمباشرة الابتعاد عن كليهما. «الكنيسة لن تسمح بهذا.. الرب سيغضب منك.. كن ابنًا طيبًا». استمرت الأبواب في الانغلاق في وجهي عندما نقلني مكتب العمل للصعيد مرة أخرى. تكالبت عليّ كل الأسباب لأعود إلى أرضي مسيحيًّا مؤمنًا، وأترك ورائي القطعة من روحي التي هامت للأبد.

لكنني لم أتوقف عن الإنشاد، بل وكتابة الأناشيد الصوفية، وحضور حلقات الذكر والحفلات ليس فقط في القاهرة وليس فقط للمشهورين من الفرق والمنشدين. استمرت «مسرّة» على التواصل معي بعد عودتي للصعيد، بل وسافرت لي عدة مرات وحضرنا سويًّا الموالد والحفلات، انقطعت زياراتي للكنيسة من بعد زيارة القس لي، شعرت أن الأكسجين لا يدخل دور العبادة، ولا مجالس رجال الدين، ازداد كفري بالعظة والواعظين وكل ما يحبس عني الشغف. ويمنعني من الحياة.

- قررت أن أُنشِد وحدي.

- لكن كيف يا «شادي»؟ لن يسمحوا لك.

- الإنشاد لا يحتاج لتصريح.

- كل شيء في هذا البلد يحتاج لتصريح.

- حتى الغناء؟

- حتى الحُب.

علـى ربوة فـي أرض خضراء فسـيحة كنـت أجلس مع «مسـرّة»، أنبئهـا بقـراري. لم أعرف أن الحوار سـينحى بنا للحُب، هذا الشـعور الذي تجنبته مرارًا، لسـلامتها وليس لسلامتي. لم أعلّق على إشارتها، وفهمت، كما اعتادت دائمًا أن تفهمني. لا أريد أن أزيد أعبائي وأعباءها بالمزيد من التعقيد. قالت لي وهي تتأمل السماء:

- لا أريدك أن تتعرض لزيارة أخرى من القس.

- فليسـتمروا في الزيارات..أنا لم أكفر، وحتى إن كفرت فلا شـأن لهم بي.

- أخاف أن يؤذيك شيء.

- لا تخافي عليَّ. سينبذوني. هذا كل شيء.

- أتستهين بالنبذ؟

- نبذ أهلي فقط ما يؤلمني. لكنني آمل أن يتفهموا ولو بعد حين.

- أخاف عليك من النظام الأمني.

- لـو فكرت مثلك لما تحركت مـن مكاني. ولكنني أعرف أن هذا ليس تفكيرك. لا تخافي عليّ يا «مسرّة».

رنا إليها بابتسامة: عمر الشقي بقي.

قالت: أمِن الترنيم للإنشاد؟

- كلاهما عن المحبة وعن الله.

- ما الفرق الذي يجعلك تترك الآمن لأجل شيء غير مأمون؟

- الفرق مثل أن تؤدي الحُب وأن تُحب.

أنا أحب الإنشـاد. أرنّم من شـفتي بينما أنشـد من قلبي، هذا هو ما خُلقـت لأجله وكنت أعيش على أمل أن ألقاه. كيف أفرّط به الآن وقد وجدت به نفسي.

- افعله وحدك. ليس بالضرورة أن تُنشِد للناس.

- لكنـه فعل إنسـاني. كيف يمكن أن تطلبي مـن الكاتب أن يكتب لنفسه، أو من الرسّام أن يرسم لنفسه، أو من الفنان أن يؤدي لنفسه. إن الفن والأدب والغناءِ نِعم خُلقت ووهبت للبعض لينقلوا بها مشاعرهم للناس. مثل الرسل خُلقوا لينقلوا الرسالة.

- فلتكن نبيًّا. تعرف النعمة ولا تنشرها.

- لكن الله أراد لي أن أكون رسولا.

30

شاب صغير فاتح البشرة بعكس أهل البلدة، لا يتناسب طول شعره وذقنه مع هزاله، رأيت عينيه مشتَّتَتَين من اللحظة الأولى، لولا ترحابه المتحفـظ ووده الواضح لأطفالي لظننت أنـه لا يريد أن يقوم بمهمته. اصطحبنا إلى معبد الأقصر القريب من الفندق. أسـعدتني الدهشة في عيون أطفالـي أمام المعبـد، منطلقون، مسـحورون، يتجولون بغبطة، يسـألون مائة سـؤال في الدقيقة، و«شـادي» يجاوبهم بتـؤدة واعتزاز. حكـى لهـم أن فوق المعبـد كان يوجـد جامع قديـم، عندما اكتشـفوا المعبـد أبقوا على الجامع، ووجـدوا في المعبد آثـارًا فرعونية وقبطية ومعبـدًا آخر يهوديًا، فكأن الأديان كلها امتزجـت بعبق تاريخ الفراعنة لتصنع هذا المكان البديع الذي يشهد على توحد الأديان والبشرية.

وبرغم سـحر المكان إلا أن وجوه الناس لا تخلو من لمحة حزن، قـال «شـادي»: تعرفي، هـذه البلدة مثل فتـاة جميلة، تزيدها السـياحة جمالًا كثوب فرح وزينة، لكن عندما تتأثر السياحة يتبدل الحال فتصبح فتاة جميلة باكية. أتعرفين، لا يوجد هنا مصنع واحد، ولا جامعة، الكل هنا عاش الاغتراب ويعيشـه كل يوم في الدراسـة والعمل. الكل عاش

الخـوف والتخطيط للهجرة حتى لا يبيع عفش بيته عندما تسـقط -كل حين- الصنعة الوحيدة التي تركوها لنا. السياحة.

كانت الشمس رمادية في جو شتوي جاف، أثناء جولتنا في المعبد سألت «شادي» عن عناوين الأماكن التي دونتها والتي كان يجوبها أبي عندمـا كان يعيش في الصعيـد، أخبرني أنه كان يعيش في مركز قريب، يبعد عن المحافظة بعشـرين كيلومترا، وأننا سـننتقل له بعد أن يتعرف الأولاد علـى المعبد. عبر الصحراء اسـتقللنا سـيارة «سـيرفيس». نام الأولاد في الطريق خلال ذهابنا لمركز «أرمنت» مما سهل لي التعرف إلى «شـادي» الذي أخبرني عن عمله كمحرر بجريدة وتغطيته لأخبار الثقافـة في الصعيد، وعن مدى سـعادته بكل تحقيـق صحفي يقوم به، ومتعته وهو يتقصى ويبحث ويدوّن، بدا وكأنه يريد أن يحكي شـيئًا ما لكنه توقف.

كان الطريـق حولنـا يتحول تدريجيّا من الأصفر للأخضر، نمشـي بمحـاذاة الترع، نرى الضفاف الواسـعة للنيل كأنهـا فتاة غضة تتهادى، بينمـا الضفـاف فـي القاهرة تشـبه امـرأة عاملة تسـير بسـرعة وتحمل ملفات العمل وأكياس الخضار ومشـتريات السـوق. رأينا جزيرة نيلية قريبة وبيوتًا تشـبه الحلـم من جمالها وصفاء منظرهـا، رأينا عدة أديرة هادئة بأبهة رقيقة، تقف مثل الملائكة التي تحرس المدينة، رفّت عيناه على الأديرة عندما مررنا بها.

فـي مدينـة «أرمنت» الشـوارع صغيـرة، قصيـرة، مرصوفـة بدون عناية، معظم الشوارع الجانبية ضيقة وترابية، نزلنا عند محطة مزدحمة

بالسيارات السيرفيس ونوع آخر من السيارات يشبه سيارات النقل غير أن لها سقفًا مصنوعًا بشكل يدوي من الأقمشة القاسية وكنبتين ضيقتين، متقابلتين، اسمه «عربية كبّوت»، استقللنا «عربية كبّوت»، لقرية «الرزيقات». عندما وصلنا كان الأطفال قد بدءوا يستنفذون مخزون الصبر خاصة مع عدم شعورهم بالأمان لعدم وجود بقالات أو مطاعم أو حمامات، سألني الصغير إذا كان ممكن أن نتناول غداءنا في ماكدونالدز، وافقته حتى أمرر الوقت باتقاء القليل من المشاحنات المستنزفة للأعصاب.

مررنا بصوان كبير والعديد من الضباط ورجال الدين والصعايدة، قال «شادي» إنه تجمع لإنهاء خصومة ثأرية، حكيت لأطفالي حكاية طويلة عن معنى الثأر ورواجه في الصعيد، أضاف «شادي» أن المسئول عن الثأر في الصعيد بنسبة كبيرة النساء ممن يحرضن أولادهن ورجالهن بكلام مسموم يوجع كرامة الرجال وبقلب مكلوم جريح غير مبالين بفقد المزيد من رجالهم. وأن الرجال في الصعيد يفضلون الموت عن مس الكرامة. قال إن الأمر يحتاج لتدخل نسائي وتوعية لنساء الصعيد قبل المصالحات التي تأتي متأخرة.

بدأ يسأل الناس عن اسم جدي لأنه بدا لنا أن أسماء الشوارع تغيرت كلها، بعد وقت شاق من التنقل بين الشوارع والقبائل عن طريق العربية الكبّوت التي لم تتوقف عن إذاعة أغاني المهرجانات، وصلنا أخيرًا إلى شيخ تبيّن اسم جدي، قال إنه لم يكن ضمن قبيلة، أتى إلى القرية قديمًا للعمل ثم أقام فيها وتزوج منها، أنجب عمي الذي هاجر

منذ شبابه وعمتي التي تزوجت وسافرت للخليج وأبي، عندما مات جدي وجدتي باع أبي الأرض لابن خاله ولم يسمع عنه من وقتها.

عرفنا منه مكان الأرض وبدأنا نتحرك تجاهها، يبعدنا عنها عشرة كيلومترات، شعرت أن «شادي» به خطب ما، قلق ويطالع هاتفه كل دقيقة، يحاول الاتصال مرارًا دون فائدة، ثم فجأة صرخ من ألم شديد في بطنه، طلبت من سائق السيارة أن يذهب بنا لأقرب مشفى، لم يجاوبني وتحرك باتجاه شارع جانبي وعدة شوارع جانبية، لا أعرف الطرق ولا القرية، ولا ما ينوي عليه السائق، أسير مع ثلاثة أطفال باتجاه المجهول، ومعي شاب يتضور ألمًا، في هذه اللحظة تمنيت لو أغمض عيني لأجد نفسي في مدينة الرحاب أجلس بين أولادي في غرفة المعيشة وكل منهم يطالع جهازه وأنا هادئة سعيدة فارغة أمام التليفزيون، لماذا أنا هنا؟ لماذا لم أبق كما كنت؟ لماذا أبحث عَمَّن تركني بإرادته؟

وصلنا إلى محل صغير على واجهته يافطة مكتوب عليها بخط اليد «صيدلية» هناك شاب صعيدي بجلباب مهلهل حمل مع السائق شادي وفردوه على كنبة إسطانبولي قديمة، قال لهم من بين ألمه أنه يريد أن يرحل أكّد عليها وهو ينفطر من الألم، كان خائفًا جدًا، خوفه جعلني أقول إنني أخته وأنني لا أريده أن يبقى هنا، صرخت فيهم بجزع شديد وقد بدأ أبنائي في البكاء، قلت: «أنا أتحمل مسئوليته كاملة»، لم يتجاوبوا مع صراخي إلّا عندما قلت: «زوجي ضابط أمن

دولة وسيرسل لي عربة الآن»، كانت هذه الجملة التي سمعت زوجي يقولها في عدة مشاجرات من قبل هي ما جعلتهم يتراجعون، حملوه مرة أخرى داخل السيارة واتجهنا إلى المحطة.

نام «شادي» على كتفي من إعيائه الشديد، عندما وصلنا للمحطة نهض مفزوعًا وأفرغ ما كان في جوفه، تحامل على نفسه وتسنّد علي حتى استقللنا السيارة السيرفيس وعدنا للأقصر وهو يتأوه بمرارة مزقت قلبي، توقفنا عند مستشفى الأقصر وساعدني «مالك» في حمل «شادي» إلى الداخل، بعد أن كشف عليه الطبيب وأعطاه بعض المهدئات أخبرني أنه سيحتاج لمنظار معدة، قمت بكل الإجراءات بنفسي ووقعت الأوراق باسمي. أظهر المنظار أنه يعاني من التهاب في جدار المعدة نتيجة الأطعمة الحارة، أو التدخين. عندما أكدت له أنه لم يدخّن سيجارة واحدة، ولم يتناول سوى شطائر الفول والطعمية، أقر الطبيب أن الأمر أحيانًا يحدث بسبب نفسي.

في كافيتريا ملحقة بالمستشفى تناولنا طعامنا، قلت للأولاد مداعبة: «أليس هذا الخضار المسلوق أفضل من ماكدونالدز؟»، شعورهم النسبي بالأمان في المستشفى جعلهم سعداء بالخضار السوتيه الذي لم يحبوه أبدًا، كان «شادي» قد بدأ يتعافى مع حلول الليل، استقللنا سيارة أجرة للفندق وتركناه.

رن هاتفه الذي كان معي برقم فتاة تُدعى «مسرّة»، أخبرتها عما حدث، عندما أغلقت الخط سريعًا حدست أنها آتية. سمحت لنفسي بمطالعة الواتس أب خاصته لأعرف سبب مرضه المفاجئ، وجدت

عدة رسائل منه لـ «مسرّة»، يرجوها أن تبقى، وقبلهم رسالة منها تخبره أنها تشعر بالخوف لذلك قررت أن تتوقف عن الاتصال به، فضولي قادني لمطالعة رسائل الأمس، كانت اعترافات حيية بالحب، ثم مناجاة طويلة عذبة بينهما. صورة الفتاة على الواتس اب كانت محجبة. عندما عدت له كان خجلًا، في عينيه دموع وحزن، لمحت على منبت باطن كفه صليبًا مدقوقًا فبدأت أفهم مأساته، حاولت كسر الحاجز بيننا، قلت له: «مسرّة» اتصلت.

نظر لي باهتمام دون أن ينطق، قُلت:

- يبدو أنها فتاة لطيفة.

- ماذا قالت؟

- لم تقل شيئًا، عرفت أنك هنا ثم أغلقنا الخط.

طبطبت على كفه، شعرت لوهلة أنه أخي الصغير، لمعت عيناه بالدموع ثم راح يحكي لي باختصار وتداع عن «مسرّة» وصداقتهما التي تحولت دون إرادتهما إلى حب، وعن خوفه عليها، وعدم قدرته على الاستغناء عنها، ثم عن شغفه بالإنشاد. تمتمت:

- منشد مسيحي!

- لماذا يُغضِب الناس أن يكون هناك منشد مسيحي بينما لا يُغضِبهم أن هناك راقصة مسيحية؟

- ربما لأن الناس معنيون بالدين أكثر من الفن، في نظرهم كل

الراقصات مذنبات بشكل أو بآخر، لكن المنشد يعبر عن روح الإسلام.

قاطعني: عن روح المحبة عن عشق الرب. وليس عن الإسلام.

- ماذا لو اتجهت للغناء أفضل؟

قال بإعياء: أعذرك لأنك تعانين مما يعاني منه الناس، الخوف من التغيير. أنت امرأة مثقفة وبالتأكيد تعرفين الفرق الروحي بين الغناء والإنشاد.

- الحياة صعبة.. لا داعي لتكبد المزيد من المتاعب والصعوبات.

- أعذرك مرة أخرى، فكلنا مثقلون بهذا الإرث الكبير من الخوف... فقط من ذاق عرف.

كان وقع جملته عليَّ كسقوط عملة معدنية على أرض صلبة. أشفقت عليه من أثر المرض، استأذنت وهممت بالعودة للفندق لكنني عدت لأسأله:

- لماذا أصررت على عدم تلقي العلاج بالصيدلية الصغيرة؟

قال: في هذه المناطق النائية يقوم بعض السماسرة والعصابات بسرقة الأعضاء. هذه أكثر التجارات ربحًا في قِبلي بعد سرقة الآثار.

31

استيقظت بجسد ثقيل معبأ بالسوائل، أشعر أنني أرى كل شيء مهزوزًا يسبح في مجالات كبيرة، كأنني أفتح عينيَّ تحت الماء، نظرت حولي في هلع كنت أعرف أنني لن أجد أبنائي، صرخت من أعماقي عندما لم أجدهم، هذه الصرخة التي تأتي بلا صوت كأنك فقدت حلقك، الاستغاثة التي لا مفر منها في الأحلام، نهضت فزعة أمسح عرقي، التفتّ حولي فلم أجد أبنائي مثلما هيأ لي الكابوس الذي خرجت منه للتو.

بحثت عنهم في الفندق مثل المجانين، في البهو وجدت «مالكًا» و«ملك» يبكيان ولم أجد «سليما»، صرخت «أين أخوكما؟» قالا: «كنا نلعب البلياردو وكان يراقبنا ثم فجأة اختفى»، كدت أسقط على الأرض، استنجدت بأمن الفندق وبدءوا في البحث معي، أنادي بأعلى صوتي، أدخل الغرف والقاعات غير عابئة بشيء، لا أذكر تفاصيل هذه الدقائق، لم أكن بوعيي الكامل، كل ما أذكره أنني كنت أردد داخلي وربما بصوت مسموع «لماذا فعلت هذا بنفسي؟»، تذكرت المرة الوحيدة التي أفلتُّ يد أمي وتهت في زحام أحد المراكز التجارية في جدة، كل النساء يرتدين السواد الواسع، لم أعرف أيهم أمي، وهذا ما

أربكنـي وأبكاني يومها، كل ذيل عباءة أمسـك به يفتر عن امرأة غريبة، الغريب أنني في هذه اللحظات كنت أكيل الضيق كله لأبي، وحتى في لحظات ضياع ابني، أحمّل المسئولية لأبي!

بعد سـاعة من الانهيار التام فكّرت فـي الاتصال بزوجي، زاد هذا الخاطـر من القلق في قلبـي، تذكرت كل المرات التـي خفت فيها من غضبه أكثر من خوفي على أبنائي، إن جُرِح أحدهم أخاف منه، إن أخفق أحدهـم في امتحان أو تمرين أخاف منه، إن مرض أحدهم أخاف منه، كل المتابعـات الصحيـة والدراسـية كنت أقوم بها وأنـا أحمل هم ردة فعلـه أكثر من هـم أولادي. لكنني في هذا الموقف لم أكن أحتمل ذرة خوف أكثر، لذلك عوضًا عن الاتصال به اتصلت بآخر.

أرسـلت لـ «مازن» أخطره بما أنا فيه، ولم أنتظر رده، كأن هذا كل ما احتجته. بعد سـاعة أخرى كانت السبل قد ضاقت بي، سقطت على الأرض سـاجدة، دعوته «أنت سبيلي الوحيد ورجائي الأخير..أخذت أمـي، وأخفيـت أبـي، أعطيتني أخًا بعيـدًا وزوجًـا غريبًـا، لا تحرمني مـن صغيري..أنا لسـت امرأة صالحة لتختبرني، ولسـت امرأة فاسـدة لتعاقبني، ولسـت ابنة تتحمـل الفراق لأن الحياة أمامهـا، أنا أم حياتي كلها بين أقدام الصغار فارحمني» بكيت وتذللت كثيرًا، كنت منذ زمن لم آتِه مثل هذه المرة.

ومثـل ما يحدث فـي الأفلام، بينما أبتهل إلى الله سـمعت صوت إخوتـه يصرخـون «وجدنـا سـليم»، كان يلعـب كـرة القـدم مع بعض

الأطفال في حديقة خلفية للفندق، احتضنته ودموعي تنهمر على سترته وصوت ضحكاته المكتومة لا يستفزني كالعادة، بل يدغدغ قلبي. في غرفتنا عندما هدأت العاصفة أعطيته تعليمات الأمهات المكررة وأنا أحاول جاهدة شرح مشاعري الفزعة، في هذه اللحظة شعرت أنه فهمني فضمني بدوره ضمة حلوة لم أحظ بها من قبل وقال: «أنا آسف يا ماما لكنني أحب لعب الكرة». على هاتفي وجدت رسائل عدة من «مازن»، آخرها كانت صورة لموعد طائرة متجهة إلى الأقصر وحجز باسمه، بسرعة أرسلت له أبشره بأنني وجدت «سليمًا» وأطمئنه علينا، ولسوء الحظ..ألغى رحلته.

***

لم أشعر للحظة بخطأ في إحضاري للأطفال معي، وجودنا معًا ومرورنا بهذه الغمة الثقيلة جعلنا مثل الجسد الواحد، كل عضو فيه يتصرف كما يفترض به بلا وعي، نتحرك في سيمفونية بديعة، كل الأوامر تحدث من تلقاء نفسها. وكل الخلافات هي نغزات بسيطة سرعان ما تزول، خُلقت بيننا مجالات للحوار والأحاديث كانت منقطعة منذ زمن بفعل التكنولوجيا وانشغال القلب والعقل، تعرفت على أبنائي من جديد خلال هذه الأيام، الوجوه الأخرى التي كانوا يخفونها عني، هذه المعرفة أضاءت مناطق مظلمة لم أعرفها أبدًا في أمومتي.

في المستشفى رأيت «مسرّة»، فتاة تضج بالحرية ونزق الشباب، كانت تقف بجوار «شادي» برفقة عدة شباب آخرين، خدست أنهم

أصدقاؤهما، عندما دخلت إلى الغرفة خرجوا ماعدا «مسرّة»، حكيت لهما عن اختفاء «سليم» في الصباح، قلت ضاحكة لـ «شادي»:

- ربما حدث هذا من تأثير حديثك عن جرائم سرقة الأعضاء بالأمس.

قال مبتسمًا: حدث هذا لأنه جرى وراء شغفه. ومن يجري وراء شغفه لا يضيع.

هو لا يعرف أنني ألغيت دبلومة الدراسة الوحيدة التي أحببتها لأجل توفير النفقات، وأنني توقفت عن الكتابة لأتفرغ لهموم الحياة، وأنني تنازلت عن حلمي في اختيار رجل يشيخ معي ونحن عاشقان لأجل أن أتزوج مبكرًا، وأنني تنازلت عن بقائي مع زوجي لأن هذه رغبته، وأنني عشت وحدي أربي أطفالي، دون حب أو عطف أو حنان أو تقدير، فقط لأن الحياة أرستني على هذا الشاطئ، كيف ينتظر مني أنا فاقدة الشغف أن أشجعه عليه!

من فرط حساسيته وإحساسه بالمسئولية أصر على أن نذهب لزيارة أرض جدي فور أن خرجنا من المستشفى، لكنني رفضت وأصررت أكثر منه على تأجيل الزيارة للغد. عندما خرجنا من المستشفى برفقته وأصدقائه ذهبنا إلى مكان خلاب لم أر مثله من قبل، شبه جزيرة خضراء صغيرة بداخل النيل، جلسنا في دائرة تحت النخيل المغسول بالنور على الضفاف، كانت نسائم الهواء تدخل في صدورنا فتجليها من الأحزان والهموم، يحتضننا النيل وتغسلنا صورته من كل قبح

عشـناه في المدينة، عشـت مع أطفالي لحظات من الصفاء النفسـي لم نجربهـا من قبل، حتى الصغير الشـقي بقي سـاكنًا، كنا كالمتعبدين في محراب السلام والمحبة.

طلبت «مسرة» من «شادي» أن ينشد، فغنّى بصوت آسر،

قلبي يُحَدّثني بأَنّكَ مُتْلِفِي

روحي فِداكَ عرَفْتَ أمَ لم تَعْرِفِ

لم أَقْضِ حَقّ هَواكَ إن كُنتُ الذي

لم أقضِ فيِه أسىً ومِثليَ مَنْ يَفي

ما لي سِوَى روحي وباذِلُ نفسِهِ

في حُبّ مَن يَهْواهُ ليسَ بِمُسرِفِ

فلَئِنْ رَضِيتَ بها فقد أسعَفْتَني

يا خَيبَةَ المَسْعَى إذا لم تسعفِ

أخذنـي صوتـه الرقراق وطريقته الشـجية إلى دنيا غيـر الدنيا، دنيا نورانية صافية، أشتاق فيها لشيء لا أعلمه، لشخص لا أعرفه، كنت مع ابتهالي الصباحي قد شعرت بدفقة روحية تتسرب إلى نفسي، إحساس بالتسـليم، بالرجاء، ربما بدأ الأمر من بدايـة معرفتي بـ «مازن»، بدأت أتصالح مع نفسـي، مـع حيرتي وأزماتي المعقـودة، أو ربما منذ قرأت رسائل حُسن وبدأت أعرف أبي، الحب، ونفسي، لا، لا بدأت أسمح

للأشياء أن تدخلني عندما اختفى أبي. ربما التوقيت لا يعني شيئًا على الإطلاق، طالما أنني كما شعرت في هذه اللحظة خفيفة وهادئة.

كان هـذا تمامًـا مـا يُرعبني فـي الأجـواء الصوفية، القنـاع الزائف الـذي تمنحـه للمشـاعر، تتعـذب بينما روحـك مرتاحة، تحـزن بينما قلبك سـعيد، تتوه فـي عتمة همومك بينما سـماؤك صافية، رأيت هذا فـي صديقـة قديمة أصبحت صوفيـة الهوى منذ تركهـا الرجل الوحيد الـذي أحبته، لـم ينقذها من الانهيار إلّا الزهد المفاجئ وحالة العشـق الإلهي التي أحاطت نفسـها بها، تحكي عن الخلاص الذي حققته لها الصوفية، عن الصفح الجميل، عن الحب الذي يداوي والأبواب التي تُفتح، عن نعمة الهوى الذي لا يحمل الشك ولا اليقين، ولا الكفر ولا الإيمـان. عن الخروج من العدم والذوبان فيه، عن النور الذي يتسـلل للقلـوب المكسـورة، عن الدوران والدوران في فلك العشـق الذي لا دين له. إنها خلطة الأمان التي يصنعها المحزونون.

معتنقو الصوفية لا يشبهون من يحتمون بها، والذين يسقطون منها تباعًا عندما يتحررون من الحزن. لكن ما جذبني في هذا اليوم لم تكن الكلمـات الحلوة، ولا الصوت الشـجي ولا الجـو الصوفي الصافي، ما جذبني هو هذا الشـيء في عين «شـادي»، شيء يشبه الإصرار رغم التسـليم، والحسـم رغم التردد، والحماس رغم الأفول، والرغبة رغم العجز، هذا الشاب لا يعتنق الصوفية، إنما يعتنق الشغف.

تركنا «شـادي» فـي الفندق بعد يـوم آخر عذب فـي حياتي، عندما نـام الأطفال سـمعت صـوت غناء شـجي وألحان على مزمـار، كانت

حفلة إنشـاد في ساحة مسـجد سيدي أبو الحجاج القريب من الفندق، وجدتنـي أفتح ورقة جديدة على حاسـوبي النقـال وأكتب، كتبت عن أمـي عن حياتها الخالية من الشـغف، عن حياتـي التي حاولت فيها ألا أكون نسـخة مكررة منها، فجعلتها نسـخة خربة لا تنتمي لشيء، كتبت عـن حبي وافتقادي لها، عن أسـرارها الصغيرة، حركاتها المميزة، عن عجزي على إدخال السرور لقلبها المرهق، عن صمتي إزاء كل ما كان يحدث، عن الحكاية كما هي وليس كما حرفتها لنفسي.

بعثـت رسـالة لمـازن «أنا كتبت» أرسـل لـي وجوهًا كثيرة سـعيدة وكتب «أتمنى ألا يغادرك الشغف مرة أخرى».

32

لم تفلح قهوة الصباح في مداهمة آلام رأسي والقضاء عليها، تماما مثلما فشل المسكّن، تصيبني المسكنات بالحموضة، يسبب لي دواء الحموضة انخفاض ضغط الدم، الذي يسبب لي الدوخة والصداع، الذي يدفعني للمسكنات، دائرة لا تنتهي أحاول تجنبها منذ عام بالنوم الكافي والأكل الصحي دون جدوى. ما زالت الحسابات تؤرقني لم أستطع التخلص منها بالسفر ولا بالكتابة، الواقع الذي يفرض نفسه عليّ ويقص أجنحتي باستمرار كطقس من طقوس الطهارة، يجعلني أشعر دائمًا بالنقص رغم الاكتمال، والعجز رغم المقدرة.

استقللنا سيارة سيرفيس مع شادي في هذا الصباح واتجاهنا إلى قرية جدي، مرة أخرى تركتنا السيارة عند الموقف واضطررنا لاستقلال «عربية كبّوت»، في طرق ضيقة غير ممهدة سرنا نصف ساعة حتى وصلنا إلى قهوة كبيرة ممتلئة بالصعايدة تفوح منها رائحة المعسل والأراجيل، كأنها بقعة ملوثة بين المروج، هناك انتظرتنا السيارة حتى سألنا عن أبناء خال أبي فدلّنا أحد عمّال المقهى على موقع البيت والأرض، عندما وصلنا بعد دقائق أخرى، تركتنا العربية الكبّوت لأرجلنا، ماعادت وسيلة أخرى تنفع.

كان الوقت يمر هناك سريعًا، خفيفًا، كل شيء يبدأ وينتهي بسرعة، الأناس هادئون غير عابئون بالوقت أو العطلة مثل سكان القاهرة الموتورين، المقهورين أمام المواعيد التي لا تنتهي. والوقت الذي لا يمر إلّا مسروقًا. عندما اقتربنا تذكرت المرة الأخيرة التي زرت فيها هذا المكان مع أبي، كنت في السادسة من عمري، لا أذكر إلّا ركضي بين المروج ونومي تحت شجرة توت كانت تسقط حباتها على وجهي. يومها تمنيت أن أكون ابنة جدي حتى أعيش في هذا السلام بعيدًا عن بيتنا المسكون بالغضب.

مشينا حتى وجدنا البيت الكبير المشوّه، المتناقض بنصفه السفلي العتيق الأثري المبني بالأحجار ونصفه العلوي المبني على الطوب الأحمر فقط، كانت تقف فتاة في نافذة صغيرة، تلف رأسها بطرحة سوداء، عندما رأتنا نقترب انسحبت للداخل، عند المدخل عمودان حجريان ضخمان تذكرت لعبي مع أخي فوقهما، طرقنا الباب نسأل عن اسم خال أبي، فتح لنا رجل أسمر الوجه كثير التجاعيد له عينان جاحظتان وشارب ضخم، أدخلنا بيته الفسيح دون أن يفهم قرابتنا تمامًا، في غرفة الجلوس شرحت له أنني ابنة «يحيى منصور» وأنه اختفى منذ شهور وأنني أبحث عن بيت جدي لعله تردد عليه، رد على معلوماتي المتدفقة وطريقتي السريعة في الحكي بكلمة واحدة «يا مرحب».

كان يدعى «مسعدًا» وهو أحد أولاد خال أبي، له لهجة لا تشبه لهجة أهل الأقصر، لهجة قوية تشبه صعايدة المسلسلات والأفلام.

بعد أن تحدثت طويلًا بدون أي انفعالات منه، بوجهه البارد نطق أخيرًا بما جئت من أجله، قال إن أبي باع لهم البيت منذ أكثر من عشر سنوات وأنه لم يتردد عليهم من وقتها، عرّفنا على زوجته التي قدمت لنا الشاي في المندرة الواسعة وشاركتنا الجلسة وابنته التي كانت تقف في النافذة، وابنه الشاب وعدة أطفال، أمرت المرأة ابنتها بأخذ الأطفال وتركنا وحدنا، بدأت تسألني عن عملي وحياتي، بدت مسيطرة تمامًا على الجلسة.

عرفت من «مسعد» أن أباه-خال أبي-يسكن معه، لكنه يعاني العديد من الأمراض ولا يبرح سريره. لم تكن صدمة لي أن أبي لم يأت منذ سنوات، الأمر كله مقامرة أعرف نتيجتها، لكنني أردت أن أجرّب كل المفاتيح، أن أطرق كل باب ظهر لي، حكى «مسعد» ببرود عن أن أبي كان منبوذًا في قريته في السنوات الأخيرة بسبب مواقفه السياسية ضد عمدة البلد المرشح في الانتخابات، وضد النظام الذي يعيشون في أمانه وخيره، حكى لي أنه سبق سجنه في السبعينيات وأن أباه فضل أن يبعده عن القرية لأن آراءه في هذه الفترة كانت ضد البلد، بدأ الحديث يفتر ولم نجد ما نقوله. عندما هممت بالاستئذان لم يحاول «مسعد» استبقائي، زوجته فعلت، ليس لمحبة فلم يظهروا لي أيًا منها، لكن لغرض ما.

حكت لي عن ابنتها الشابة الجميلة الماهرة في شغل البيت، قالت إنها تزوجت قبل عام من موظف يسكن بقرية مجاورة، لكن سرعان ما تغيرت معاملته لها، حتى عرفت من جارة لها أنه على علاقة بامرأة

يحضرها إلى البيت في غيابها، عندما تقصّت عن الحكاية كانت صدمتها أن المرأة التي يرافقها في بيتها هي صديقة لها، ولما واجهته قال بكل بجاحة أنه يحب هذه المرأة وسيتزوجها ويحضرها لتعيش معهما بالبيت، وبالفعل فرش لها غرفة بخشب أغلى من خشب زواجها، فهربت الفتاة قبل أن تموت كمدًا. كل هذه المقدمة المأساوية أرادت منها زوجة «مسعد» أن تمهد لطلبها بأن أرشح ابنتها لعريس مناسب من القاهرة. لأن أهل القرية لا يرون فيها العروس المناسبة.

وافقت المرأة بتفهّم وأسى أخفيته عنها، ووعدتها أن أرشحها للشخص المناسب إن ظهر، عندما نهضت نهض الأولاد و«شادي» وقد شعرت بزفرة الراحة من صدورهم، سمعنا صوت شيخ ينادي «مسعدا»، يسأله عن الضيوف من هم ومن أين أتوا، قال «مُسعد»: «هم أقارب»، فنادى الرجل: «بنت يحيى؟»، لم أدر كيف عرف، عندما دخلنا غرفته رأيته هزيلًا، مُقعدًا، قال بصوت مرتعش:

- «يحيى» قال لي إن ابنته ستأتي.

قال ابنه: لكن «يحيى» لم يأت منذ سنوات يا بوي.

قال الشيخ: لا بل أتى وأنت بالخارج..

نظر لي «مسعد» ووشوشني: «الرجل يهذي له مدة»

قال بصوته المرتعش مرة أخرى: هل تكذبني يا ولد؟ «يحيى» جاء وسلم عليَّ وباس رأسي وعندما سألته عن ابنته قال: ستأتي قريبًا.

قبل أن أغادره قبّلت رأسه، شككت للحظة أن أبي كان هنا بالفعل، ربما جزء مني أراد أن يصدّق. طلبت من «مسعد» أن أرى غرفة أبي أو المكان الذي كان يكتب فيه، لكنه قال: لا شيء يبقى على حاله. ودعنا أقاربنا الجافين من المشاعر وقبل أن نتجه للقهوة حيث السيارات الكبّوت تنتظر، رُحت أسأل عن شارع الترعة الذي حكى صديق أبي عنه في خطاباته له، حيث كان لهما ذكريات مشتركة من تسكع وسهر.

وجدناه قريبًا من البيت، شارع ضيق ليس واسعًا كما ظننت، تحفه الأشجار الشاهقة من ناحية، وترعة كبيرة من ناحية أخرى، كان هادئًا لا يمر به الناس إلّا قليلًا، يشحذ الاهتمام من المارة لكن لا أحد يعبأ به، شارع مهمل لا يدري أن هناك أناسًا يذكرونه ويشتاقونه في البُعد. جلس شادي على ضفة الترعة فقلّده أبنائي، جلست جوارهم صامتة، ساهمة، تاركة دوري في إجابة أسئلة الصغار لـ «شادي»، كنت أستحضر وجود أبي، نظرته الشاردة، هدوءه القاتل، هيئته المستسلمة، ماضيه الذي لم أعرف عنه شيئًا، حاضره المجهول. فجأة سمعت «شادي» ينشد بصوته العذب.

عذّب بما شئتَ غيرَ البُعدِ عنكَ

تجدْ أوفى محِبّ بما يُرضيكَ مُبْتَهجِ

وخُذْ بقيّةَ ما أبقَيتَ من رمَقٍ

لا خيرَ في الحبّ إن أبقى على المُهجِ

مَن لي بإتلاف روحي في هوَى رَشَأٍ

حُلْوِ الشمائل بالأرواحِ مُمتَزِجِ

مَن ماتَ فيه غَرامًا عاشَ مُرْتَقِيًا

ما بَيْنَ مُعْتَرَكِ الأحداقِ والمُهَجِ

أنا القَتِيلُ بلا إثمٍ ولا حَرَجِ

فـي طريق العودة سـألته عـن عنوانه أو منزله، فاجأنـي أنه لا منزل لـه، أهله نبذوه مع أول حفلة أنشـد بها، حكى لي عـن ثيابه التي ألقاها والده في الشارع، عن أمه التي قالت: «إن أسلمت فليس لي ابن»، رغم تأكيده على الإنشـاد وليس الإسـلام، لكن أهله كصعايدة لم يتراجعوا عـن مخاوفهم مـن أنه في طريقـه ليسـلم، وكمصريين لـم يتوانوا عن اختيـار الديـن قبل الابـن، وهو رغم ذلـك فضّل أن يعيـش منبوذًا عن أن يبقى فاقدًا لشـغفه، لكن هل يسـيطر الشـغف على الإنسان للدرجة التـي تجعلـه يقدم على المخاطـرة أيًا كان الثمن؟ لمـاذا كل ما يجعلنا شغوفين يكون عكس مصلحتنا؟

فـي منتصـف ليل هذا اليوم، والأطفال نيـام، فكّرت أن كل الطرق التي نسلكها، والأشياء التي نمارسها، كل شعاراتنا وأيديولوجياتنا، كل التواريخ والأحداث، ما هي إلّا وسـائل للبحث عن الشغف. الدراسة والعمل والكفاح، ما معناهم بلا رغبة حقيقية في شيء ما، حتى الحب والزواج والصداقات، يفقدون مقوماتهم بلا شغف. حاولت أن أكتب عن الأشـياء التي لمسـت قلبي بالشـغف منذ الطفولة والشباب وحتى

الآن، وجدت أنني على مدار أعوامي لم أشـعر به أبدًا. كنت أقوم بكل خطوات حياتي بدافع الطبيعة، كل ما يُجبل عليه الإنسـان دون إرادته، عمليـة نمو تحدث بتلقائية شـديدة وبلا حسـابات، لم أفكـر يومًا أنني ينقصني شـيء هائل يحرك السـكون داخلي، والذي يجعل مني إنسانة بدّلا من ترس، لكن في الشهور الأخيرة شعرت به أخيرًا.

1- عند زيارات مكتب أبي.

2- عند قراءتي لكتبه ورسائله.

3- عندما كتبت.

4- عندما ساعدت ورد.

5- عندما سافرت خارج مصر.

6- عندما حضرت معتكف الكتابة.

7- عندما زرعت الزهور.

8- عندما أسمع قصص الغرباء.

9- مؤخرا..عندما أجالس أو أرافق أبنائي.

كان هناك نقطة عاشرة لكنني لم أكتبها، الكتابة اعتراف وأنا لا أريد أن أعترف بها، يكفي أنني أشعرها.

«عندما أتحدث مع مازن»

33

هناك دائمة علاقة طردية بين الشعور بالذنب و التقرّب إلى الله.

كان اليـوم جمعـة وكنـت أجهّـز مسـتلزمات المدارس اسـتعدادًا لبدايتها بعد أيام. على يساري كومة من الكراريس التي أجلّدها. وعلى يميني جبل من الأزياء المدرسـية ينتظر مني أن أفرزه وأرسل ما يحتاج للإصـلاح للتـرزي. على شاشـة الحاسـوب أمامـي صفحـة الجامعة التـي قررت الالتحاق بها لدراسـة الكتابة الإبداعيـة. أصبحت متعددة المهمـات، وبقدر متعة الحماس الذي ملأني بقـدر افتقادي لأصدقاء أعيش معهم الواقع نتحدث عن الطعام والوصفات الجديدة ومحلات الثيـاب والخصومـات والعـروض الجيدة والمسلسـلات والتسـوق. «لا يمكن أن تربحي كل شـيء» جملـة زوجي التي طالما تذكرتها وأنا أراه يقرر بكل هدوء وتؤدة أن يخسرني ثم يعلن خسارتي له.

كنـت فـي هـذه الأيام قـد شـعرت بدفقة الإيمـان في قلبـي، ليس إيمان الصلاة والابتهال، لكنه شـعور بأنك تحبه وتتمنى رضاه وتشعر بمراقبتـه، تعرف أنه حولـك وداخلك، تبتغي أن تتبعـه وتندم على كل لحظـة لم يذكره قلبـك، ربما كانت هذه هي نعمـة العذاب الذي كنت

أعانيه من ذنب شعوري المرغم بالانجذاب لمازن، والذي كنت أقاومه بالمزيد من الانغماس في المتع الفكرية والمعنوية. كنت أتساءل، هل الإخلاص يحتاج لتواجد الطرف الآخر؟ أم أنه شعور داخلي لا علاقة له بالمسافات، إن كل القيم لا تعنى بالمسافات، فلماذا نعلّق الإخلاص على شمّاعة البُعد. إن الأمر كله رهن قرب الطرف الآخر من القلب وليس قربه المادي. المسافات الشعورية هي التي تزلزل الإخلاص والعلاقة برمتها.

في المساء عندما انتهيت من كل مهامي، جلست أحتسي النسكافيه أمام الحاسوب وأنا أطالع موقع الفيس بوك، كانت «ندى عصام» تعلن على صفحتها عن نفسها بجلسة تصوير ساخنة بينما تنهمر عليها التعليقات ما بين مغازلات ثقافية وأخرى فجّة. أثارت صورها ضجة كبيرة ومشاركات من الناس بغرض نقدها أو التغزل.

أثناء تصفحي وجدت منشورًا من صفحة أزياء «ورد» ظهر لي، كانت تعلن عن افتتاح محلها في شارع قريب من النادي والعديد من الصور المبهجة لموديلات ثيابها العربية المميزة، حمّسني هذا المنشور للاتصال بها بعد غياب، أتاني صوتها الراضي السعيد ليبث فيَّ سعادة من نوع خاص، حكت لي عن نجاحها الذي وصل بها لتأجير محل في منطقة راقية ومزدحمة، وعن الطلبات التي تصلها من أحياء أخرى ورواد نواد أخرى، وعن فتيات انتشلهن عملهن معها من ضياع الفراغ والعوز، ثم حكت لي عن «عزة»، قالت إنها اشتركت

كممثلة بفرقة مسـرحية وخُطِبت لأحد الممثلين زملائها، وأنها سعيدة وحياتها تغيرت بشـكل كبير. شعرت بامتنان هائل للكرم الإلهي الذي يشمل الجميع بلا استثناء.

كتبتِ نهاية فصل جديد من ذكرياتـي الغائمة وقد وصلت لحقيقة أنني أصبحت أتقى بأخطائي.

***

منـذ عدت من الصعيـد وفكرة الثـأر وتوعية النسـاء تخامرني كل حيـن، كتبت تقريرًا عنها مرفق ببعض الاقتراحات وأرسـلته للمجلس القومـي للمـرأة، وصلنـي إيميـل منهـم يطلبون مشـاركتي بـأن أكون متطوعـة ضمـن فـرق التوعيـة معهـم، أرسـلت موافقتي رغـم عوزي المـادي وضيـق الوقت لكنني كنت أود أن أجـرب العمل المجتمعي، في الحقيقة أردت أن أجرّب كل الأشـياء التي لم أمارسـها ولم أعشها من قبل. فكرت في أن ابنة مُسعد قد تساعدني وقد يفتح لها هذا العمل أبوابًـا جديدة. تذكرت كلام ورد عَمَّا يجلبه العطاء لحياة الإنسـان من محبة.

مضى أسـبوعان على دروس الكتابة الإبداعية، كنت أشـعر بنشوة كبرى تدخل حياتي، أكتب كل يوم منشورات عن الكتابة تحظى بالكثير من الإعجاب، أترجم المقالات والنصوص وأنشـرها، تواصلت معي منظمة عالمية للكتابـة الإبداعية وطلبوا مني الانضمام إلى فريقهم في مصـر لحث الناس علـى كتابة الرواية والانتهاء مـن الأعمال المؤجلة

بسبب قفلة الكتابة. من خلال الكتيبات المترجمة ودعاوي الحضور لتجمعات للكتابة الجماعية وماراثونات الكتابة. كنت أقوم بدوري بمنتهى الحماس والدقة. تغلبت على نقص المال بالاستغناء والتركيز على كل ما يمنح حياتي الطاقة والحب والشغف.

لكن كل ضحكي ومثابرتي وعملي لم يمنعوا حالات الاكتئاب التي كانت تداهمني وتزج بي في صدفة من العزلة، لا يظهر مني إلّا أطرافي التي تؤدي أدوار الأمومة والعمل. مُخفية ضعفي عن الجميع، إلّا «مازنًا». كنت ألقي بضعفي وخوفي أمامه فيعودان لي ثقة وقوة. وكان هذا أيضًا يؤلمني.

بالأمس أتاني اتصال غير متوقع من «نجلا». حكت لي عن أيامها الأخيرة بدبي وكيف أن «سيدًا» رفض طلاقها إلا بعد أن تبريه من كل حقوقها المادية وتعيد له ما صرفه عليها، أخذ منها كل ما ادخرته للسنين، حتى إقامتها في دبي حارب واستخدم كل نفوذه ومعارفه من أجل أن يلغيها، فاضطرت إلى التخلي عن كل شيء والنزول إلى مصر بالقليل من المال والكثير من الإحباط. أخذ منها أبناءها بحجة الصرف على تعليمهم، حتى الغربة لم تنصفها وأصدقاؤهما المشتركون وقفوا في صفه ضدها. زفرت «كل شيء في الحياة حتى أكثر العلاقات حميمية لا تستقيم إلا بالمصالح».

لكنها بدأت من جديد وتقدمت للعمل كمعلمة في إحدى المدارس الدولية. أما أبناؤها فعقدت معهم اتفاقًا بدون علمه على الاتصال بها

كل يـوم حتى يتسـنى لهـا العودة لدبـي بإقامة جديـدة وضمهم لها من جديد. انتابني شعور عميق أنني لو كنت في مكانها كنت سأنهار، ربما شـعرت بما دار برأسـي فقالت إنها لـم تتوقع أن يضيع منها كل شـيء الأولاد والأحـلام والحُب، ورغم ذلك تسـتطيع أن تسـير فـي الحياة كأنهـا ما فقدت شـيئًا أبـدًا. قالت إنها ربمـا فترة راحة من مسـئولياتها الكثيرة، إجازة من المشـقة النفسـية والاجتماعية التـي كانت تواجهها وبداية جديدة لاكتشاف ما يستحق المشقة.

عرضـت عليها الانضمام لمجموعات الكتابـة، أصبح لي صديقة جديدة، أسـتطيع أن أتحدث معها عن الأسـباب الكونيـة لوجودنا في هـذه الحياة وتكبـد المعاناة والخوف، وتحقيق ذواتنا رغم كل شـيء. تشاركني القراءات والخروج والعبث.

***

لكنني رغم ذلك أريد أن أراك

أريد أن أعرف طريقتك في شرب القهوة

أن أرى مشيتك

أن أدرس نظراتك

أن أحدد كيف ومتى تحرك شفتيك لتبتسم

أن ألاحظ حركة يدك وهس أنفاسك

أريد أن أرى تعبيرات وجهك عندما أتحدث

ضيقك، فرحك، حماسك، استنكارك، قلقك

أن أتأمل وجهك وأنت تتحدث عن التاريخ والعبر

أريد أن أتنفس في مكان أنت فيه

أن أشعر بلذة الصمت معك وأنت أمامي

وبلوعة الحديث المحموم المتصل

وبترددك بين الرفض والقبول

هل تعرف أن الإغواء الحقيقي في المنع وليس المنح؟

(نص الرسالة التي حذفتها قبل أن أرسلها إلى مازن)

34

مازن

عرفتهـا منذ قالت «أنا لا أعرفـك لكني أعرف أنك تعرفني» عندما أتاني اتصالها ولأول مرة وجدت نفسي عاجزًا عن الاحتفاظ بهدوئي، نزلت مسرعًا إلى حي المعادي حسب وصفة صاحب الكشك، شعرت بقدمي تلتفان وبقلبي يكاد ينخلع من مكانه ويُسقط ما بداخله. تمنيت في هذه اللحظة أن يمنحني الله جناحين لأطير لها. كنت أعرف أنها في طريقها لمعسكر للكتابة في حي المعادي، كانت بصحة طيبة وأرسلت لي زهرة إلكترونية قبلها بنصف سـاعة. عندما وصلت وجدتها تجلس على كرسـي خشـبي أمام الكشـك علـى وجهها نظـرة ذهـول ويداها متشـبثتان بجهاز لابتوب، اقتربت منها فلـم تتعرف عليَّ، لكنها وقفت إلـى جواري لترافقنـي كطفلة، طمأنتهـا ببضع كلمات محـاولًا إخفاء قلقي عنها، ثم ظهر لي فجأة شاب يقول: أنا رأيت كل شيء.

سألني: حضرتك قريبها؟

احترت في الرد، وددت أن أقول إنني زوجها لأتجنب المشاكل، لكنني خفت من المواقف التي يجرها الكذب أكثر، قلت: أنا صديق أبيها.

حكـى الشـاب: كانت تسير بعجلة وهـي تتحدث علـى الهاتف، ظهـرت من الجهـة المقابلـة دراجة، في أقل مـن ثانية كانـت مدفوعة بقـوة لترتطم رأسـها بالأرض. هرب سـائق الدراجـة وبقيت هي على الرصيـف لدقائق في إغماءة، عندمـا أفاقت كانت تريد القيام والرحيل فورًا. حاولت أن أسـاعدها لكنها رفضت ومشـت بضع خطوات حتى وصلت لهذا الكشـك. محفظتها وهاتفها سـقطا على الأرض وعندما حاولـت الاتصـال مـن هاتفهـا بأحد مـن أهلها وجدتـه مغلقًا بشـفرة فانتظرت بالقرب منها حتى أطمئن إلى أنها ستتوصل إلى من يعرفها.

مد يده لي بالمحفظة والهاتف، حاولت أن أنفحه مكافأة مالية غير أنه رفض، واختفى.

ركبت إلى جواري في السـيارة، كانت شـاردة تتجنـب النظر إلي، سألتها عما حدث، لاحظت ثقل لسانها وهي تقول أنها لا تذكر شيئًا ولا تشـعر بشيء. رافقتها إلى مستشـفى قريبة وبعد عدة فحوص طمأنوني على عظامها ورسـم القلب. لكن رسـم المخ أشـار إلى أن هناك خللًا ما في مسـتوى الدم، تبين للطبيب أنها أصيبـت بهبوط طفيف في الدم الـذي يتدفق إلـى المخ نتج عن الحادثة وأن هذا سـبب لهـا فقدانًا في الذاكـرة، لكنـه طمأنني أنه طالما مر سـاعة على الهبوط وبدأ مسـتوى الـدم بالارتفـاع مرة أخرى فـإن الأمر عابر وسـتتعافى وتعـود الذاكرة بمجـرد أن يعـود الدم لمعدلـه الطبيعي الذي بدأ في التحسـن بالفعل. تناولـت بضعة أقراص مذيبة للجلطات وأخرى محفزة للذاكرة، كانت

طبيعة صامتة، غادرنا المستشفى وقد بدأت تتذكر خطوطًا عامة عن حياتها، الزوج المسافر والأبناء المنتظرين في البيت.

في مطعم صغير له ديكور شرق آسيوي، جلسنا إلى مائدة صغيرة تجاورنا نافذة خشبية عليها تمثالين لتنانين آسياوية وأمامنا أطباق وملاعق خزفية منقوشة بدقة باللون الأزرق، موسيقى هادئة تسري حولنا، الجو ساحر ودافئ، في هذه اللحظة بدأت أشرح لها ما حدث في الساعات الأخيرة، فحكت لي ما تذكرته وقتها. لم أحاول أن أصدمها بالشكل النهائي الذي أصبحت عليه الآن. فقط طلبت منها أن تفتح اللابتوب وتقرأ ما دونته خلال الأيام الأخيرة. كنت أعرف أنها تكتب عليه كل يوم، كانت ترسل لي بعضًا من كتابتها على أوقات متفرقة.

أرادت أن تبدأ من النهاية لكنني أصررت أن تبدأ من أقدم تاريخ كتبت به قبل ثمانية أشهر. من أول صفحة بدأت ملامحها تتغير، شعرت أنها تذكرت اختفاء والدها، لكنني لم أسألها أو أناقشها، تركتها للقراءة. ثم شعرت أنها بدأت تتذكر تدريجيًا مع القراءة كل التفاصيل الصغيرة، ومشاعرها خلال هذا الوقت، دمعت عيناها خلال أكثر من نص، كانت تسألني أحيانًا، تتأكد مني وتمتن لي، ثلاث ساعات من القراءة المتواصلة، تذكرت أغلب الأحداث، لكنها لم تتذكر أبدًا تفاصيل الحادث الأخير وما قبله.

قالت: نحن لم نلتق إلّا مرة واحدة. فكيف تذكرت رقمك أنت بالذات.

- أعتقد لأنني صديقك الأقرب في هذا الوقت.

- لكنك لم تحاول أن تراني. كيف كنا أصدقاء دون أن نلتقي.

- ربما الإنسان لا يحتاج أن يرى إنسانًا آخر بقدر حاجته أن يشعر به.

بقينا صامتين نتبادل نظرات الامتنان والسعادة، كانت مرتاحة وكنت سعيدًا للدرجة التي تمنيت فيها ألا ينتهي اللقاء. لكنني تغلبت على مشاعري، ناديت النادل وطلبت منه الحساب. قبل أن نغادر المكان وقفت التفتت إليَّ عند الباب، أردت أن أقول شيئًا من مشاعري في هذه اللحظة، لكن نظرتها الخائفة والمحرّضة في آن مثل باب مغلق في وجهي، يمنعني عن البوح. قالت هي «عصير جوز الهند كان أطيب عصير شربته في حياتي».

رددت ضاحكًا: هذا لأنك لا تتذكرين الطعوم التي شربتها في حياتك.

ثم استكملت: بالتأكيد هناك أفضل.

قالت جادة: بالتأكيد ليس هناك أفضل.

هل أُحبها؟

وأنا الرجل الذي خاض حياة مليئة بالتجارب، أحب وأحبته النساء مرات عديدة، حتى تزوج أخيرًا وهو في الخامسة والثلاثين بعد أن وجد امرأة تحتوي مشاعره وتقنع عقله بفكرة الزواج والأبدية،

عشت معها عشر سنوات جميلة في عمري وكانت سببًا لامتدادي في الأرض، بالأبناء والحب. لماذا الآن بعد أن عشت الاستقرار وأحببت حياتي كرجل ناضج يشجع الناس ويبث فيهم الأمل، يعمل على تحسين مستوى أسرته والاستمتاع معهم وبهم، لماذا الآن بعد أن عرفت الطريق الذي يوصلني بالله تقف في طريقي امرأة مغوية بحنانها واختلافها، تضخ في حياتي الدم من جديد، تُعيد تشكيل نوتات السعادة التي يعزفها قلبي لتصبح هادرة بعد أن كانت بليدة. امرأة تخبرني كم أنا جميل، إن الإنسان دائمًا بحاجة إلى من يخبره أنه جميل ويستحق الحُب.

كنت أؤمن بأن هذه هي التجربة الأهم في حياتي، الاختبار الذي وضعني فيه الله حتى يراقبني من خلاله. كيف سأتخطى مشاعري وأنتقل بامرأة أُحبها من التيه لأن تجد نفسها، دون أن أفقد قيمي، ودون أن أسبب لها المزيد من المتاعب. لم أكن أملك إلا الأمان الذي قررت أن أحيطها به دون أن تشعر، والحياد الذي قررت أن أصدره لها حتى لا تقع في الوهم، وحتى أستمر في وجودي جوارها. لم تراودني يومًا رغبة في الاعتراف لها بالحب، وإن كنت أفكر كل دقيقة كيف أجعلها سعيدة واثقة..أليس هذا أبلغ من الاعتراف بالحب؟

35

لأول مرة يصعد معي مازن للبيت، أراد أن يطمئن عليَّ بعد السقطة المؤسفة التي أطاحت بذاكرتي لبعض الوقت والتي مازلت لا أذكر تفاصيلها. سرت جواره كأنني أحلّق، أمشي فوق الأرض بشبرين، كنت قد تذكرت كل شيء، لكن وجوده أنساني الورم في رأسي والألم في جسدي. لم أتوقع أبدًا عندما نزلت من البيت في هذا الصباح أنني كنت على موعد مع كل هذه الأحداث والتي انتهت بمعانقة أحلامي في مطعم صغير لم أفكّر أن أجرب طعامه، في حي بعيد نادرًا ما أزوره.

لم يكن هذا كل شيء.

بمجرد أن فتحت الباب أتتني هذه الرائحة التي أعرفها جيدًا. هذا العطر الثمانيني الفواح بلسعة رائحة الليمون، لطالما تذوقته وأنا طفلة تلثم أبيها، كنت أراه على رف الحمام وتسريحة غرفة النوم، زجاجة خضراء استوائية المظهر، رائحة سلام الطفولة ونبوءة خروج أبي أو عودته، العطر الذي لم أشمه إلّا في حضوره. صرخت دون أن أراه «بابا».

ظهر عند باب غرفة المعيشة في قميصه السماوي وسترة رمادية خفيفة، قبل أن يأتيني كنت مغروسة في حضنه، أقطر الندى على ثيابه ولا كلمات في فمي، كل ما في أحضان ودموع. كان دفء جسده هو أجمل ما شعرته في حياتي، تواصل حراري غريب جعلني أتمنى لو كنت عضوا من أعضاء جسده فلا أتركه أبدًا.

لا أدري كم من الوقت مضى حتى تركت حضنه لأرى عينيه الباكيتين، لأرى المحبة الخالصة لأول مرة في وجهه، أذكر أنني قبّلت وجهه ورأسه ويده مثل ما لم أفعل في حياتي قط. الغريب أنه سلّم على «مازن» بحرارة مشابهة، والدموع في عيونهما. عندما كبحنا عواطفنا وجلسنا للحديث عرفت منهم أن «سليمًا» اتصل بي ليخبرني بمجيء جَدّه وأن هذه اللحظة كانت هي لحظة الحادث لأن الاتصال انقطع. حكى أبي أنه تنقل بين عدة أماكن في هذه المدة، لكنه أغلب الوقت كان يسكن شقة صديق في الإسكندرية. حكى أنه انتهى من كتابة روايته وعن سعادته بإنجازه وتعاقده مع دار نشر عريقة لنشرها. حكى الكثير من الحكايات المثيرة والمواقف والمفارقات. لكنني ما زلت لا أفهم.

عندما غادرنا الجميع سألته وحدنا ونحن نجلس متقابلين، صريحين، ملفوفين بالعاطفة: لم اختفيت؟

قال: كنت أريدك أن تري العالم بشكل مختلف. نظرتك له لم تكن تشبه روحك التي أعرفها، لست ابنتي التي كانت تكتب مشاعرها

على قصاصات من الورق وتكتب رسـائل الحب والاعتذار والأماني، ابنتـي التي كانت تُكمِل القصـص التي كنت أحكيها وتضع لها نهايات مختلفـة أوقـع وأجمل، ابنتـي التي كانـت مُقبلة على الحيـاة وتعد لها كل مـا اسـتطاعت من طموح وقـوة، والتي قـررت أن تواجه مخاوفها بخشـونة يـوم قاطعت صديقة عمرهـا التي لطالما آذتهـا، ويوم تركت أول عمل لها ويوم تخطت كل ما يؤلمها. لم تكوني أنتِ..كنت تمثلين دورًا ليس دورك. كنت أرى حياتك تسير والعمر يمر وأنت لست هنا. حتى أولادك تحوّلوا لمسوخ أمام التكنولوجيا. كنت أراك أمام زوجك منسحقة. بلا رأي، بلا قرار، لا ضحكات بينكما، لا حديث، لا تقارب. رجل بالاسم في حياتك، مسافر لا يريد رفقتكم، وأنت هنا تتخلين عن رغباتك وأحلامك ووجودك من أجل أن تكوني صورة لزوجة وأم.

أردت أن أمنحـك تجربـة لتتعرفـي علـى علاقتـك به مـن جديد. تصورت أنه سيشاركك التجربة، سيسافر معك، سيفكر معك، سينفتح بينكمـا حديـث لا ينتهـي، مثل هذه المواقـف في حياة الإنسـان تظهر متانـة روابطه بالآخرين. أردتك أن ترحلي داخل نفسـك، ألا تصبحي نسـخة مكررة مني أو من أمك. كلانا تخلى عن نفسـه من أجل صورة الزواج. قضت عمرها حزينة لأنها لم تستطع أن تحبني، أو حتى تحب نفسـها، وضعت أمامها صورة لحياة سوداء ولم تحاول الخروج منها. وأنا قضيت عمري في جلد غير جلدي، وعندما قررت أن أكون أنا، أن أعيش كما أريد ليس كما أراد لي المجتمع والناس. كان قراري قد آذى ثلاث نسـاء، أمك وأنت و«حُسـن». أمك غضبت علـي حتى رحلت،

وأنـت اعتبرت وجودي مثل عدمه، و«حُسـن» اسـتغنت عني لأني لم أكن معها في وقت الإحتياج. لم تنصفني أنصاف الحلول. كنت أريدك أن تجدي الطريق الذي يصلك بنفسك دون أن تؤذي أحدًا. أن تفتشي فـي الماضـي لأجـل أن تصلحـي الحاضـر. أردت الكثيـر. لكنني لم أتصور أبدًا أن غيابي سيعيدك إلي..وليس فقط إلى نفسك.

قلت: ربما لأنك جزء من نفسي.

تعانقنا وبكينا مرة أخرى. ظننت أن المرض فقط ما يجعل الإنسان عاطفيًا مع أحبته بشكل مبالغ فيه، لكن اتضح لي أن العودة بعد الغياب تفتت القلب من شدة عاطفته.

36

يـوم ربيعي من شـهر أبريل، الزهـور التي أعتني بها بـدأت تتفتح، تماما مثل قلبي. أدركت أنه ليس هناك معادلة واحدة للزواج أو الحب أو الكتابـة، كل الأسـئلة التـي تملؤني أكتب لأجد لهـا الإجابات، كل المشـاكل أكتب لأتلمس لها الحلول، المتاهات والشفرات في حياتي لا يفكها مثل الكتابة، حتى الواقع المضطرب ترسـم له الكتابة خريطة لتجعله أوضح وأسهل، الشك الذي غلب اليقين عندي ساعدني على التوصل لحقيقة أنه ليس هناك حقيقة.

أكبـر خدعـة ونعمة في نفس الوقت في حياتـي كانت هذا التواطؤ الغريـب الـذي اكتشـفته بيـن أبـي وكل مـا حدث لـي خلال الشـهور الماضية، كان أبي على تواصل مع «ورد»، هو من طلب منها استقبالي، «مـازن» هـو من رافقه للقهوة فـي الجمالية، جعله يصـور لي احتمالية وجـود أبي في دبي، «نجـلا» كانت على معرفة وثيقـة واتصال مع أبي الـذي طلب منها أن تقابلني، السـفر إلى سويسـرا كان مـن تدبير أبي، وزيـارة الصعيد كانت بوازع منه، الشـيء الوحيـد الحقيقي خلال هذه الرحلة كان الرسـائل، لكني رغم ذلك لم يغضبني التواطؤ، كل شـيء في الحياة نستطيع تقبله إن أقنعتنا الدوافع. حتى أكثر الأمور شرًا.

مضت عدة أيام على آخر اتصال مع «مازن»، كنت أراسله وأنا على أطراف أصابع قلبي، هائمة، محلقة في جو من الأحلام الرقيقة البنفسجية، أخذتنا دفة الحديث إلى آفة الحُب، فجأة انقطعت رسائله، ذقت على مدار الليل كل أنواع العذاب التي جربتها من قبل..ولم أتعلم. كان هذا سبب غضبي الأساسي، أنني أكرر نفس الفزع والدموع والحرقة. أشعر بنفس اليأس والمرارة، بمجرد أن يمسّني جفاء شخص أكن له مشاعر. عندما تسرب لي هذا الشعور الخانق بأنني لم أتغير. بدأت أستند على غضبي وأقاوم. عند الصباح كان قمر صبري قد اكتمل، لكنه سرعان ما ذاب مثل السكر..بل ذاب مثل الملح. عندما أخبرني «مازن» عن سبب انسحابه المفاجئ. «زوجتي أتت لحضني.. واضطررت لإغلاق الهاتف».

يبدو أنه لاحظ ثقل جملته عندما طال صمتي، كتب «أرادت أن تحدثني في أمر مهم»، لماذا انكسر شيء فيَّ بهذه اللحظة؟ هل كنت أجهل أنه متزوج؟، كنت أعرف، نطق اسمها أمامي عدة مرات، لكنه لم يحدثني أبدًا عنها، عن طباعها، عن علاقتهما..أو حتى عن أي حدث عابر بينهما. هل أربكني أنه قال حُضني؟ هل شعرت أنه يقصد إفاقتي عندما نحى بنا الحديث للحُب؟ هل عرف أنه جرحني بهذه الجملة التي لم أجد لها مكانًا في شوارعنا المكتظة بالامتنان والمودة؟ إن مجرد طرح الأسئلة والتفكير في إجابات كان يؤلمني في هذا التوقيت. إنه التوقيت الذي أردت فيه أن أجرّب الشيء الذي لم أفعله أبدًا. الشيء الذي لطالما شجعني مازن عليه. أن أتخذ قرارا.

من غرائب القدر أن الشخص الذي تُعلّمه شيئًا ما، يكون هو أول من تُجرّبه عليه. منذ اللحظة التي طال فيها صمتي، وسقطت فيها دموعي، وكتب لي «مازن» «ماذا بك؟» كنت قد اتخذت قراري.

***

كان نور الشمس يداعبني ويضحك لي وأنا أتمشى على النيل في حي المنيل، في طريقي لأبي بعد أسابيع قليلة من عودته، هناك قابلت أخي الذي عاد إلى مصر في إجازة قصيرة، كان غاضبًا على التحول الذي حدث لي، بدا لي أن زوجي تحدث معه، اشتكاني، زوجي الذي اكتفى بجملة قصيرة باردة عندما عرف بعودة أبي «حمدا لله على السلامة». تردد أخي قبل أن يخبرني أن زوجي يريد أن ننتقل للعيش معه في الدوحة وأن تعود الأمور إلى طبيعتها.

قرار آخر عليّ أن أتخذه، لكن هذه المرة القرار مصيري ونهائي. لا أحد يدري توق المرأة مهما زعمت بغير ذلك في أن تعيش كزوجة وأم في أسرة سعيدة، ترتب الأسرّة وتطهو الطعام وتسهر معهم في مشاهدة فيلم جديد، لكن هل تساوي تلك اللحظات أن يقضي الإنسان عمره في وهم السعادة والدفء، أن يعيش الإنسان كممثل قدير يؤدي دوره بمنتهى الدقة وهو مسلوب المشاعر والكرامة؟ إنها المعادلة الأكثر خطورة في حياتي. عناصرها روحي وثلاثة أرواح صغيرة. وناتجها أتحمله وحدي.

لـم أرد علـى أخـي الذي أمهلنـي مـدّة للتفكير، كنـت على موعد لتلبيـة دعوة «شـادي» و«مسـرّة» لحضور حفلة سينشـد فيها لأول مرة كمنشـد محترف ضمن فرقة صوفية جديدة، رحب أبي بالحضور معي وجـاء أخي معنا على مضض. في قاعة كبيرة بسـاقية الصاوي جلسـنا في الصفوف الأولى، وقف «شـادي» في قلب المسـرح مرتديًا جلبابًا أبيـض وعلى رأسـه عمّـة صعيديـة، أغمض عينيـه وراح فـي نوبة من الشـغف بينما صوته يسـري في المـكان كحبات نور، تسـير في الهواء لتستقر بسلام في قلوبنا.

وما حيلتي والعجز غاية قوتي

وأمري جميعًا تحت حكم المشيئة

فخلصني من أسر الطبيعة

يا رب واهدني بنورك يا الله ونور بصيرتي

وأنْعِم بتطهيرِ الفؤاد من الهوى

وخلّصني

كنت أشعر بقلبي كعنقود عنب فرطوه حبّة حبّة، كخبز يابس تركوه طعامًـا للطيـور، كبضاعة راكدة باعوها بثمن بخـس، كقط منزلي يموء وحيدًا في الشـوارع، كإسـطوانة كارتونية نزعـوا كل مناديلها البيضاء. هل كان قلبي أم كانت كرامتي؟

صوت «شادي» جعل مشاعري فوق جلدي، طبطبت عليّ «مسرّة» تواسـي ما رأته في وجهي، قبل أن أشـعر بظل خفيف يميل باتجاهي،

كشـيء ينـوي مفاجأتي، قلت كمُغنّية «مـازن!»، لكنه اعتذر بصوت لا يشـبه صوت «مـازن» وانصرف للبحث عن كرسـيه، أمسـكت هاتفي لأراسـل «مازن» فـي هذه اللحظة، لن أصمد أكثر، وجدت رسـالة منه «بسلم عليكِ» ووردة، امتلأت عيني بالدموع من رقة الأثر الذي تركته عليَّ الرسالة، لكني قلت في نفسي «بل سأصمد».

أضـاء هاتفـي باتصال منـه فلم أرد، ثـم اتصال مـن أولادي، عقبه رسـالة من زوجي في سابقة لم تحدث منذ شهور «نحتاج أن نتحدث» إنـه حتى يرفض الاعتراف بأنه هو مـن يحتاج أن يتحدث إليّ!، تركت المـكان وخرجـت، أغلقت هاتفي وتمشـيت في الشـوارع، سـاعات مـرّت وأنا أسـير فقـط، أفكّر كأني أقلّـب كل الأمور التي تشـغلني في صحن كبير، عميق، بمغرفة خشـبية طويلة، لكني الآن لا أفكر بشـكل عشـوائي، بل أفكّر بشـكل مائل، هذا الميل الذي ينقلني بخفة من التيه إلى الرشـد، الميل الذي تسـتقيم معه حياتي. لم يهمنـي قلق أبي عليَّ كما لم يهمه قلقي عليه. كنت أدرك أنه يعرف أنني أحاول تحمل مشقّة الـولادة وحدي. إنه ابني الرابع الذي عليَّ أن أرعاه وأهتم به وأسـعده حتى أتمكن من منح السعادة للآخرين. إنه حياتي.

37

فـي قاعة كبيـرة ملحقة بمكتبـة القاهرة، جلس أبي متحمسًـا على المنصـة كأنـه ابن العشـرين، أمامه رصّة كبيرة أنيقة التنسـيق من نسـخ روايتـه الجديدة، إلى جـواره كاتب وناقد معروف قدّمـه بطريقة جزلة وأثنى على تاريخه، أمامهم جلسنا نحن، فضلت الجلوس في الصفوف الأخيـرة مع أبنائـي، أراقب أبي وهو يحقق أحلامه التي لـم يتنازل عنها رغم كل شيء، قبل أن يهمّ الناقد بتقديـم الرواية استأذنه أبي في كلمة، أمسـك المايكروفون وطلب من «حُسـن» أن تأتي لتجلس إلى جواره على المنصّة، وكانت تجلس أمامه في الصف الأول. تحركت «حُسن» ببـطء لا يخلـو من حمـاس وفرحـة، خبأتهمـا بعناية تحـت ملامحها الهادئة وعينيها الطفلتين، بمجرد أن جلسـت جواره أمسـك كفها بيده والمايكروفون باليد الأخرى وقال:

هذه ليسـت «حُسن» الكاتبة المعروفة فقط، هذه شريكتي. شريكة الكتابـة والأحـلام، واليوم هي شـريكة حياتـي أيضًا ومـا تبقى لي من عمر.

تزوجها أبي قبل شـهر في إنجلترا واتفقا على العيش بين البلدين، ارتجت القاعة من التصفيق والتصفير وسعادة صبيانية وأخرى رصينة،

حتى أن صحفية شابة زغردت من شدة تأثرها، ماجت عيونهما بالدموع، وعلى وجهيهما ارتسمت ابتسامات تعلن أن كل حركات الشفاه التي مضت في حياتهما لم تكن ابتسامات قط، على جانب القاعة وقف «مازن» حاملًا ابنه الصغير، شديد الشبه به، له نفس النظرة العذبة، التي لا تكشف شيئًا، ولا توحي بشيء. عرفت أن زوجته كانت في الحفل لكن عقلي الباطن رفض أن يراها. تبادلنا ابتسامات عديدة، كل واحدة قالت شيئًا مختلفًا.

قبل نهاية الحفل طلب أبي مني أن أتحدث عن نفسي، عن تجربتي في الشهور الأخيرة وأثر الكتابة على نفسي، كان يريدني أن أخوض في حديث طويل يبدأ بـ «كنت» وينتهي بـ «أصبحت»، لكنني اكتفيت بجملة واحدة نزلت بعدها من فوق المنصة، قلت «كل يوم أزداد يقينًا بأن ما قررته من أجلي أجمل من كل ما اختاره القدر لي».

38

أصبحت الكتابة دائمًا هي بديلي عن الهروب، كانت صديقتي المخلصة التي تقدم لي التفسير والمنهج، وهي قصة حياتي التي تتأزم مثل الروايات، تتعقد بصراعات عظيمة ثم تنتهي دائمًا بانفراجة، كان من الضروري أن أكتب حتى أواجه صراعي الدائم الكبير بين اختياراتي الشخصية واختيارات القدر التي سحبتني لدائرة طويلة من المواءمات. كان لابد أن أكتب لأنقذ نفسي، لأعيش الاكتشاف الذاتي لنفسي، لأنجو بنفسي من حياة تضيع في العبث وعدم الفهم، تضيع بدون وصال حقيقي، مع الآخرين أو حتى مع نفسي.

في قاعة كبيرة ملحقة بمكتبة القاهرة الجديدة، كنت على المنصة، بجواري كاتب وناقد معروف يستعد لمناقشة روايتي الجديدة، وأمامي نسخ منها رُصّت بشكل منمق، توقفت عن إتمام حديثي عن الكتابة عندما دخل أولادي من باب القاعة، ابتسمت لهم بسعادة لفّت أعناق الجميع، أشاروا لي بالسلام وأرسلت ابنتي الشابة الجميلة قُبلة في الهواء، كنت أعرف أنهم على موعد سفر للدوحة لقضاء شهر من الصيف مع أبيهم وزوجته. أسعدني أنهم حرصوا على الحضور رغم كل شيء.

عندمـا انتهت المناقشـة والتوقيـع خرجنا لبهـو المكتبة اسـتعدادًا للرحيـل، بعد كل سـلامات الأقـارب والأغراب، اقترب منـي أخيرًا، سألته بعتاب:

-كنت أريد أن تشـاركني المنصة، أن أقول لك كلمة امتنان لطالما وددت أن أقولها أمام العالم. لماذا رفضت؟

-تعرفين أن الليلة للاحتفاء بك. وأنني أنا الممتن لك دائمًا.

سـرنا متجاوريـن حتى وصلنا لسـيارته، بجواره جلسـت أنظر من نافـذة السـيارة للسـماء الزرقاء، القمـر جميـل والنجوم تلمـع، بعيدة تنـادي، وقلبـي يرهف السـمع ويلبي النـداء بدقة إضافية، الموسـيقى تلفني، وصوته وهو يهمس جواري كأنه ينبعث من مشاعري أنا. قال:

«لن نعود إلى البيت..ينتظرنا سفر»

لـم أسـأله عن وجهتنـا، لأول مرّة لا أسـأل عن الطريق. اسـتبدلنا الهمـس بتواصل آخـر، طبعت قبلة على ذقنه وقبّـل ظهر كفي وباطنه. أرجعت الكرسـي إلى خلف وأنا في حالة اسـترخاء وتوازن تام، قلت دون شعور: قدماي تؤلماني. قال:

«اخلعي حذاءك..ما زال الوقت أمامنا»

خلعت حذائي، الآن..قدماي حرّتان، قلبي حُرّ، وكذلك أنا.



لم أكن أعرف أن بحثي عن نفسي يعني فقداني لها، حاولت أن أعيش دون أن أفكّر في ما أفعله، دون أن أعرف ما عليّ أن أفعله وما يجدر بي فعله، كافحت حتى أكون مثل الجميع، عانيت حتى لا أصغي لقلبي، لكن الشغف سحبني من أطراف ثيابي ومشيت فوق آلامي وعجزي وتحركت عكس علامات الطريق، من الظل إلى الشمس، مشيت في كل الممرات التي قد تؤدي إليّ، ظننت أنني لا أخاف. والآن فقدت قدرتي ليس على الرؤية فحسب، لكن على الحركة والتفكير والكلام. الآن قدماي مثبّتتان على الأرض وظهري للجدار. لا أحتاج لأحد ولا أغفر لأحد. كل ما فيَّ لن يمنعني من التعرّف على الجزء الكافي مني الذي يمكّنني أن أتخذ قرارًا. حتى لو ابتلعني هذا القرار.



شيرين سامي كاتبة مصرية من مواليد القاهرة. تخرّجت في كلية الصيدلة جامعة القاهرة، ولها مجموعة قصصية بعنوان: "كتاب بنكهة مصر" 2012. صدرت روايتها الأولى في 2014 بعنوان: "قيد الفراشة"، كما صدرت روايتها الثانية في 2016 بعنوان: "حنّة".

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف



